كتاب الشعب
٤

قصة الجنس البشرى



تأليف
الدكتور هندريك فان لون
ترجمة
ابراهيم زكى خورشيد أحمد الشنتناوى

كتاب الشعب
٤

قصة
الجنس البشري

تأليف
الدكتور هندريك فان لون

ترجمة

ابراهيم زكى خورشيد   أحمد الشنتناوى

الجزء الثانى

مطابع الشعب
١٩٥٧

الإصلاح الديني

تقدم الجنس البشرى أشبه برقاص ساعة ضخم ، يروح ويغدو دائما أبدا . وقد امتاز عصر النهضة بعدم احتفال الناس بالدين ، وغيرتهم على الفن والأدب . ثم أعقبه عصر الاصلاح الديني ، فلم يحفل الناس فيه بالأدب والفن ، وتحمسوا للدين

لا شك أنك سمعت بالاصلاح الدينى ، وان عقلك يتجه عند ذكر هذا الاصلاح الى جماعة قليلة العدد من الحجاج الشجعان الذين عبروا المحيط لكى تتاح لهم حرية العبادة . ولقد أصبحت عبارة الاصلاح الدينى بمضى الزمن (وخاصة فى الدول البروتستانتية) تدل دلالة غامضة على حرية التفكير . ويعد **مارتن لوثر** زعيم رواد هذا الاصلاح . على أننا اذا نظرنا الى التاريخ ، على أنه شىء أسمى من تلك المجموعة من الاقوال التى نتملق بها أسلافنا الامجاد ، أو اذا سعينا الى كشف « ما وقع فعلا من الحوادث » — على حد تعبير المؤرخ الالمانى **رانكه** — لامكننا أن نرى كثيرا من حوادث الماضى فى ضوء مختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

وقلما نجد فى حياة الانسان ما هو خير خالص أو شر محض ، وقل من الاشياء ما يوصف بالسواد أو البياض . ومن واجب المؤرخ الامين أن يعطينا صورة صادقة لجميع النواحى الخيرة والشريرة فى كل حادثة تاريخية ، ولكن ذلك عسير كل العسر ، لان كل واحد منا يحب أشياء ويكره أخرى ، ومع ذلك فانه يجب علينا أن نحاول الانصاف ما وسعنا ، والا نسمح لاهوائنا بأن تطغى علينا .

ولنتخذ حالتى مثالا لذلك ، فانى قد نشأت فى وسط بروتستانتى قح فى دولة مغرقة فى البروتستانتية ، ولم يقع بصرى على كاثوليكى الى ان بلغت الثانية عشرة من عمرى تقريبا . . . فلما لقيت الكاثوليك بعد ذلك شعرت بضيق شديد ، وتوجست منهم بعض التوجس ، فقد كنت أعرف قصة أولئك الآلاف من الناس الذين أحرقوا او شنقوا او قطعت اوصالهم على يد محاكم التفتيش الاسبانية ، وذلك عندما حاول **دون ألبا** أن يطهر هولندا من بدع **لوثر وكلفن** الدينية .

لقد كانت كل هذه الاحداث فى نظرى امرا واقعا لا مرية فيه ، بل كانت تبدو لى كحادث الامس . وقد تتكرر ليلة سانت برثلوميو ، وقد اذبح انا الضعيف المسكين فى ملابس نومى ، ويلقى بجسدى من النافذة كما حدث لامير البحر النبيل **ده كولينى** .

واتفق أن ذهبت بعد ذلك بمدة طويلة الى احدى الدول الكاثوليكية ، وعشت فيها بضع سنوات ، فوجدت أناسها أعظم بشاشة وأكثر تسامحا من أهل بلدى ، بل كانوا لا يقلون عنهم ذكاء . وما أشد عجبى عندما اكتشفت أن للاصلاح الدينى وجها كاثوليكيا ، كما أن له وجها بروتستانتيا ! . وليس من شك فى أن أهل القرنين السادس عشر والسابع عشر الطيبين الذين عاشوا فعلا فى عهد الاصلاح الدينى ، لم يروا الاشياء على هذا النحو . فقد كانوا يشعرون دائما أنهم على صواب ، وأن خصومهم هم المخطئون على الدوام ، فلم يكن ثمة مندوحة من أن تكون شانقا أو مشنوقا . على ان كل فريق كان يؤثر أن يكون الشانق ، وكان ذلك لا يعدو أن يكون أمرا من طبيعة الانسان لا يستوجب اللوم .

فاذا نظرنا الى العالم كما كان يبدو سنة ١٥٠٠ — وهى سنة يسهل تذكرها ، وفيها ولد الامبراطور شارل الخامس — لالفيناه على النحو الذى سنذكره . لقد تلاشت فوضى العهد الاقطاعى فى العصور الوسطى أمام النظام الذى مكن له عدد من الممالك الممعنة فى المركزية . وكان شارل العظيم آنئذ — أقوى ملوك هذه الممالك جميعا — لم يزل فى المهد صبيا . . . فهو حفيد فرديناند وايزابلا وماكسمليان الهابسبورجى — آخر فرسان العصور الوسطى — وزوجته مارى ابنة شارل الجسور ، وهو الدوق البرغندى الطموح الذى قام بحملات موفقة على فرنسا ، ولكنه لقى حتفه على أيدى فلاحى سويسرا الاحرار . ومن ثم ورث الطفل شارل الجزء الاكبر من بلاد آبائه وأجداده وأعمامه وأخواله وعماته فى كل من ألمانيا والنمسا وهولندا وبلجيكا وايطاليا واسبانيا ، كما ورث مستعمرات جميع هذه الدول فى آسيا وأفريقيا وأمريكا . .

ومن مفارقات الدهر أن شارل ولد فى **غنت** فى

حصن أمراء الفلاندرز ، وهو الحصن نفسه الذى اتخذه الالمان سجنا فى أثناء احتلالهم بلجيكا . وقد نشيء شارل النشأة الفلمنكية على الرغم من أنه كان ملكا اسبانيا وامبراطورا جرمانيا . ولما توفى أبوه بالسم ـ كما يذهب الكثيرون ، وان لم يثبت ذلك ـ وجنت أمه ، اذ كانت تنتقل فى أملاكها ومعها التابوت الذى يضم رفات زوجها الراحل . تولت تربيته عمته مرغريت بما عرف عنها من صرامة . وشب شارل فلمنكيا وابنا مخلصا من ابناء الكنيسة الكاثوليكية ، وكتب عليه أن يحكم الجرمان والاسبان ومائة جنس غريب آخر ، الا أنه كان مع ذلك منكرا أشد الانكار للتعصب الدينى . وكان أميل الى الكسل والخمول ، يافعا ورجلا ، ولكن القدر فرض عليه ان يحكم العالم فى وقت كان يغلى فيه مرجل الحماسة الدينية . كان دائما ابدا يهرع من مدريد الى أنسبروك ، ومن براغ الى فينا ، فهو يحب السلام والهدوء ، ولكنه كان دائما فى حرب وقتال . ولمابلغ الخامسة والخمسين من عمره ، أشاح بوجهه عن الناس جميعا ، فقد هافت نفسه ما تملك قلوبهم من بغضاء ، وما امعنوا فيه من سخف وغباء . وتوفى بعد ذلك بثلاث سنوات بعد ان برح به النصب واليأس .

هذا ما كان من أمر شارل الخامس ، فماذا كان من امر الكنيسة التى كانت القوة الثانية فى العالم ؟ . لقد تغيرت الكنيسة تغيرا كبيرا عما كانت عليه فى الايام الاولى من العصور الوسطى ،عندما هبت تحارب الكفار وتبين لهم عاقبة حياة الورع والاستقامة . لقد غدت الكنيسة قبل كل شيء واسعة الثراء ، ولم يعد البابا راعيا لجماعة المسيحيين المستضعفين ، بل كان يعيش فى قصر فسيح يحيط به الفنانون والموسيقيون ومشاهير رجال الادب . واكتست الكنائس والبيع بصور جديدة تبدى فيها القديسون أقرب الى آلهة اليونان مما ينبغى ، ووزع البابا وقته توزيعا غير عادل بين شئون الدولة وشئون الفن . فخص الدولة بعشرة فى المائة من وقته ، أما التسعون فى المائة الباقية فكان يعنى فيها عناية جدية بالتماثيل الرومانية والزهريات اليونانية المكتشفة حديثا ، وباعداد الخطط لاقامة بيت خلاوى جديد يقضى فيه الصيف ، أو الاستعداد لاخراج مسرحية جديدة . وكان رؤساء الاساقفة والكرادلة ينهجون على منوال البابا ، وكان الاساقفة يحاولون تقليد كبار الاساقفة . أما القسس فى القرى فظلوا مخلصين لواجباتهم الدينية ... فقد ترفعوا عن ذلك العالم الخبيث ، وعفوا عن ذلك الحب الوثنى للجمال واللذة ، وعاشوا بعيدا عن الاديرة حيث كان الرهبان فيمايظهر قد نسوا أنهم قد نذروا أنفسهم من قبل بأن يعيشوا عيشة البساطة والتقشف ، وانغمسوا فى المسرات بقدر ما واتتهم شجاعتهم من غير أن يذهبوا فى ذلك الى حد الافتضاح . وهناك آخر الامر عامة الشعب . وكانت حالهم أحسن بكثير مما كانوا عليه فى أى وقت مضى ... فقد كانوا أكثر رخاء : يعيشون فى منازل أحسن ، ويذهب أولادهم الى مدارس أرقى ، وكانت مدنهم أجمل مما كانت عليه . أما أسلحتهم فقد جعلتهم على قدم المساواة بأعدائهم القدماء ، وهم النبلاء المستبدون الذين ظلوا قرونا يجبون منهم الضرائب الثقيلة على تجارتهم . هذا ما كان من أمر الناس الذين كان لهم الشأن الاكبر فى حركة الاصلاح الدينى .

ولنأخذ الآن فى معرفة ما فعلته النهضة فى أوربا ، ومن ثم فانك ستتبين كيف ان احياء العلم والفن كان لا مناص من ان يعقبه احياء فى شئون الدين .

لقد بدات النهضة فى ايطاليا ، وانتشرت منها الى فرنسا ، على انها لم تنجح كل النجاح فى اسبانيا التى ظلت تحارب الاندلسيين خمسة قرون متوالية ، ضيقت من أفق الشعب ، وجعلته شديد التعصب فى الأمور الدينية ، واتسعت الدائرة بعد ذلك شيئا فشيئا ، ولكن ما ان عبرت النهضة جبال الالب حتى أصابها الفتور .

لقد كانت شعوب أوربا الشمالية تعيش فى مناخ يختلف اختلافا كبيرا عن مناخ جنوبى اوربا ، وينظرون الى الحياة نظرة تباين الى حد عجيب نظرة أهل الجنوب . أما الايطاليون فكانوا يعيشون فى الخلاء تحت سماء مشرقة ، فما أيسر أن يضحكوا وأن يغنوا وأن يمرحوا . أما الالمان والهولنديون والانكليز والسويديون فكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى منازلهم ينصتون الى الامطار تضرب النوافذ المغلقة لبيوتهم الصغيرة المريحة ، فلم يكونوا يضحكون كثيرا كما كان يضحك الايطاليون ، بل كانوا ينظرون الى كل شيء نظرة اكثر جدا . كانوا دائما أبدا يشعرون بنفوسهم الخالدة ، فلم يجنحوا الى الهزل فى أمور يرون انها مبجلة مقدسة . وقد اهتموا كثيرا بالجانب الادبى من النهضة ، أى بالكتب ودراسة المؤلفين القدماء وكتب النحو وكتب المتون . ولكن العودة الى حضارة اليونان والرومان الوثنية التى كانت من أهم نتائج النهضة فى ايطاليا ، كانت تملأ قلوبهم رعبا وفزعا .

على أن جميع البابوات والكرادلة تقريبا كانوا من الايطاليين ، وقد أحال هؤلاء الكنيسة الى منتدى ممتع يتناقش فيه الناس فى الموسيقى والفن والمسرح ، وقلما يعرضون للشئون الدينية . ومن ثم اخذت الهوة تتسع اتساعا دائبا بين أهل الشمال الجادين ، وأهل الجنوب الذين كانوا أكثر منهم حضارة ، وان كانوا أروح منهم عيشا وأقل مبالاة بالامور . والظاهر أن أحدا لم يفطن الى الخطر الذى كان يتهدد الكنيسة .

وهناك عدة أسباب ثانوية أخرى تفسر لنا لم قامت حركة الاصلاح الدينى فى المانيا ، بدلا من قيامها فى السويد أو فى انكلترا . كان الالمان يحقدون منذ القدم على روما ، اذ كان النزاع المستمر بين البابا والامبراطور سببا فى أن كل فريق كان يشعر نحو الآخر بمرارة شديدة . أما فى الدول الاوربية الاخرى فكانت مقاليد الحكم فى ايدى ملوك أقوياء استطاعوا فى كثير من الاحيان حماية رعاياهم من جشع رجال الدين . أما فى المانيا فقد كان فيها امبراطور ليس له الا ظل من السلطة يحكم جمعا من الأمراء الصغار المشاغبين ، ومن ثم كان أهل المدن الطيبون تحت رحمة القساوسة والمطارنة مباشرة . وقد حاول هؤلاء جمع أموال كثيرة لصالح تلك الكنائس الهائلة التى كانت هواية البابوات فى عصر النهضة . وشعر الالمان أن الغرم واقع عليهم ، وكانوا بطبيعة الحال يأبون ذلك .

وهناك حقيقة اخرى قلما تذكر ، وهى ان المانيا كانت موطن الطباعة ، فقد كانت الكتب فى شمالى اوربا رخيصة الثمن . ولم يعد الكتاب المقدس مخطوطا محجبا بالأسرار فى حوزة رجل الدين الذى يقوم وحده على تفسيره ، بل أصبح كتابا من الكتب المتداولة فى كثير من البيوت التى كان ربها واولاده يعرفون اللغة اللاتينية . واخذت اسر بأجمعها تقرأ الكتاب المقدس ، وكان ذلك مخالفا لقوانين الكنيسة ، فتبينت أن القساوسة كانوا يقصون عليهم أشياء كثيرة تختلف بعض الاختلاف عن النص الأصلى للكتاب المقدس ، فأثار ذلك فى نفوسهم الشك ، وبدأ الناس يتساءلون ، والأسئلة التى لايستطاع الاجابة عليها قمينة بأن تحدث اضطرابا كثيرا فى كثير من الأحيان .

وبدأت الحملة عندما أخذ الانسانيون من اهل الشمال يثورون على الرهبان ، فقد كانوا فى صميم قلوبهم مايزالون يكنون كثيرا من الاحترام للبابا ، فمنعهم ذلك من أن يوجهوا حملاتهم على قداسته . ولكن الرهبان الكسالى الجهلاء الذين كانوا يعيشون فى حمى أسوار صوامعهم الغنية بالخيرات ... لم يكادوا يغيرون ما بأنفسهم .

والغريب فى الأمر أن زعيم هذه الحركة كان شخصا من أخلص ابناء الكنيسة يدعى **جيرارد جيراردزون** أو **ديزيدريوس أرازمس** — وهو الاسم الذى غلب عليه — وكان صبيا فقيرا ولد فى روتردام من أعمال هولندا ، وتعلم فى مدرسة **دفنتر** اللاتينية — وهى المدرسة نفسها التى تخرج فيها **توماس الكمبينى** — واصبح قسيسا ، وعاش فترة من الزمن فى أحد الأديرة . وارتحل كثيرا ، وعرف المرمى الذى كان يقصد اليه بكتاباته . فلما بدأ حياته كاتبا يدبج الرسائل العامة — وهو عمل كان قمينا بأن يسلكه فى وقتنا الحاضر فى عداد كتاب المقالات — ابتهج الناس ابتهاجا عظيما بسلسلة من الرسائل اصدرها غفلا من التوقيع ، كانت قد ظهرت آنئذ بعنوان « رسائل رجال مغمورين » ، كشف فيها عن عظم حماقة رهبان العصور الوسطى المتأخرة وعجرفتهم ، بأسلوب جرمانى لاتينى منحط غريب يذكرنا بقصائدنا الحديثة التى لايخرج منها المرء بمعنى مفيد . وكان ارازمس نفسه من العلماء الجادين ، أصاب حظا كبيرا من العلم ودرس اللغتين اللاتينية واليونانية ، وزودنا بأول ترجمة صحيحة يوثق بها للانجيل باللغة اللاتينية مع نسخة منقحة من النص اليونانى الأصلى . وكان يعتقد ، مثل الشاعر الرومانى **سالوّست** ، أن لاشىء يمنعنا من « ذكر الحقيقة والابتسامة تعلو شفاهنا » .

وفى عام ١٥٠٠ زار أرازمس السير **توماس مور** فى انكلترا ، واعتكف خلال هذه الزيارة بضعة أسابيع كتب فيها كتابا صغيرا فكها يعرف باسم « مدح الحماقة » (Praise of Folly) هاجم فيه الرهبان واتباعهم المؤمنين بهم ... بسلاح من أخطر الاسلحة ، الا وهو الفكاهة . وقد بيع من هذا الكتاب مايزيد على أى كتاب آخر بيع فى القرن السادس عشر ، وترجم الى كل اللغات تقريبا ، وكان سببا فى اهتمام الناس بسائر كتب ارازمس التى نادى فيها باصلاح كثير من عيوب الكنيسة ، وناشد ارازمس زملاءه من الانسانيين مساعدته فيما اضطلع به من احياء الدين المسيحى احياء .

ولكن هذه الخطط البارعة لم تثمر شيئا ، فقد

كان ارازمس أعقل وأسمح من أن يرضى معظم خصوم الكنيسة ، ذلك أن هؤلاء كانوا يتطلعون الى زعيم أعظم منه قدرة وأشد بأسا .

وهاهوذا الزعيم قد ظهر ، وكان يدعى **مارتن لوثر** .

كان لوثر فلاحا من شمالى ألمانيا ، نابه العقل عظيم الشجاعة ، حصل على شهادة الاستاذية فى الآداب من جامعة ارفورت، ثم التحق بدير دومينيكى . وأصبح بعد ذلك أستاذا فى كلية وتنبرج الدينية ، وفيها أخذ يفسر الكتاب المقدس للفلاحين الغافلين من أهل وطنه سكسونيا . وكان لديه متسع من الوقت أنفقه فى دراسة النصوص الاصلية للعهدين القديم والجديد . وسرعان مابدأ يتبين له الاختلاف الكبير بين كلمات المسيح وبين ماكان يبشر به البابوات والأساقفة .

وزار لوثر روما عام ١٥١١ فى عمل رسمى ، وكان البابا اسكندر السادس ، من أسرة بورجيا ، قد توفى بعد أن جمع ثروة لابنه وابنته . وخلفه يوليوس الثانى، وكان رجلا لاغبار على خلقه الشخصى ، ولكنه كان ينفق معظم وقته فى القتال واقامة العمائر ، فلم يكن من التقى بحيث يؤثر فى عقل هذا الالمانى المتفقه فى الدين الذى كان يأخذ الامور مأخذ الجد . وعاد لوثر الى وتنبرج خائب الرجاء ، على أن الامور استفحلت من بعد ، واشتد تفاقمها .

كانت كنيسة القديس بطرس الهائلة ، التى فرض البابا يوليوس تبعة رعايتها على خلفائه الابرياء ، فى حاجة الى التعمير ، ولو أنها كانت آنئذ فى بداية نشأتها . وكان البابا اسكندر السادس قد أنفق كل ما فى خزائنه . أما ليو العاشر الذى خلف يوليوس على عرش البابوية عام ١٥١٣ ، فكان على شفا الافلاس . لذلك لجأ الى وسيلة قديمة من وسائل جمع المال نقدا .

أخذ هذا البابا فى بيع صكوك الغفران . وصك الغفران قطعة من الرق يبذل فيها الوعد للمذنب ، لقاء قدر من المال ، بأنقاص المدة التى سوف يمكثها فى المطهر . وكان ذلك عملا سليما فى عقيدة أهل العصور الوسطى المتأخرة . فكما أن الكنيسة كانت لها سلطة غفران ذنوب أولئك الذين يتوبون توبة نصوحا قبل وفاتهم ، فكذلك كان لها الحق ، مستشفعة بالقديسين ، فى أن تنقص المدة التى لابد للنفس أن تتطهر فيها فى آفاق المطهر المظلمة .

ومن سوء الطالع أن هذه الصكوك لم يكن بد من أن تباع نقدا ، ولكنها كانت وسيلة سهلة من وسائل الحصول على الدخل . وكانت فى الوقت نفسه تمنح من غير مقابل للفقراء الذين يعجزون عن الدفع .

وحدث فى عام ١٥١٧ ان قصر بيع صكوك الغفران فى سكسونيا على منطقة وكل أمرها الى راهب دومينيكى يدعى **يوهان تنزل** . وكان هذا الراهب متحمسا فى بيع صكوك الغفران لاتفتر له عزيمة . والحق انه اشتط فى ذلك بعض الشطط ، فأسخطت أساليبه اتقياء تلك الدوقية الصغيرة . أما لوثر الذى كان رجلا مستقيما ، فقد أخرجه الغضب عن طوره ، حتى لقد قام بعمل يتسم بالتهور ، ذلك أنه قصد فى ٣١ اكتوبر سنة ١٥١٧ الى فناء الكنيسة ، وعلق على أبوابها رقعة بها خمسة وتسعون بندا هاجم فيها بيع صكوك الغفران ، وقد كتب هذه البنود باللغة اللاتينية . ولم يكن لوثر يقصد اشعال نار الفتنة لانه لم يكن ثوريا ، وانما عارض سنة بيع صكوك الغفران ، وأراد أن يطلع زملاءه الأساتذة على رأيه فى هذا الموضوع .

على أن هذا الأمر كان فى ذلك الوقت من المسائل التى تهم رجال الدين والأساتذة فحسب ، ولم تكن تستهوى غيرهم من عامة الناس . على أنه مما يبعث على الاسف أنه كان من المستحيل استحالة مطلقة ، أن تناقش أية مسألة دون أن تثير هذه المناقشة فى الحال قلقا فى الافكار خطيرا ، ذلك ان العالم كافة كان وقتئذ قد بدأ يهتم بالمسائل الدينية لذلك العهد . ففى أقل من شهرين كانت أوربا بأسرها تناقش هذه المسائل الخمس والتسعين التى وضعها الراهب السكسونى . وكان لزاما على كل فرد أن ينحاز الى لوثر أو الى الطرف الآخر ، بل ان كل فقيه من رجال الدين الصغار المغموزين كان عليه أن ينشر رأيه فى ذلك . وأخذت السلطات البابوية ترتاع وتنزعج ، فاستدعت أستاذ وتنبرج الى روما ليبرر فعلته .
ولكن لوثر كان حكيما فتذكر ماحدث **لهس** ... فظل فى المانيا ، وكان جزاؤه الحرمان من الكنيسة، فما كان منه الا أن أحرق مرسوم البابا وسط جمع من الناس المعجبين به ، ومنذ تلك اللحظة أصبح السلام بينه وبين البابا مستحيلا .

واصبح لوثر بالرغم منه ، على رأس جيش عظيم من المسيحيين الساخطين . وهرع الالمان الوطنيون مثل **الريش فون هتن** للدفاع عنه . وابدى طلبة وتنبرج وأرفورت وليبسك استعدادهم للمنافحة فى سبيله اذا حاولت السلطات أن تزج به فى السجن . وظاهر ناخب سكسونيا هؤلاء الشباب المتحمسين ،

فأعلن أن لوثر لن يصيبه أى مكروه مادام مقيما فى ارض سكسونية .

حدث كل ذلك عام ١٥٢٠ ، واضطر شارل الخامس – وكان وقتذاك فى العشرين من عمره يحكم نصف العالم – الى الاحتفاظ بعلاقاته الودية مع البابا ، فأرسل يطلب عقد مجمع أو جمعية عمومية فى مدينة ورمز الطيبة على الرين ، وطلب من لوثر المثول أمام هذه الجمعية ليبرر مسلكه الشاذ ، فذهب لوثر الى المجمع ، وكان قد غدا بطل الالمان القومى ، ورفض أن يسحب أية كلمة مما قال أو كتب ، وقال انه لارقيب على ضميره الا كلمة الله ، وانه يحيا ويموت فى سبيل عقيدته .

وتداول مجمع ورمز فى هذا الأمر ، وأولاه حق عنايته ، ثم أعلن أن لوثر خارج على الله والناس ، وحرم على جميع الالمان ايواءه وتزويده بالطعام والشراب ، كما حرم عليهم قراءة كلمة واحدة مما كتبه هذا المارق الضال .

على أن المصلح العظيم ظل بعيدا عن أن يمسه الضر ... فقد انكر معظم ألمان الشمال هذا المرسوم ، وعدوه وثيقة أشد ماتكون جورا وعسفا . وأخفى **لوثر** ، مبالغة فى الحرص على سلامته ، فى قلعة ورتبرج التى كانت تابعة لناخب سكسونيا ، وتحدى فيها كل السلطات البابوية ، وأخذ ينقل الكتاب المقدس الى اللغة الالمانية ، حتى يستطيع الناس جميعا أن يقرأوا بأنفسهم كلمات الله ويتفهموها .



لوثر يترجم الكتاب المقدس

ولم تعد حركة الاصلاح الدينى مسألة روحية أو دينية عندما حلت هذه الايام . ذلك أن أولئك الذين كرهوا مافى عمارة الكنائس الحديثة من جمال .. انتهزوا الفرصة التى أتاحها لهم هذا العهد المضطرب ، وأخذوا يهاجمون ويدمرون كل ما لايحبون لانهم كانوا يجهلون أمره . أما الفرسان المفلسون فقد حاولوا أن يعوضوا خسائرهم فى الماضى ، فتخاطفوا الاراضى التابعة للاديرة ، واستغل الامراء المتذمرون فرصة غياب الامبراطور ، فعملوا على زيادة سلطانهم . وأما الفلاحون الذين كانوا يتضورون جوعا ، فقد اتبعوا المهيجين الملتاثين واهتبلوا الفرصة ... فهاجموا قلاع اسيادهم ، وأعملوا فيها السلب والقتل والاحراق بتلك الحماسة المأثورة عن الصليبيين القدماء .

وساد الامبراطورية عهد يمكن أن نصفه بحق بأنه عهد عمت فيه الفوضى ، ودان بعض الامراء بالبروتستانتية (وهو الاسم الذى أطلق على المحتجين أتباع لوثر) ، واضطهدوا الكاثوليك من رعاياهم ، فى حين ظل آخرون على المذهب الكاثوليكى ، وشنقوا رعاياهم البروتستانت .

وحاول مجمع **سبيير** ، الذى انعقد عام ١٥٢٦ ، أن يجد حلا لهذه المسألة الشائكة الخاصة بالتبعية ، فأصدر حكمه بأن الرعايا يجب أن يكونوا جميعا على دين امرائهم ، فاستحالت ألمانيا بذلك الى منطقة منقسمة الى آلاف من الدوقيات والامارات الصغيرة المتعادية ، وأصبحت فى موقف منعها من أن تنمو النمو السياسى الطبيعى مئات من السنين .

وتوفى **مارتن لوثر** عام ١٥٤٦ ، ودفن فى الكنيسة التى أعلن على أبوابها قبل ذلك بتسع وعشرين سنة اعتراضاته المشهورة على بيع صكوك الغفران . وفى أقل من ثلاثين سنة ولى عالم النهضة المرح الضاحك الذى لم يكن يبالى بشىء ، وحل محله عالم الاصلاح الدينى ، وهو عالم كان يؤثر الحجاج والنزاع والكيد والمناظرة . وانقضى عهد سلطان البابوات الروحى على العالم فجأة ، وتحولت أوربا الغربية بأسرها الى ساحة حرب ، اقتتل فيها البروتستانت والكاثوليك فى سبيل تمجيد بعض العقائد الدينية التى يعجز جيلنا الحاضر عن فهمها ، عجزه عن حل مغاليق كتابات الاتروريين القدماء الخفية .

كان القرنان السادس عشر والسابع عشر عصر نزاع ديني . ولو أنك نظرت الى الناس اليوم لوجدت أن كل من حولك تقريبا يتحدثون دائما فى المسائل الاقتصادية ، ويناقشون أجور العمال وساعات العمل والاضراب ، وعلاقة هذه المسائل بحياة المجتمع ، لان ذلك هو محور اهتمام الناس فى وقتنا هذا .

كان حال الصبية الصغار المسالمين فى عام ١٦٠٠ أو عام ١٦٥٠ أسوأ من هذا ، ذلك أنه لم يطرق أسماعهم قط شيء الا « الدين » . وكانت رءوسهم قد امتلأت بكلمات من قبيل القضاء والقدر وغيرها من الكلمات العجيبة التى تعبر عن بعض النقاط المبهمة فى العقيدة الحقة ، سواء كانت على مذهب الكاثوليك أو البروتستانت . وكان هؤلاء الصبية يعمدون : اما كاثوليك أو لوثريين أو كلفنيين أو زونجليين أو منكرين للعقيدة وفقا لرغبة آبائهم . وكانوا يتعلمون أمور دينهم من رسائل أوجسبرج الدينية التى ألفها لوثر ، أو من شرائع المسيحية التى كتبها كلفن ، أو يلفظون بأحكام العقيدة التسعة والثلاثين المطبوعة فى الكتاب الانكليزى الخاص بالصلاة للكافة . وقد لقنوا أن هذه الكتب دون سواها هى التى تمثل العقيدة الصحيحة . وسمعوا بما اقترفه الملك هنرى الثامن ملك انكلترا المزواج من سرقة أملاك الكنيسة ، وهو الملك الذى نصب نفسه على رأس الكنيسة الانكليزية ، واتخذ لنفسه حقوق البابوات القديمة ، ألا وهى تعيين الأساقفة والقسس .

وكان يغشاهم كابوس من الفزع اذا ذكر أحد محاكم التفتيش وسجونها وغرفها الكثيرة التى كان يعذب فيها الناس . وكانت تلقى على أسماعهم قصص لاتقل عن ذلك هولا تروى كيف اتفق أن جماعة من رعاع البروتستانت ، الذين ذهب الغضب بلبهم ، انقضوا على نفر من القسس العزل المتقدمين فى السن وشنقوهم ، لالشيء الا لمجرد الاستمتاع بقتل جماعة يدينون بمذهب غير مذهبهم .

ومما يبعث على الأسف أن الفريقين المتنازعين كانا متساويين فى القوة ، ولولا ذلك لكان النزاع قد انتهى الى حل سريع . ومن ثم طال أمد هذه الخلافات الدينية ثمانية أجيال ، وبلغت من التعقيد حدا لا أستطيع معه الا الاكتفاء بأن أقص عليك أهم تفاصيلها ، ولا مناص من أن أسألك أن ترجع فى شأن بقية التفاصيل الى تاريخ من التواريخ الكثيرة التى ألفت عن حركة الاصلاح الدينى .

لقد أعقب حركة الاصلاح الكبرى التى قام بها البروتستانت،حركة اصلاح شاملة فى داخل الكنيسة المسيحية . فقد اختفى من الميدان أولئك البابوات الذين كانوا يهوون الآداب القديمة ويدرسون الآثار الرومانية والاغريقية ، وحل محلهم بابوات من أهل الجد ينفقون كل يومهم فى ممارسة تلك الواجبات المقدسة الملقاة على عاتقهم .

وانقضى العهد الطويل ، بل عهد اللهو المشين الذى اتسمت به حياة الاديرة ، وأجبر الرهبان والراهبات على النهوض من نومهم مع طلوع الشمس لدراسة سير آباء الكنيسة ورعاية المرضى ومواساة المحتضرين، وأخذت محاكم التفتيش ترقب ليل نهار كل مايطبع حتى لا تنتشر أية عقيدة من العقائد الخطرة عن طريق المطبعة . ومن المألوف أن نذكر فى هذا المقام **جاليليو** الذى سجن لأنه جاوز قليلا حدود الحكمة ، وكشف أمر السموات بمرقبه الصغير العجيب ، وقال بآراء عن شأن الاجرام السماوية تعارض كل المعارضة آراء الكنيسة المقررة . ولكننا يجب ان ننصف البابا ورجال الدين ومحاكم التفتيش كل الانصاف ، فنقول ان البروتستانت كانوا هم والكاثوليك سواء يتنكرون للعلوم والطب ، كما كانوا سواء فيما أظهروه من جهل وتعصب فى نظرتهم الى أولئك الذين كانوا يستقصون الامور لانفسهم ، ويعدونهم الد أعداء الانسانية . .

ذلك أن **كلفن** المصلح الدينى الفرنسى العظيم ، وطاغية جنيف فى المسائل السياسية والروحية ، لم يكتف بشد أزر السلطات الفرنسية عندما حاولت أن تشنق **ميخائيل سرفتوس** — وهو الفقيه الدينى الاسبانى ، والطبيب الذى اشتهر بوصفه مساعدا



محاكم التفتيش

لفساليوس أول عالم عظيم من علماء التشريح — بل زج بهذا الرجل النابه فى غيابة السجن عندما حاول الهرب من محبسه فى فرنسا الى جنيف ، وسمح بأن يحرق على المحرقة بعد محاكمة طويلة جزاء هرطقته ، ولم يحفل أيما احتفال بشهرته فى العلم .

وسارت الامور على هذا المنوال.على اننا نستطيع أن نقول على الرغم من قلة ما لدينا من احصاءات موثوق بها في هذا الموضوع ، أن البروتستانت ضاقوا بهذا النضال قبل أن يضيق به الكاثوليك بزمن طويل، ووقع معظم الرجال والنساء المخلصين الذين أحرقوا أو شنقوا أو أطيح برؤوسهم فى سبيل عقيدتهم الدينية ، فريسة كنيسة روما التى كانت متحمسة أشد الحماسة ، عنيفة أشد العنف . ذلك أن التسامح — وأرجو أن تذكر ذلك عندما تتقدم بك السن — خلة حديثة العهد جدا ، بل ان أهل عالمنا الذى نسميه بالعالم الحديث لا يجنحون الى التسامح الا فى المسائل التى لاتعنيهم كثيرا ... فهم متسامحون مع رجل من أهل أفريقيا ، اذ يستوى أن يصبح هذا الرجل بوذيا أو مسلما ، لأن البوذية أو الاسلام لا يعنيهم أمرهما فى كثير أو قليل . ولكنهم اذا سمعوا أن جارا لهم من التجار الاحرار الذين يعارضون فرض ضريبة جمركية عالية لحماية البضائع المحلية — قد انضم الى حزب المطالبين بتعديل الرسوم الجمركية ، وأنه أصبح من محبذى فرض هذه الرسوم على الواردات ، فانهم يفقدون تسامحهم ، ويتفوهون بالألفاظ نفسها تقريبا التى يتفوه بها كاثوليكى رءوف (أو بروتستانتى) من أهل القرن السابع عشر عندما يعلم ان خير أصدقائه الذى كان يجله ويحبه على الدوام، قد وقع فريسة البدع الفظيعة للكنيسة البروتستانتية أو الكاثوليكية ..

كانت البدع الدينية الى عهد قريب جدا تعد آفة من الآفات . اننا الآن اذا رأينا رجلا يهمل نظافة جسمه وبيته ،ويعرض نفسه وأولاده لاخطار حمى التيفود أو غيرها من الامراض التى يمكن توقيها — فانا نخطر وزارة الصحة فيعمد طبيب الصحة الى الاستعانة بالشرطة لعزل هذا الشخص الذى يهدد سلامة المجتمع بأسره . أما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد كان خطر المارق عن الدين — وهو الرجل أو المرأة الذى يجاهر بالشك فى الاركان التى تقوم عليها العقيدة الكاثوليكية أو البروتستانتية — أشد فتكا من خطر حامل ميكروب التيفود . فحمى التيفود قد تهلك البدن ، بل هى خليقة بأن تودى به ، ولكن المروق الدينى كان فى نظرهم يفتك بالنفس الخالدة فعلا ، لذلك كان يتعين على جميع المواطنين المخلصين العقلاء أن يبلغوا الشرطة عن أعداء النظام المقرر للأمور . أما الذين يتقاعسون عن أداء هذا الواجب فقد كانت جريرتهم تماثل جريرة من يكتشف فى أيامنا أن جيرانه مصابون بالكوليرا أو الجدرى ويتقاعس عن اخطار أقرب طبيب تليفونيا .

انك سوف تسمع فى قابل الايام الشىء الكثير عن الطب الوقائى ... والطب الوقائى معناه الا ينتظر أطباؤنا حتى يمرض عملاؤهم ثم يبادروا بعلاجهم ، بل هم يتصرفون على خلاف ذلك ، فهم يدرسون حالة المريض والظروف التى يعيش فيها عندما يكون فى أتم صحة ،ويزيلون كل أسباب المرض الممكنة بازالة الفضلات من جسمه وارشاده الى ما يأكل وما يدع ، وبتزويده ببعض الافكار البسيطة عن العناية الشخصية بصحته، بل هم يذهبون الى أبعد من ذلك فيدخل هؤلاء الاطباء المخلصون المدارس ، ويعلمون

التلاميذ كيف يستخدمون فرشاة الاسنان وكيف يتجنبون البرد .

وكان أهل القرن السادس عشر - كما سبق أن حاولت أن أبين لكم - يرون أن البدن أقل شأنا بكثير من الآفة التى تهدد الروح ، ومن ثم وضعوا سننا تقى الروح من هذه الشرور . فما ان يشب الطفل بحيث يستطيع أن ينطق كلماته الاولى ، حتى يلقن المبادىء الصحيحة للعقيدة دون سواها . وسرعان ما انتشرت المدارس فى البلاد البروتستانتية . وقد ثبت أن ذلك قد أفاد بصفة غير مباشرة فى التقدم العام الذى أصاب أهل أوربا . وقد أنفقوا وقتا طويلا لا يقدر فى تفسير الكتب الدينية ، ولكنهم كانوا يلقنون الطلبة مسائل أخرى خلاف الدين . وقد شجعوا الناس على القراءة ، وكانوا أصحاب الفضل فى الرخاء العظيم الذى أصاب تجارة الكتب .

ولم يتخلف الكاثوليك عن هذه الحركة ، بل كرسوا للتعليم الكثير من وقتهم والكثير من تفكيرهم . ولقد آنست الكنيسة فى هذا المضمار صديقا صدوقا وظهيرا قويا ، تمثل فى هيئة جماعة اليسوعيين التى كانت قد أنشئت حديثا فى ذلك العهد . وقد أنشأ هذه الهيئة المشهورة جندى أسبانى أنفق حياته فى الضلال ... ثم اهتدى ، فأحس أن الواجب يقتضيه أن يخدم الكنيسة ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الخاطئين الذين بصرهم جيش الخلاص بضلالهم عن الطريق السوى ، فكرسوا ما بقى من حياتهم للأخذ بيد أولئك الذين لم تكتب لهم الهداية ، والترفيه عنهم .

كان هذا الاسبانى يدعى **اغناطيوس ده لويولا** ، ولد قبل أن تكشف أمريكا بعام ، وهو قد جرح وأصابه العرج بقية عمره ، ورأى فى منامه - وهو بالمستشفى - العذراء وولدها . ودعته العذراء الى ترك حياة الضلال التى كان يحياها . وصح عزمه على الحج الى الاراضى المقدسة لاتمام المهمة التى اضطلعت بها الحروب الصليبية ، على أن زيارته لبيت المقدس قد كشفت له عن استحالة تحقيق ما سعى اليه ، فعاد أدراجه الى الغرب ليسهم فى محاربة بدع اللوثريين .

وكان لويولا يطلب العلم بالسوربون بباريس عام ١٥٣٤ ، فأسس هو وسبعة من الطلاب رباطا من الاخوان ، ونذر الرجال الثمانية أنفسهم بأن يحيوا حياة دينية صالحة ، لا يسعون وراء الثروة ، وانما يسعون الى الصلاح والاستقامة ، وأن يهبوا أنفسهم جسدا وروحا لخدمة الكنيسة . وما أن انقضت سنوات قلائل حتى نما هذا الرباط الصغير فغدا هيئة منظمة اعترف بها البابا بولس الثالث ، وأطلق عليها اسم جمعية اليسوعيين .

لقد كان لويولا رجل حرب يؤمن بالنظام ، ومن ثم أصبحت الطاعة العمياء لاوامر الرؤساء من أهم أسباب النجاح الهائل الذى أصابه اليسوعيون فى التعليم . وكانوا يلقنون من يعدونهم للدرس ، العلم شاملا محيطا كل الاحاطة قبل ان يسمحوا لهم بالتحدث الى تلميذ واحد . وكانوا يعيشون مع تلاميذهم ويشاركونهم فى العابهم ، ويراقبونهم مراقبة تنطوى على الشفقة والرحمة . ومن ثم نشأوا جيلا جديدا من الكاثوليك المخلصين نهضوا بواجباتهم الدينية فى جد ، شأنهم فى ذلك شأن أهل العصور الوسطى الاولى .

على أن اليسوعيين الدهاة لم ينفقوا كل جهدهم فى تعليم الفقراء ، فقد دخلوا قصور أصحاب السلطان ، وأصبحوا المؤدبين الخصوصيين لأباطرة المستقبل وملوكه . وسوف تتبينون معنى ذلك عندما أتحدث اليكم عن حرب الثلاثين سنة . على أنه قد حدثت أمور أخرى كثيرة قبل أن يندلع لهيب ذلك التعصب الدينى الفظيع الاخير .

توفى شارل الخامس فترك أمر حكم المانيا والنمسا لأخيه فرديناند ، أما سائر أملاكه - وهى اسبانيا والأراضى المنخفضة وجزائر الهند وأمريكا - فكانت من نصيب ولده فيليب ابن شارل من زوجته الاميرة البرتغالية ، وكانت ابنة عمه . والابناء الذين يكونون ثمرة لمثل هذه الزيجة خليقون بأن يكونوا شذاذا ... فقد كان ابن فيليب دون كارلوس - المنكوب الحظ الذى قتل من بعد بموافقة أبيه - معتوها . أما فيليب فلم يكن معتوها بمعنى الكلمة ، ولكن حماسته للكنيسة قد أشرفت به على الهوس الدينى ، ذلك أنه اعتقد أنه من أولئك الذين اختارتهم العناية الالهية لتخليص البشرية ، ومن ثم كان كل من يركب رأسه ، ويأبى أن يشارك جلالته فى أفكاره ، قمينا بأن يعد نفسه عدوا للبشرية ، يجب القضاء عليه حتى لا يكون قدوة سيئة تفسد نفوس جيرانه الصالحين .

وكانت أسبانيا بلا شك دولة واسعة الثراء ، اذ كان ذهب العالم الجديد وفضته يتدفقان على خزائن قشتالة وأراغون . ولكن اسبانيا عانت من آفة

اقتصادية عجيبة ، فقد كان فلاحوها رجال جد وعمل ، وكانت فلاحاتها أكثر من هؤلاء جدا وعملا ، ولكن طبقات الميسورين كانت تستنكر استنكارا مزاولة أى عمل الا الخدمة فى الجيش أو البحرية أو فى الحكومة . أما الاندلسيون الذين كانوا أرباب حرف عرفوا بالدأب والنشاط الجم ، فكانوا قد طردوا من البلاد قبل ذلك بأمد طويل . وكانت عاقبة ذلك أن أسبانيا ، مستودع أموال العالم ، ظلت دولة فقيرة ، لانها اضطرت الى تصدير جميع اموالها الى الخارج نظير استيراد القمح وغيره من ضرورات الحياة التى أهمل الاسبان انتاجها بأنفسهم . وكان فيليب - حاكم أقوى دولة فى القرن السادس عشر - يعتمد فى دخله على المكوس التى كان يجبيها من الاراضى المنخفضة التى كانت تعج بالنشاط التجارى عجيج خلية النحل . ولكن الفلمنك والهولنديين كانوا من أتباع عقائد لوثر وكلفن المخلصين ، لذلك جردوا جميع كنائسهم من الصور والرسوم المقدسة ، وأخبروا البابا أنهم أصبحوا لا يعتبرونه راعيا لهم ، وانما هم قد عقدوا العزم على أن يتبعوا ما تمليه عليهم ضمائرهم ، وما أوصاهم به الكتاب المقدس الذى كان قد ترجم حديثا .

وقد أحرج هذا الامر فيليب احراجا شديدا ، ذلك أنه لم يكن فى موقف يبيح له التغاضى عن مروق رعاياه الهولنديين ، ولكنه كان فى حاجة الى أموالهم . فهو اذا سمح لهم بأن يعتنقوا المذهب البروتستانتى ، ولم يتخذ من الوسائل مايحمى به نفوسهم ، فانه يكون بذلك قد أخل بواجبه نحو الله . وهو لو ارسل رجاله من القائمين بشئون محاكم التفتيش الى الاراضى المنخفضة ، وأحرق رعاياه على المحرقة ، فانه يفقد بذلك الجزء الأكبر من دخله .

كان فيليب رجلا ضعيف الارادة ، فتردد طويلا ، واخذ يصطنع اللين والشدة ثم يعد ويتوعد ، ولكن الهولنديين ظلوا على صلابتهم ، واستمروا يتغنون بالمزامير ، ويستمعون لعظات الواعظين من اللوثريين والكلفنيين . وكان من أمر فيليب أن أرسل اليهم فى ساعة يأس رجلا حديدى الارادة ، هو **دون ألبا** ، ليعيد هؤلاء الذين أمعنوا فى الضلال الى صوابهم . وأخذ ألبا يطيح برءوس الزعماء الذين لم يلزموا جانب الحكمة فيغادروا البلاد قبل وصوله .

وفى عام ١٥٧٢ - وهو العام نفسه الذى قتل فيه زعماء البروتستانت الفرنسيون جميعا فى تلك الليلة الرهيبة المعروفة بمذبحة سانت برثلوميو - هاجم

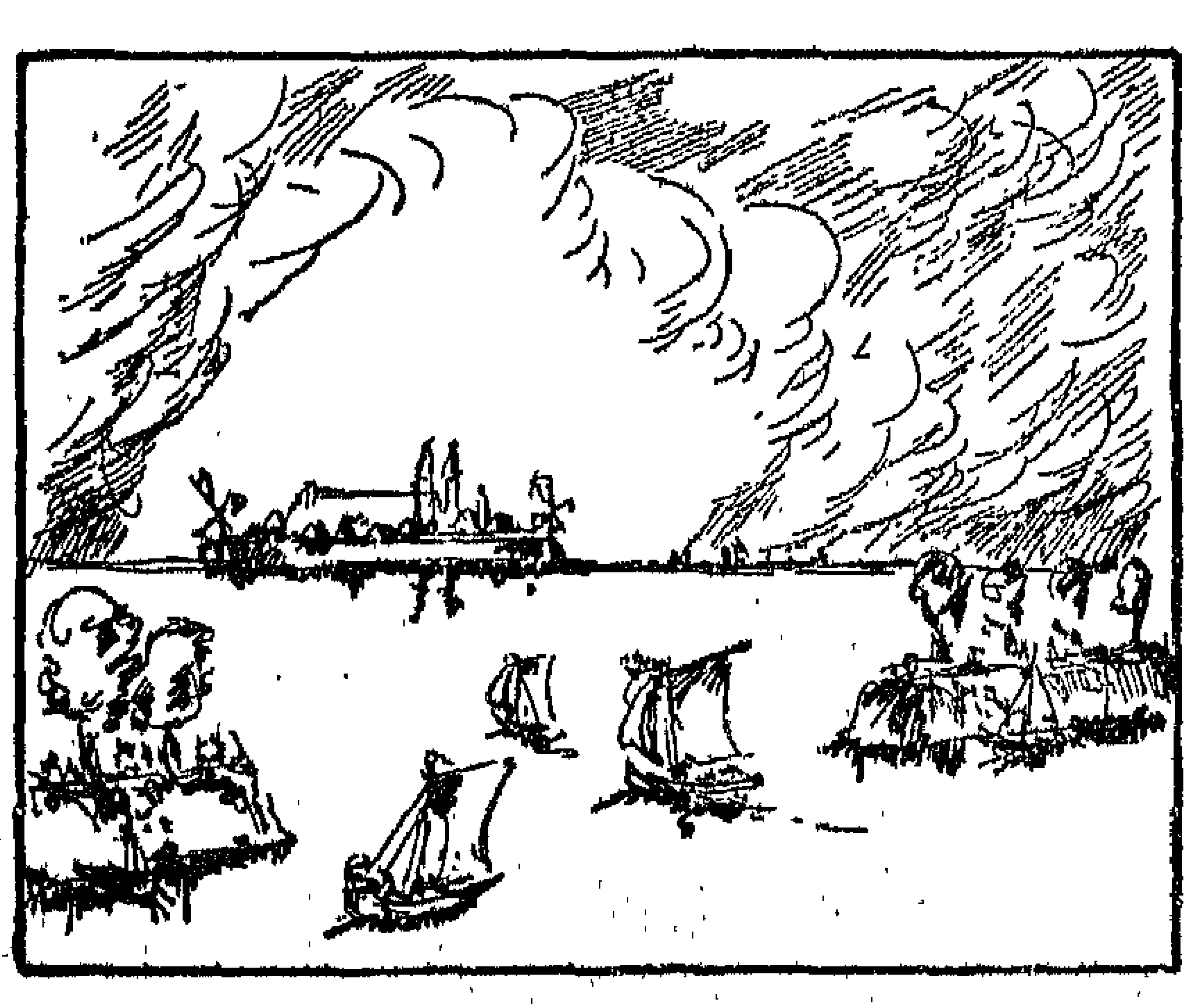


ليلة مذبحة القديس بارثلوميو

ألبا عددا من المدن الهولندية وذبح أهلها ليكونوا عبرة لغيرهم . وفى العام التالى حاصر مدينة ليدن مركز هولنده الصناعى .

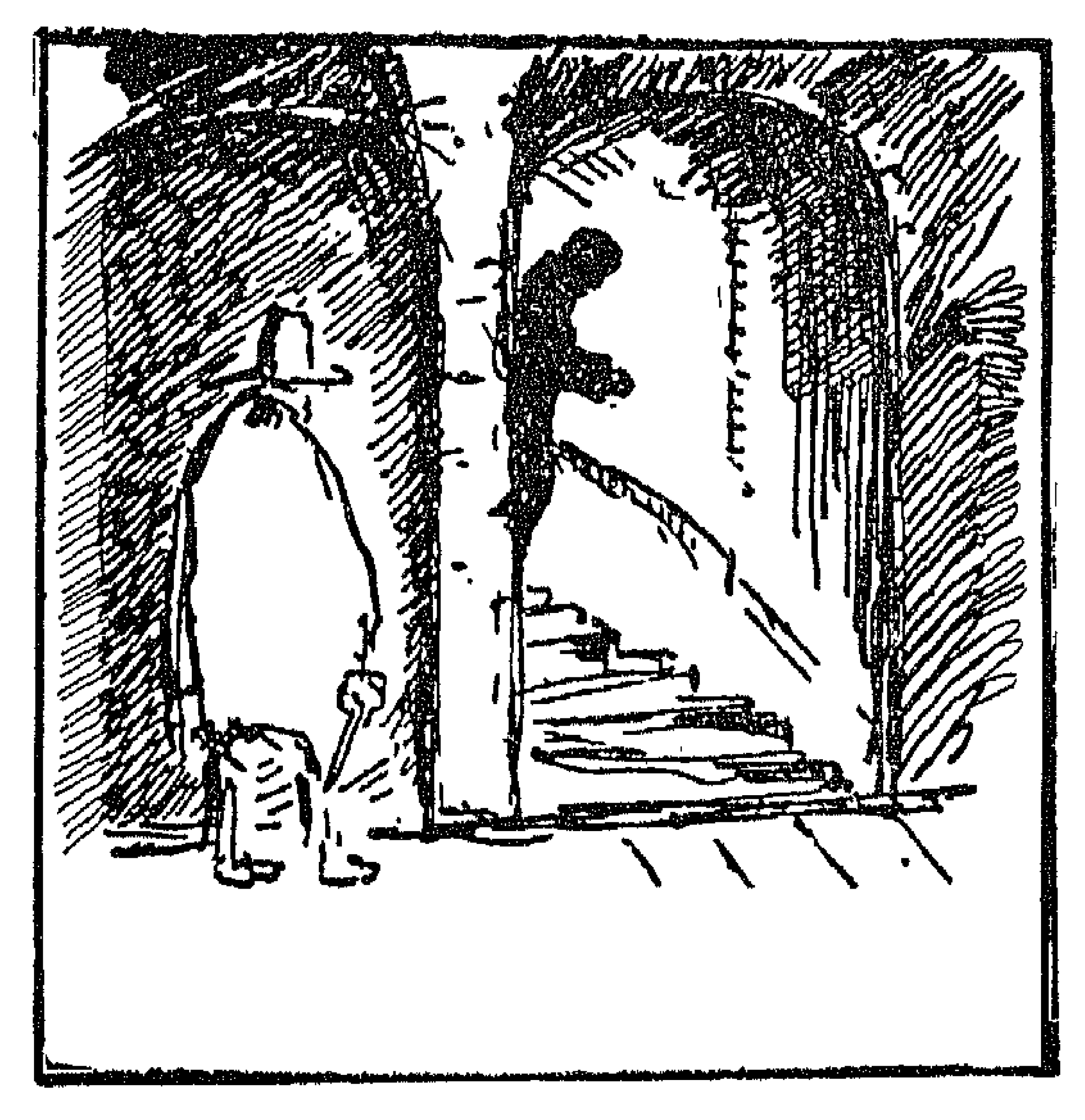
وفى خلال ذلك كونت الاقاليم السبعة الصغيرة التى فى شمالى الاراضى المنخفضة اتحادا دفاعيا فيما بينهم ، يعرف باسم اتحاد أوترخت ، وجعلت وليم أورانج - وهو أمير ألمانى كان كاتب سر الامبراطور شارل الخامس - قائدا للجيش وقائدا لبحارتها النهابين المعروفين باسم « متسولى البحار » .

ورأى وليم أن ينقذ مدينة ليدن فقطع الجسور ، فنشأ بحر داخلى ضحل ، وأمكنه تخليص المدينة بمساعدة بحرية مجهزة تجهيزا عجيبا بمراكب مسطحة القاع



قطع السدود لانقاذ ليدن

كانت تدفع دفعا فى هذه الاوحال ، وتسحب سحبا الى أن تبلغ أسوار المدينة .



مقتل وليم أورانج (وليم الصامت .

وكانت هذه أول هزيمة منكرة ، تحل بجيش ملك أسبانيا الذى لا يقهر . ولقد عجب العالم فى ذلك الوقت لهذه الهزيمة ، كما عجب جيلنا لانتصار اليابانيين فى مكدن ، خلال الحرب التى وقعت بين الروسيا واليابان . وزود هذا الانتصار البروتستانت بنفحة جديدة من الشجاعة ، وأخذ فيليب فى ابتكار وسائل جديدة لقهر رعاياه الثائرين . فاستأجر رجلا مسكينا متعصبا به جنة للذهاب الى هولندة لاغتيال وليم أورانج . ولكن الولايات السبع لم تخر ساجدة عندما رأت زعيمها قتيلا ، بل ذهب الغضب بلبها .

وفى عام ١٥٨١ اجتمع مجلس ممثلى الطبقات ، وهو المجلس الذى يضم ممثلى الولايات بمدينة لاهاى ، ونقض أعضاؤه فى جلال بالغ ووقار عظيم عهد الولاء لملكهم الشرير فيليب ، وحملوا هم انفسهم أعباء الملك التى كانت حتى ذلك الحين موكولة الى فيليب الذى تولى الملك باسم الله .

وكان ذلك حادثا جليل الخطر فى تاريخ النضال الكبير فى سبيل الحرية السياسية ، وخطوة أبعد مدى من انتقاض النبلاء الذى أفضى الى توقيع الوثيقة العظمى (Magna Carta) . ذلك أن هؤلاء المواطنين الصالحين قالوا « ان بين الملك ورعاياه تفاهما بالقلب على أن يقوم كل طرف بخدمات معلومة ، وأن يعترف كل طرف بواجبات معروفة مقررة ، فاذا خرج أحد الطرفين على العهد أصبح من حق الطرف الآخر أن يتحلل من هذا العهد » .

لقد انتهى الرعايا الامريكيون للملك جورج الثالث الى مثل هذه النتيجة فى عام ١٧٧٦ ، على أنه كان يفصل بينهم وبين ملكهم ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيط . أما مجلس الطبقات فقد اتخذ هذا القرار الذى كانت عاقبته الموت البطىء اذا قدر له الهزيمة ، على مسمع من المدافع الاسبانية ، وعلى الرغم من الخوف الذى كان يلازمهم من توقع وصول عمارة أسبانية تثأر منهم .

كانت القصة التى رويت عن تجهيز حملة بحرية عجيبة لغزو هولندا وانكلترا ، حين خلفت الملكة اليصابات البروتستانتية الملكة مارى الكاثوليكية المتعطشة الى الدماء . . قصة قديمة . لقد ظل البحارة الذين كانوا يعيشون على السواحل يتحدثون بهذه القصة سنوات . وفى العقد الثامن من القرن السادس عشر اتخذت هذه الشائعات صورة واضحة . فقد ذكر الربابنة الذين كانوا فى لشبونة ان جميع احواض السفن فى اسبانيا والبرتغال كانت تشتغل ببناء السفن ، وأن دوق پرما فى الاراضى المنخفضة الجنوبية (بلجيكا) يجهز حملة كبيرة تحمل من أوستند وامستردام الى لندن بمجرد ان تصل العمارة البحرية الى هناك .

وفى عام ١٥٨٨ أبحرت عمارة بحرية عظيمة نحو الشمال ، غير ان ثغور الشاطىء الفلمنكى كان يحاصرها



الأرمادا قادمة . . .

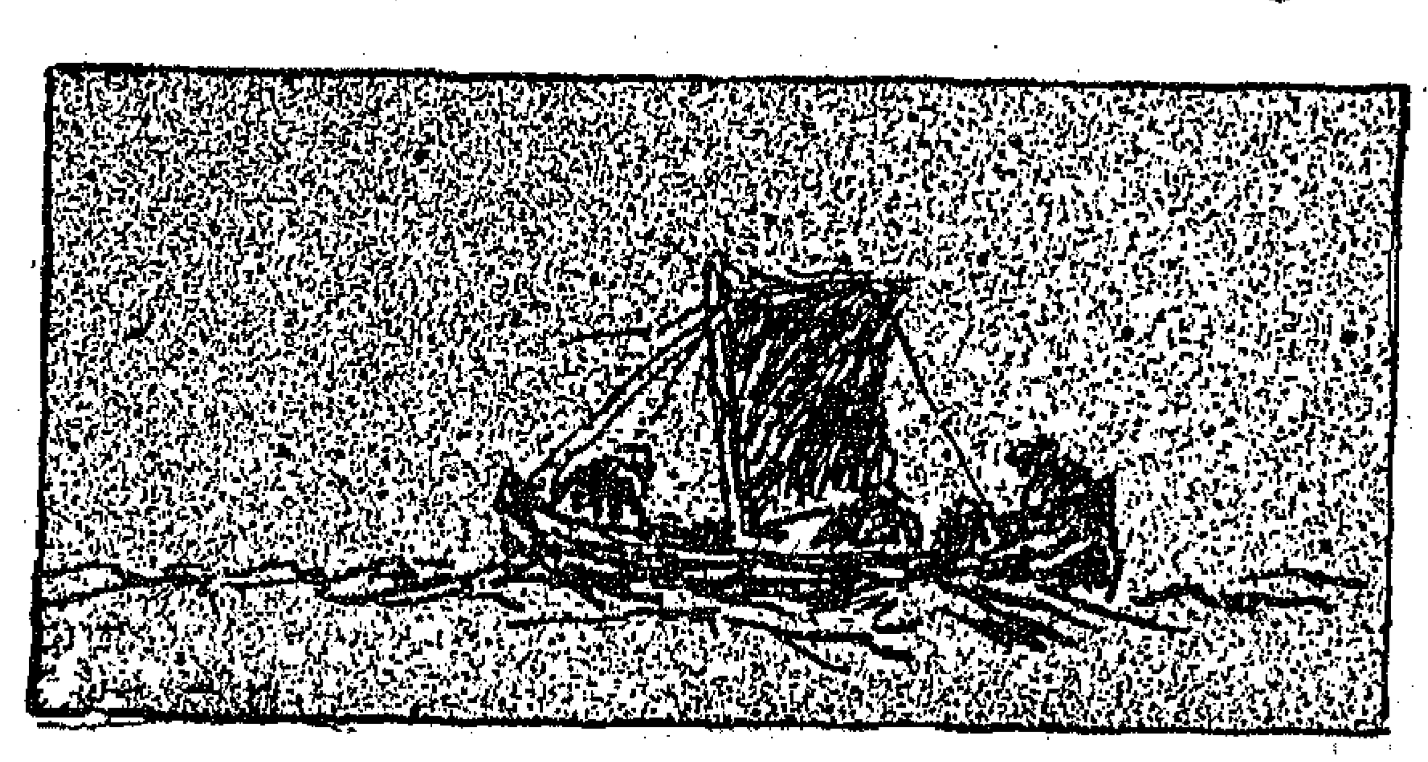
أسطول هولندى ، وكان الانكليز يحرســـون بحر المانش . أما الاسبان الذين اعتادوا ميـاه الجنوب الهادئة ، فلم يكونوا يعلمون كيف يسيرون فى مثــل هذه المياه الشمالية المليئة بالاعاصير والرياح . ومابى من حاجة الى ان أروى لكم ماحدث للارمادا عندما هاجمتها سفن الاعداء وعصفت بها العواصف . فقد التفت سفن قلائل منهاحول ايرلندا وركنت الىالفرار لتروى قصة هذه الهزيمة الشنعاء ، اما الســـفن الأخرى فقد رقدت الى الأبد فى قاع البحر الشمالى .

ومن الحق أن نصل ما انقطع من حديثنا فنقول أن البروتستانت من البريطانيين والهولنديين، أخذوا آنئذ ينقلون الحرب الى أراضى العدو . واكتشف هوتمان قبيل نهاية القرن السادس عشر ، الطريق الموصل الى جزائر الهند مهتـديا بكتيب كتبه **لنشوتن** ، وهـو هولنـدى كان فى خدمة البرتغال . وكان من نتيجة ذلك أن تأسست شركة الهند الشرقية الهولنــدية الكبرى ، وشنت حربا جديدة منظمة على المستعمرات البرتغالية والاسبانية فى آسيا وأفريقيا .

واحتدم الخصام فى قضية عجيبة نظرت امام المحاكم الهولندية أثناء ذلك الطور المبــكر من الفتح الاستعمارى . فقد حدث فى أوائل القرن السابع عشر أن استولى ربان هولنـدى يدعى **فان هيمسـكرك** — وقد اشتهر بالحملة التى قادها ساعيا الى الكشف عن ممر شمالى شرقى الى جزائر الهنـد ، وقضى الشتاء على شواطىء جزيرة **نوفا زمبلا** التى كان يغطيها الجليد — على سفينة برتغالية فى بوغاز ملقا . ولعلك تذكر أن البابا كان قد قسم العالم الى قسمين متساويين اعطى أحدهما للاسبان والنصف الاخر للبرتغال . وكان من الطبيعى أن يعد البرتغاليون المياه التى تحيط بجزائرهم الهندية جزءا من املاكهم ، ولم يكونوا فى ذلك الحين فى حرب مع الولايات السبع الهولندية المتحدة ، وادعوا انه ليس من حق ربان شركة هولندية تجارية خاصة ان يدخل فى دائرة املاكهم الخاصة ويسرق سفنهم .. لذلك رفعوا الامر الى القضاء . واتخذ مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية محاميا نابها يدعى **ده جروت أو جروتيوس** للدفاع عن قضيتهم ، فما كان منه الا أن دفع دفعا عجيبا : وهو أن المحيط مباح للجميع ، وقال أن البحــر ، فيما وراء مرمى مدفع من البر ، يجب أن يكون طريقا حرا مفتوحا لجميع سفن الدول على اختلافها .

وكانت هذه أول مرة يعلن فيها هذا الرأى الجرىء صراحة فى ساحة القضاء . وقد عارضت هذا الرأى سائر الدول البحرية دون استثناء . وقد كتب **جون سلدن** الانكليزى معارضا الدفع الفرعى الشهير الذى قال به جروتيوس خاصا «بالبحر الحر» (Mare Liberum) او البحر المفتوح ، ورسالته الشهيرة عن البحر المغلق (Mare Clausum) وفيها تناول الحق الطبيعى لدولة فى اعتبار البحار التى تحيط بلادها من أملاكها الخاصة . والسبب الذى من أجله ذكرت هذا ، هو أن المسألة لم تكن قد استقرت ، كما أنها أثارت فى الحرب الاخيرة جميع أنواع المصاعب والارتباكات .

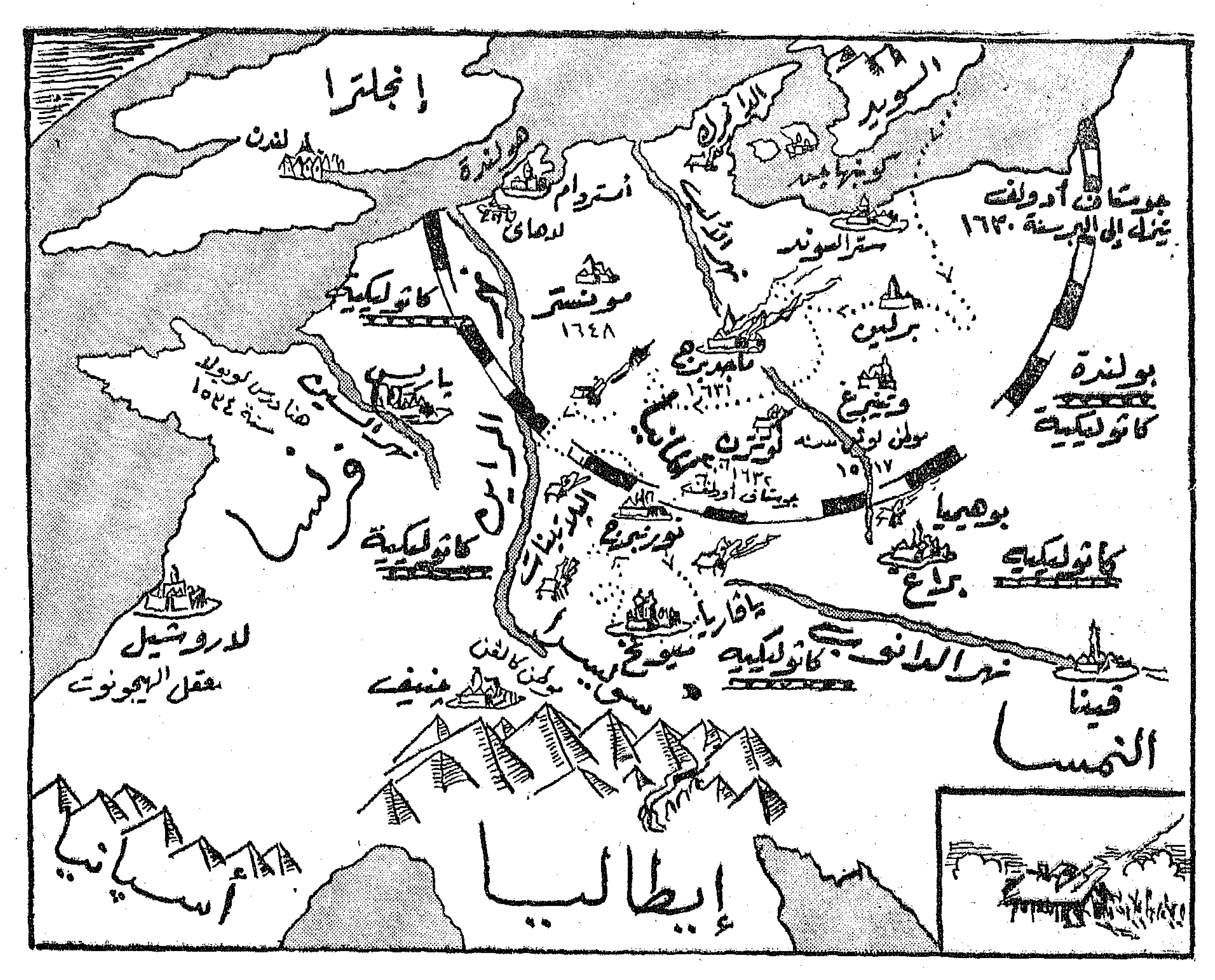
ولنعد الآن الى قصـة الحـروب بين الاسبـــان والهولنديين والانكليز . ذلك أن أعظـم المستعمرات شأنا فى جزائر الهند وفى رأس الرجاء الصالح وسيلان، والمستعمرات على طول شواطىء الصـين ، بل فى اليابان ... قد وقعت فى أيدى البروتستانت قبـل مضى عشرين سنة على ذلك . وفى عام ١٦٢١ تأسست شركة الهند الغربية ففزت البرازيل وبنت فى أمريكا الشمالية قلعة تسمى أمستردام الجديدة عند مصب النهر الذى اكتشفه هنرى هدسون عام ١٦٠٩ .



وفاة هدسون

وقد اثـرت كل من انـكلترا وهولنـــدا بفضل هـــذه المستعمرات الى حـــد أنهمـــا استطاعتا استـئجار الجنـــود للقيـــام بحروبهمـا البـرية فى حين كرستا جهودهما للتجارة والصناعة . وكانت الثورة البروتستانتية فى نظر كل من انكلترا وهولندا معناها الاستقلال والرخاء . على أن هذه الحرب كانت فى نظر كثير من دول اوربا الاخرى سلسلة من الفظائع اذا قيست اليها الحرب الاخيرة لكانت بمثابة رحـلة هينة يقوم بها صبيان مدرسة وادعون فى يوم من ايام الاحد .

وكانت حروب الثلاثين سنة التى نشبت عام ١٦١٨، وانتهت بمعاهدة وستفاليا الشهيرة عام ١٦٤٨، النتيجة الطبيعية المألوفة لقرن اشتدت فيه الحزازات الدينية



حرب الثلاثين عاما ..

باطراد . لقد كانت حربا مروعة كما قلت ، أخذ كل فرد فيها يقاتل الآخر ، ولم ينته هذا القتال الا بعد أن حل التعب والنصب بجميع المتحاربين ، فعجزوا عن الاستمرار فى القتال .

وقد أحالت هذه الحروب فى أقل من جيل أجزاء كثيرة من أوربا الوسطى الى برارى موحشة يقتتل فيها الفلاحون الجياع مع ذئاب أكثر منهم جوعا ومسغبة على جيفة حصان نافق ، وتخربت أكثر المدن والقرى الالمانية ونهبت البلاتينات فى غرب أوربا ثمانيا وعشرين مرة ، ونقص عدد السكان من ١٨ مليون نسمة الى أربعة ملايين . وما كاد فرديناند الثانى سليل بيت هبسبورج ينتخب امبراطورا حتى انطلقت العداوات من عقالها . فقد شب هذا الامبراطور فى احضان اليسوعيين ، فعنوا بتربيته عناية دقيقة ، ومن ثم كان مطيعا للكنيسة غاية الطاعة ، مخلصا لها أشد الاخلاص .

وقد نذر نفسه ، وهو بعد شاب يافع ، بان يستأصل كل الفرق وجميع أصحاب البدع الدينية فى بلاده ، وبر بوعده ما استطاع الى ذلك سبيلا . وقبل انتخابه امبراطورا بيومين أختير خصمه الاكبر فردريك — ناخب البلاتينات البروتستانتى ، وصهر جيمس الاول ملك انكلترا — ملكا على بوهيميا ، وكان فى ذلك نقض مباشر لرغبات فرديناند ، فما كان من جيوش آل هبسبورج الا ان سارت الى بوهيميا . وتطلع الملك الشاب الى من يعينه على هذا العدو الجبار فباء بالخيبة ، فقد كانت جمهورية هولندا راغبة فى مساعدته الا انها كانت مشتبكة فى حرب ضروس مع الفرع الاسبانى من بيت هبسبورج ، فلم يكن فى مكنتها أن تصنع شيئا ذا بال . اما ملوك انكلترا من بيت ستيوارت فكانوا أكثر اهتماما بتوطيد سلطانهم المطلق فى بلادهم من اهتمامهم بانفاق المال والرجال فى سبيل مغامرات عقيمة فى بلاد

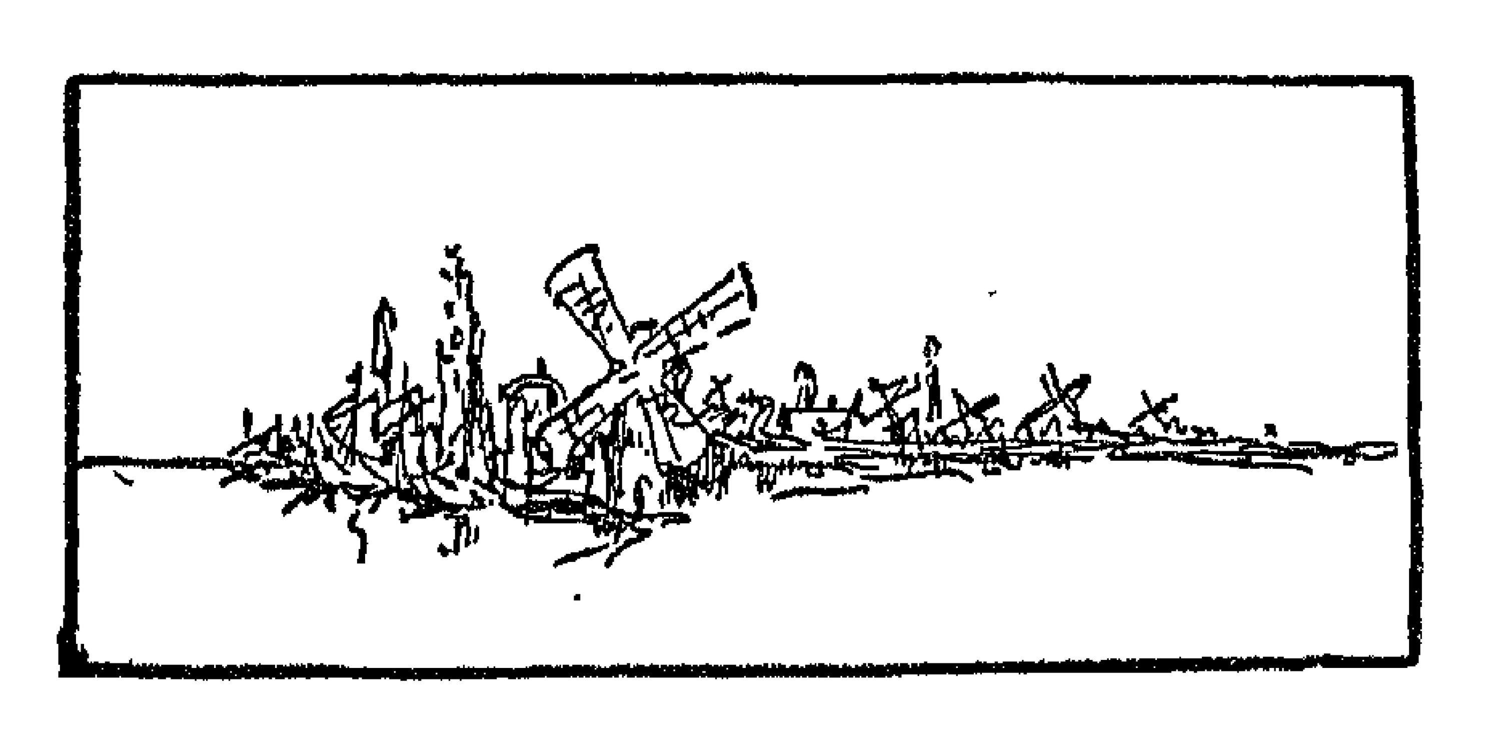
قاصية كبوهيميا . وطرد ناخب البلاتينات بعد قتال دام أشهرا قليلة ،وأعطيت أملاكه الىالبيت الكاثوليكى الذى كان يحكم باڤاريا . وكان ذلك بداية الحرب الكبرى .

عند ذلك خرجت جيوش هبسبورج بقيادة **تلى وولنشتين** تشق طريقها فى الجزء البروتستانتى من المانيا حتى بلغت شواطىء البحر البلطى . وكانفى قيام جار كاثوليكى للدانيمارك خطر عاجل يهـدد ملكها البروتستانتى . وأراد كريستيان الرابع ان يدافع عن نفسه ، فهاجم أعداءه قبل أن يزداد بأسهم فلا يقوى على دفعه ، وسارت الجيوش الدانيماركية الى ألمانيا ، ولكنها هزمت . وتابع ولنشتين انتصاراته فى نشاط وعنف ، فاضطرت الدنيمارك الى طلب الصلح . ولم يبق من مدن البحر البلطى فى أيـدى البروتستانت سوى مدينة واحدة هى مدينة **سترالسند** .

وقد نزل فى هذه المدينة فى مستهل صيف عام ١٦٣٠ الملك **جوسـتاف أدولف** ملك السـويد من بيت **فاسـا** ، وهـو الذى اشـتهر بدفاعـه عن بلاده ضد الروس . وكان جوستاف هـذا اميرا بروتستانتيا بعيد الاطماع ، راغبا فى جعل السويد مركز امبراطورية عظيمة فى الشمال . وقد رحب به أمراء أوربا من البروتستانت باعتباره نصير الدعوة اللوثرية . وأوقع الهزيمة بالقائد **تلى** الذى كان قد أفلح فى ذبح البروتستانت من أهـل مجـدبرج ، ثم سارت جيوشه متوغلة فى قلب المانيا محاولة بلوغ أملاك هبسبورج فى ايطاليا . وكان الكاثوليك يهددون مؤخرة جوستاف ، لذلك نجده يغير وجهته فجأة ويهزم جيش هبسبورج الأكبر فى وقعـة لوتزن . ومما يبعث على الاسف أن جوستاف لقى حتفه وهو يتجول بعيدا عن جنده ، غير أن شوكة آل هبسبورج كانت قد كسرت .

وكان فرديناند رجلا من دأبه الشك ، فبدأ من فوره يرتاب فى خدامه ، فكان أن قتل ولنشتين كبير قواده بايعاز منه . ولما سمع ملوك فرنسا الكاثوليك من بيت بوربون بذلك ــ وكانوا يحكمـون فرنسا، ويكرهون منافسهم سليل بيت هبسبورج ــ انضموا الى أهل السويد البروتسـتانت . وغزت جيوش لويس الثالثعشر القسم الشرقى منالمانيا ، واقتسم قائدا هذا الجيش ــ **تورين وكنـديه** ــ الشهرة التى أثـرت عن القـائدين السويديين **بانر وڤيمر** ، ذلك أنهما عمدا الى تذبيح آل هبسبورج ، ونهب ملكهم وتحريقه . وأفضى ذلك الى ازدياد ثراء السويديين وشهرتهم مما أحفظ أهل الدانيمارك عليهم . وعنـد ذلك أعلن أهل الدانيمارك البروتستانت الحرب على السـويديين البروتستانت ، وكان هؤلاء حلفـاء الفرنسيين الكاثوليك الذين كان قائدهم السـياسى الكردينال ريشيليو قـد حـرم الهيجونوت (اى البروتستانت الفرنسيين) وشيكا من حقوقهم فى التعبد علانية ، وهى الحقوق التى خولها لهم مرسوم نانت الذى صدر عام ١٥٩٨ .

ولكن هذه الحروب كانت على غرار مثيلاتها من المصادمات ، فلم تحسم شيئا عندما انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ ، ذلك أن الدول الكاثوليكيةظلت على مذهبها الكاثوليكى كما ظلتالدول البروتستانتية مخلصة لعقائد لوثر وكلفن وزونجلى . وتم الاعتراف بسويسرا وهولندا البروتستانتيتين جمهـوريتين مستقلتين . واحتفظت فرنسا بمـدن متز وتول وڤردان وبجزء من الالزاس . واستمرتالامبراطورية الرومانية المقدسة قائمة كالشبح بلا رجال او مال ، مفقودة الامل مسلوبة الشجاعة .



أمستردام عام ١٦٤٨

وكان الخير الوحيد الذى تمخضت عنه حروب الثلاثين سنة خيرا سلبيا ، فقد ثبطت همة الكاثوليك والبروتستانت عن معاودة اشعال نار الحرب بحال من الاحوال ، ومن ثم تركت كل منهما تنعم بالسـلام والامن . على ان ذلك لم يكن يعنى أن الشعور الدينى والحزازات الدينية قد زالت من الوجود بل ان الامر كان على العكس من ذلك .

صحيحان المشاحنات بين الكاثوليك والبروتستانت قد انتهت ، ولكن الجدل بين الفرق البروتستانتية المختلفة ظل مستعر الاوار كما كان من قبـل ، وقد اختلف الرأى فى هولندا حول الطبيعة الحق للمذهب الجبرية ، وهى مسألة من مسائل الدين الغامضـة كل الغمـوض ، ولكنهـا كانت على جانب عظيم

من الاهمية فى نظر أجداد أجدادنا . فأثار ذلك نزاعا انتهى باطاحة رأس **جون** سليل بيت **أولدنبارنفلت** ، والسياسى الهولندى الذى كان له الفضل فى نجاح الجمهورية فى السنوات العشرين الأولى من استقلالها . وقد كان هذا الرجل هو ذلكم العبقرى العظيم الذى نظم شركة الهند الهولندية التجارية . اما فى انكلترا فقد انتهى هذا النزاع الى قيام فتنة فيها .

ويجدر بى ان أقص عليكم طرفا من تاريخ انكلترا السابق على ذلك قبل أن أحدثكم عن هذه الفتنة التى أدت الى محاكمة ملك أوربى والقضاء باعدامه ، وكانت هذه اول سابقة من نوعها .

وانا أحاول فى هذا الكتاب ألا أسوق لكم من حوادث الماضى الا ما كان منها يلقى ضوءا على الظروف التى تمر بعالمنا الراهن . فاذا تغاضيت عن ذكر بلاد بعينها فليس معنى ذلك اننى اكن لها فى قلبى كراهية أو حقدا . وقد كنت أحب أن يتاح لى ذكر ماحدث فى النرويج وسويسرا والصرب والصين ، ولكن هذه البلاد لم يكن لها شأن كبير فى تطور أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومن ثم فانى أتجاوز عنها تجاوز الكرام . على أن الموقف بالنسبة لانكلترا يختلف عن هذا ، ذلك أن ما فعله أهل تلك الجزيرة الصغيرة فى السنوات الخمسمائة الاخيرة قد تحكم فى مجرى التاريخ فى كل ركن من أركان العالم .

وأنت أيها القارىء لا تستطيع أن تفهم ما تقرأه فى الصحف الا اذا عرفت خفايا التاريخ الانكليزى معرفة صحيحة . ولذلك فان الامر يقتضيك أن تعلم كيف اتفق لانكلترا أن تمكنت من انشاء صورة برلمانية من صور الحكم ، فى حين كانت سائر دول القارة الاوربية لا يزال يحكمها ملوك لا معقب لسلطانهم .

الثورة الإنجليزية

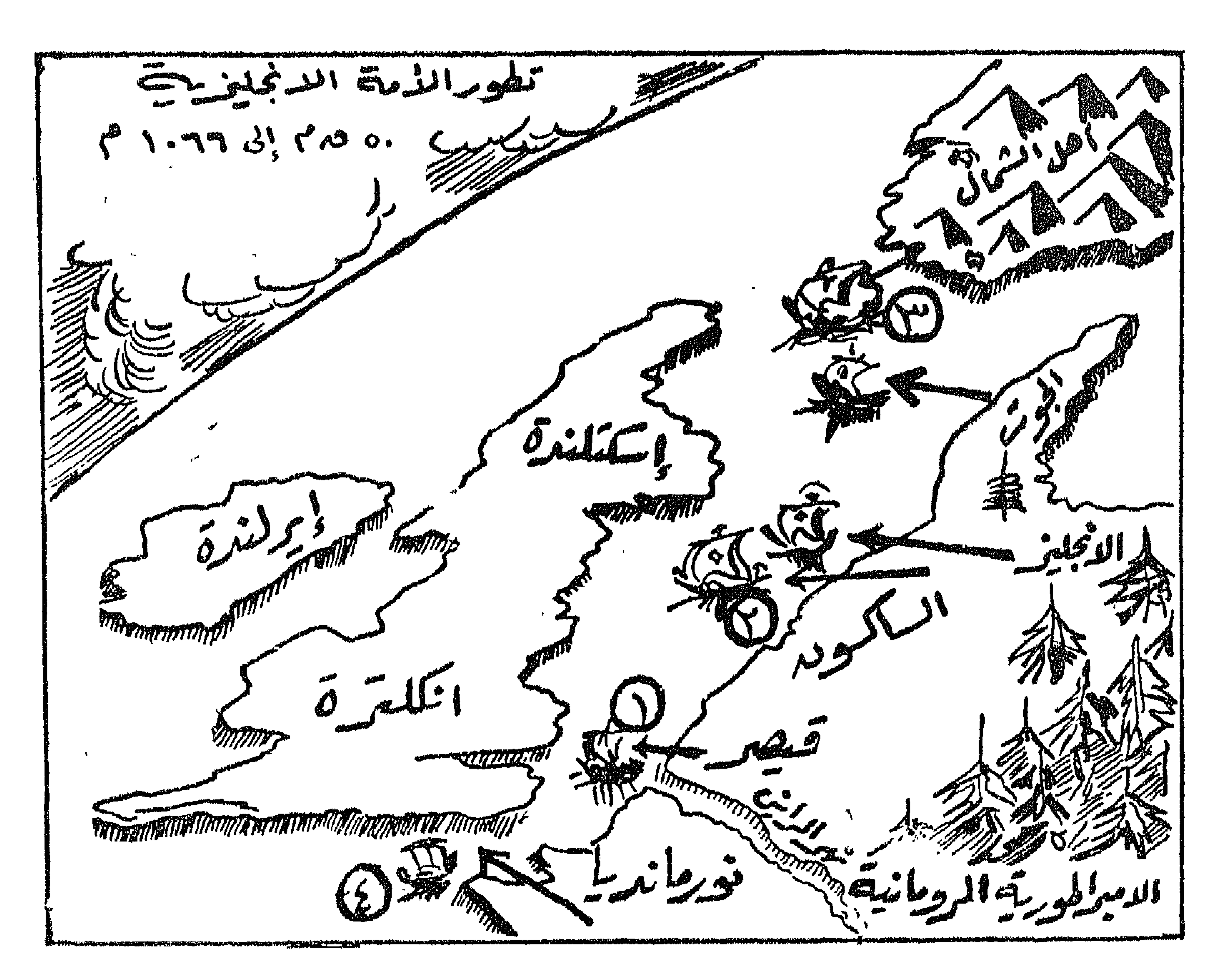
النزاع بين حق الملوك الالهى وحق البرلمان ، وهو حق أقل من الاول قدسية ، وأقرب منه الى العقل ، وكيف انتهى هذا النزاع بمأساة حلت بالملك شارل

عبر قيصر ، أقدم مستكشف لشمال غربى أوربا ، القناة الانكليزية عام ٥٥ قبل الميلاد ، وفتح انكلترا . وظلت هذه البلاد ولاية رومانية أربعة قرون . ولما أخذ البرابرة يهددون روما ، سحبت روما حامياتها التى كانت مرابطة على الحدود ، للدفاع عن وطنها فتركت بريطانيا من غير حكومة ، وحرمت بريطانيا من أسباب حمايتها .

وما ان علمت القبائل السكسونية الجائعة فى ألمانيا الشمالية بذلك ، حتى عبرت البحر الشمالى ، واستوطنت هذه الجزيرة الزاهرة ، وانشأت فيها عددا من الممالك الانجلو ـ سكسونية المستقلة . وقد سميت بذلك الاسم نسبة للمغيرين الاصليين وهم الانكليز والسكسون . ولكن هذه الممالك الصغيرة دأبت على التنازع فيما بينها ، ولم يظهر فى الميدان ملك قوى يستطيع توحيد البلاد تحت سلطانه . وظلت ممالك مرسيا ، ونورثمبريا ، ووسكس ، وسسكس وكنت ، وانجليا الشرقية ، نيفا وخمسة قرون عرضة لهجمات القرصان الاسكندناويين على اختلافهم . وفى نهاية الامر أصبحت انكلترا والنرويج وشمالى ألمانيا فى القرن الحادى عشر جزءا من الامبراطورية الدانيماركية الكبيرة التى أسسها كانيوت الاكبر ، وبذلك زال آخر أثر من آثار استقلالها . وأخرج الدانيماركيون من البلاد بمرور الزمن ، وما كادت انكلترا تستعيد حريتها حتى غزيت للمرة الرابعة . وكان غزاتها الجدد سلالة قبيلة أخرى من أهل الشمال أغارت على فرنسا فى بواكير القرن العاشر وأسست بها دوقية نورماندى .

وكان وليم دوق نورماندى يتطلع بعين الحسد منذ أمد بعيد الى البلاد التى وراء القناة ، لذلك نجده يعبر القناة الانكليزية فى اكتوبر عام ١٠٦٦ . وفى الرابع عشر من شهر اكتوبر من السنة نفسها قضى وليم على جيوش هارولد ملك وسكس الضعيفة فى وقعة هاستنجس وأقام نفسه ملكا على انكلترا . وكان هارولد هذا آخر الملوك الأنجلو ساكسون .

ولم يكن وليم ولا خلفاؤه من بيت أنجو وپلانتاجينات يعدون انكلترا موطنهم الحقيقى ، فقد كانت الجزيرة فى نظرهم لا تعدو أن تكون جزءا من ميراثهم الهائل فى القارة ، أو مجرد مستعمرة يسكنها أناس متأخرون فرضوا عليهم لغتهم وحضارتهم . على أن



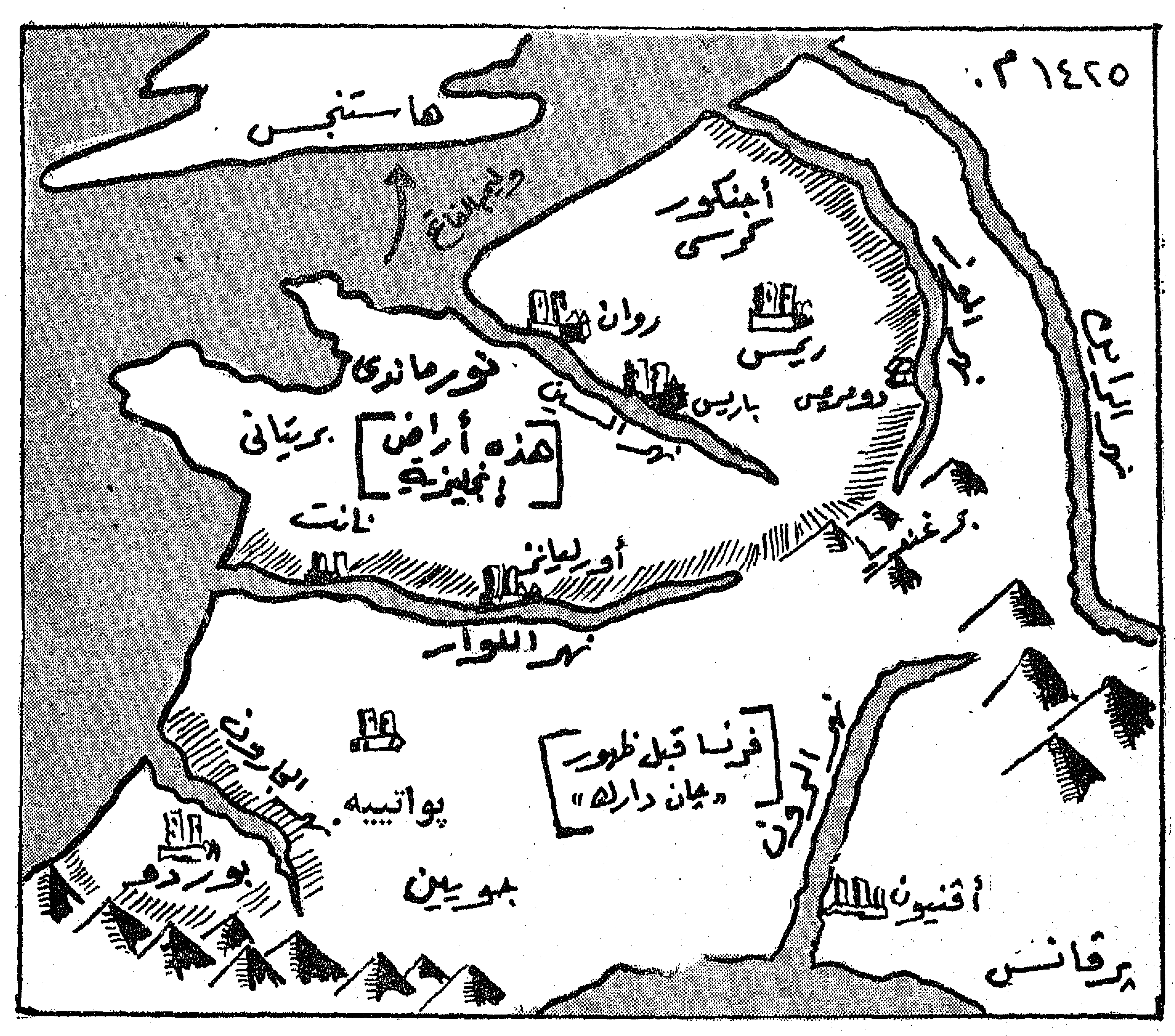
الامة الانجليزية

المستعمرة الانكليزية أخذت تطغى شيئا فشيئا على الوطن الاصلى نورمانديا .

وكان ملوك فرنسا فى الوقت نفسه يبذلون جهد اليائس للتخلص من جيرانهم الاقوياء الانكليز ـ النورمانديين الذين لم يكونوا فى الحقيقة سوى مواطنين متمردين على التاج الفرنسي . وبعد حروب دامت قرنا من الزمان تمكن الشعب الفرنسي بقيادة فتاة صغيرة تسمى **جان دارك** من طرد الاجانب من بلادهم . ووقعت جان فى الأسر فى وقعة **كومبيين** عام ١٤٣٠ ، وباعها آسروها البرغانديون الى الجنود الانكليز فأحرقوها على اعتبار أنها ساحرة . ولم تتوطد أقدام الانكليز قط فى القارة الاوربية ، واستطاع ملوكهم آخر الأمر أن يصرفوا كل وقتهم فى العناية بممتلكاتهم البريطانية . وكان النبلاء والاقطاعيون فى الجزيرة الانكليزية قد انهمكوا فى مشاحنة من تلك المشاحنات العجيبة التى كانت شائعة شيوع الحصبة والجدرى فى العصور الوسطى ، كما كان معظم أصحاب الأراضى القدماء قد قتلوا فى الحروب المعروفة باسم حروب الوردتين ، ومن ثم كان من أسهل الأمور على ملوك انكلترا أن يوطدوا سلطانهم .

وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته ، حتى أصبحت انكلترا دولة ممعنة فى المركزية يحكمها هنرى السابع من بيت تيودور . وقد قمعت محكمته المشهورة المعروفة بغرفة النجم (Star Chamber) التى ترتعد لذكرها الفرائص ، كل مابذله النبلاء الذين كانوا على قيد الحياة من محاولات فى سبيل استعادة نفوذهم القديم على الاداة الحكومية بمنتهى الشدة والقسوة .

وفى عام ١٥٠٩ خلف هنرى الثامن والده هنرى السابع ، ومنذ ذلك الوقت اكتسب تاريخ انكلترا شأنا جديدا ، ذلك أن البلاد لم تعد مجرد جزيرة من جزائر العصور الوسطى ، بل أصبحت دولة حديثة . ولم يكن هنرى الثامن يهتم بالدين اهتماما كبيرا ، وقد استغل مغتبطا فرصة خلاف خاص قام بينه وبين البابا فيما يتعلق بطلاقه الأول ، وأعلن استقلاله عن كنيسة روما ، وبذلك جعل كنيسة انكلترا أول



حرب المائة عام

تلك الكنائس الوطنية التى أصبح فيها الحاكم الدنيوى هو أيضا الرئيس الروحى لرعاياه . ولم يكسب هذا الاصلاح السلمى الذى تم عام ١٥٣٤ بيت تيودور تأييد رجال الدين الانكليز الذين كانوا قد تعرضوا للهجمات العنيفة من قبل كثير من دعاة اللوثرية مدة طويلة فحسب ، بل زادأيضامن سلطان الملوك بفضل ماعمدوا اليه من مصادرة ماكان للأديرة من أملاك . كما أن هذا الاصلاح قد جعل هنرى فى الوقت نفسه محبوبا من التجار وأصحاب الصناعة ، فقد كان هؤلاء يعتزون بكونهم سكانا موفقين مرزقين لجزيرة يفصلها عن سائر أوربا قناة واسعة بعيدة الغور ، ومن ثم كانوا ينطوون على كراهية شديدة لكل ماهو أجنبى ، ولا يحبون أن يهيمن أسقف أيطالى على نفوسهم البريطانية الطاهرة السليمة !

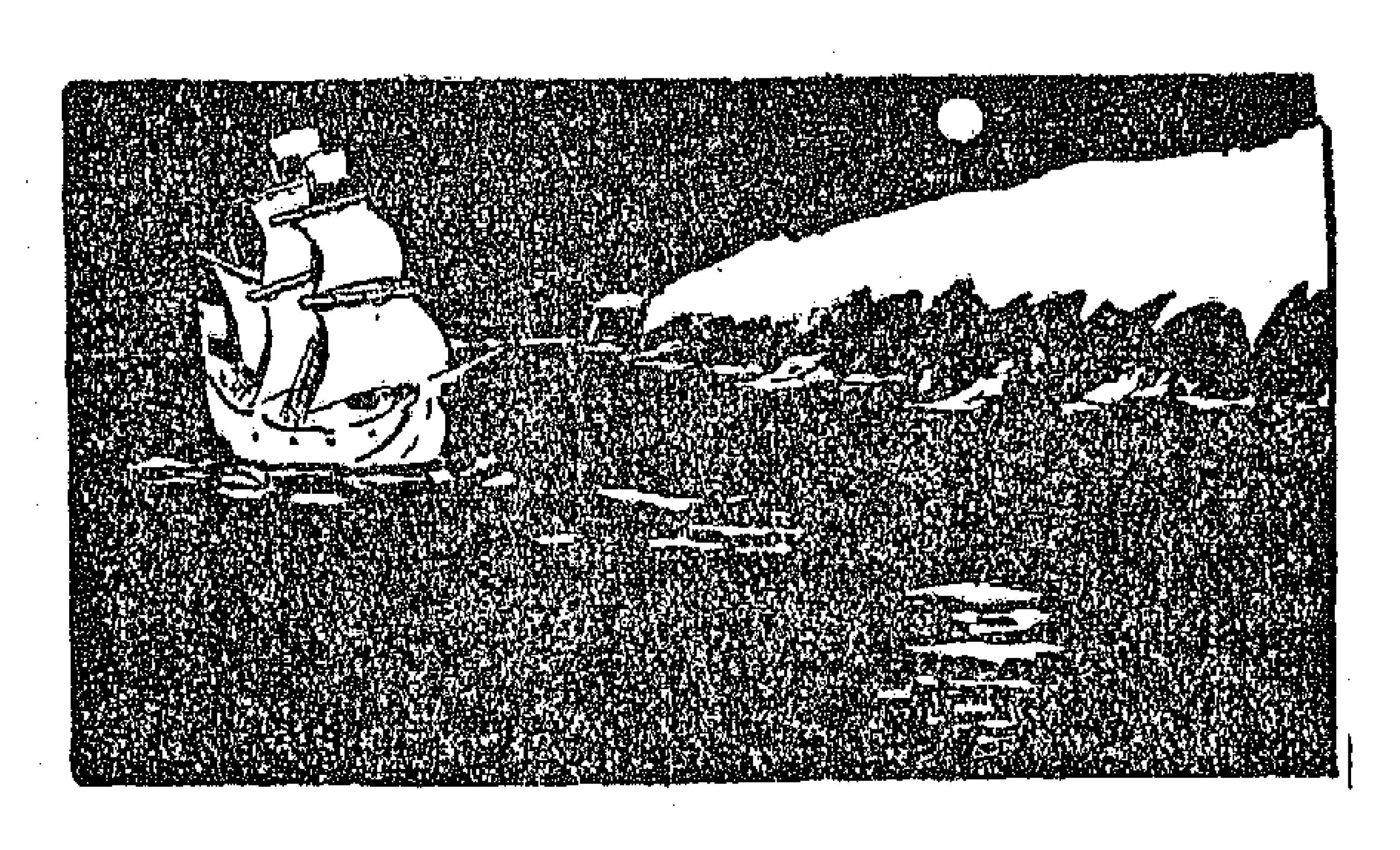
توفى هنرى الثامن عام ١٥٤٧ تاركا العرش لولده الصغير ، وكان وقتذاك فى العاشرة من عمره . وكان الأوصياء على هذا الطفل يعطفون على تعاليم لوثر الحديثة ، فعملوا كل مافى وسعهم لنصرة الدعوة البروتستانتية . على أن هذا الصبى توفى دون أن يبلغ السادسة عشرة من عمره فخلفته على العرش أخته مارى زوجة فيليب الثانى ملك اسبانيا ، فأحرقت اساقفة الكنيسة الوطنية الجديدة ونهجت فى المسائل الأخرى نهج زوجها ملك اسبانيا .

ومن حسن الحظ أن مارى توفيت عام ١٥٥٨ ، وخلفتها على العرش اليصابات ابنة هنرى الثامن من زوجته الثانية آن بولين ، احدى زوجاته الست ، وهى

التى امر بقطع رأسها بعد أن فقدت الحظوة عنـده . وكانت أليصابات هـذه قد أمضت ردحا من الزمن سجينة ، ولم يطلق سراحهـا الا بتدخـل امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكانت هذه الملكة عدوة لدودة لكل ماهو كاثوليكى أو اسبانى ، ولقد شاركت أباها عدم اهتمامه بالمسائل الدينية ، ولـكنها ورثت تلك الكفاية التى أثرت عنه : الا وهى دقة الحكم عـلى طبائع الناس . وجلست أليصابات على عرش انكلترا خمسا وأربعين سنة قضتها فى تقوية سلطان البيت المالك وفى توسيع ممتلـكات الجـزائر البريطانيـة السعيدة وتنمية دخلها . وقد عاونها فى ذلك خـير معاونة عدد من الرجال تجمعوا حول عرشها وجعلوا عصرها من رفعة الشأن بحيث ينبغى لك أن تدرسه بالتفصيل فى كتاب من الكتب الخاصة الكثيرة التى كتبت عن هذا العهد .

على أن أليصابات لم تكن مطمئنة كل الاطمئنان على عرشها ، فقد كانت لها منافسة عظيمة الخطر . ذلك أن مارى سليلة بيت أستيوارت ،وابنة دوقة فرنسية وأب اسكتلندى ، وأرملة فرنسيس الثانى ملك فرنسا وزوجة ابن كترين ده مديشى — التى دبرت مذبحـة سانت برثلوميو — كانت أم صبى قيض له أن يصبح فيما بعد أول ملوك انكلترا من أسرة استيوارت . وكانت مارى هذه كاثوليكية متعصبة ، وصديقة حميمة لكل أعداء اليصابات . بيد أن عجزها فى حلبة السياسة واصطناعها العنف فى تأديب رعاياها من أتباع كلفن قد أدى الى قيـام الثورة فى اسكتلندا ، فاضـطرت الى الالتجاء الى أرض الكليزية ، وقضت فى انكلترا ثمانية عشر عاما دائبة على التآمر ضـد المرأة التى آوتهـا . واضطرت أليصـابات آخر الامر الى الاخذ بنصيحة أصحاب مشـورتها المخلصين فقطعت رأس هـذه الملكة الاسكتلندية . وقد تم ذلك عام ١٥٨٧ وكان سببا فى اشتباك انكلترا فى حرب مع اسبانيا ، ولكن الأسطولين الانكليزى والهولندى ، أنزلا مجتمعين الهزيمة بأرمادا فيليب المنيعة الجانب كما ذكرنا من قبل . وانقلبت الضربة التى قصد بهـا القضـاء على هاتين الدولتين الـكبيرتين اللتين كانتا تتزعمان الحـركة المناهضـة للكاثوليكية ، الى مغامرة تجارية عادت عليهما بالنفع .

ذلك أن الانكليز والهولنديين قد انتهى بهم الرأى آنئذ بعد تردد دام عدة سنوات الى الاعتقاد بأن من حقهم غزو جزائر الهند وأمريكا للاقتصاص من الاسبان جزاء ماأنزلوه بأخوانهم البروتستانت من محن وأرزاء . ولقد كان الانكليز فى طليعة من سار على منوال كولومبس .



جون وسباستيان كابوت يرتادان ساحل نيوفوندلاند

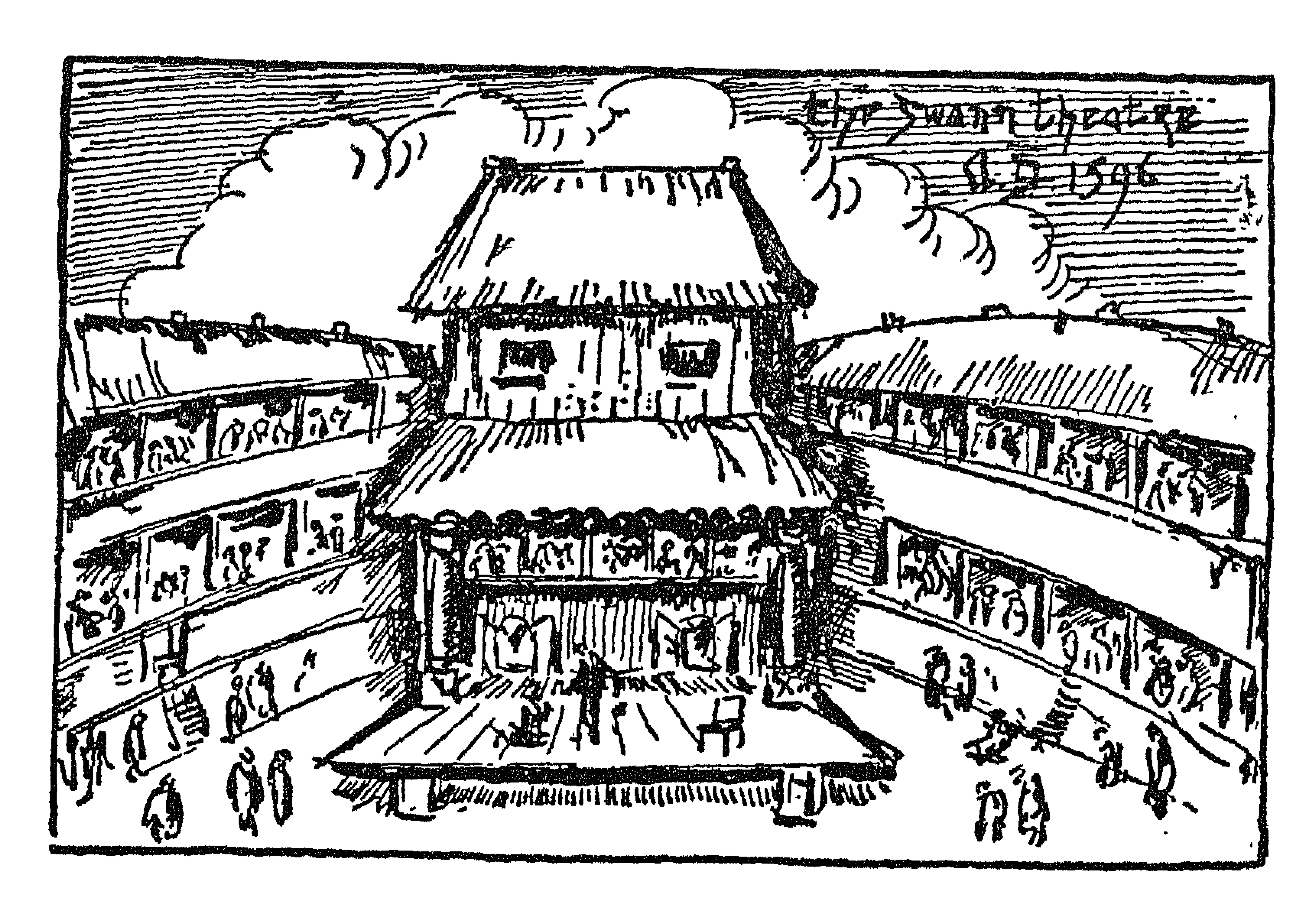
فكانت السفن الانكليزية بقيادة الملاح البندقى جيو ڤانى كابوتو او كابوت أول من كشف عن أمريكا الشمالية عام ١٤٩٦ .

وكانت لبرادور ونيوفوند لاند مستعمرتين ضئيلتى الشأن لاتبشران بالخير ، ولـكن شواطىء نيوفوندلاند كانت مغنما خصبا لأسطول الصيد الانكليزى . وارتاد كابوت ساحل فلوريدا بعد ذلك بعام أى سنة **١٤٩٧ .**

ثم خلت سنوات حافلة بالحوادث ولى فيهـا عرش انكلترا هنرى السابع ثم هنرى الثامن ، فلم يجدا بين أيديهما من المـال مايتيح لهمـا القيـام بأعمـال الاستكشـاف . أما فى عهد أليصابات فكانت انكلترا فى سلام ، ومارى استيوارت بين جدران سجنها ، وكان الملاحون يغادرون موانىء بلادهم مطمئنين على مصـير أولئك الذين خلفوهم وراءهم .

وقـد خاطر ولوبى — عنـدما كانت اليصـابات لاتزال بعد طفلة — بالابحار الى ماوراء الرأس الشمالى ، وأوغل أحد ملاحيه ، وهـو **ريتشـارد تشانسـلور ،** شرقا بحثا عن طريق الى جزائر الهند الشرقية، فوصل الى اركانجل الروسية حيث انشأ علاقات دبلوماسـية وتجارية مع حكام هذه الامبراطورية المسكوفية البعيدة الذين كانت تحيط بهم الأسرار .

وفى خلال السنوات الأولى من عهد اليصابات ،أعقب هذه الرحلة رحلات أخرى كثيرة ، فقد قام جماعة من التجار المغامرين الذين يعملون لصالح شركة من شركات المحاصة ، وأسسوا مراكز تجارية أصبحت مستعمرات فيما تلا ذلك من قرون . وقد حمل ملاحو اليصابات العلم الانكليزى ، كما حملوا شهرة ملـكتهم العذراء الى الأركان الأربعة للبحار السبعة ، وكان هؤلاء الملاحون أشبه بالقرصان ، وأشبه بالدبلوماسيين ، مسـتعدين للمغامرة بكل شىء فى سبيل رحلة واحدة سـعيدة . كانوا مهربين لكل شىء يمكن أن توسق به سفينة من



المسرح فى عهد اليصابات

السفن ، يتاجرون بالرجال والبضاعة على حد سواء ، ولا يحفلون فى ذلك الا بما يعود عليهم بالربح .

وكان شكسبير فى الوقت ذاته يعمل على تسلية جلالتها فى أرض الوطن . وتعاون صفوة العقلاء وخيرة الألباء مع الملكة فى محاولتها احالة الملك الاقطاعى الذى ورثته عن هنرى الثامن الى دولة قومية جديدة .

وفى عام ١٦٠٣ توفيت هذه السيدة العجوز بالغة من العمر سبعين سنة فخلفها على العرش ابن عمها ، وهوسبط جدها هنرى السابع ، وولدمارى استيوارت منافستها وعدوتها ، ولقب بجيمس الأول . وقد وجد جيمس نفسه - بفضل الله - حاكم دولة نجت من المصير التى آلت اليه دول القارة الأوربية ، فبينما كان البروتستانت والكاثوليك فى أوربا يقتل بعضهم بعضا فى محاولة يائسة للقضاء على قوة خصومهم وغلبة عقيدتهم الخاصة بحيث لاتقوم لأية عقيدة أخرى قائمة ، كانت انكلترا تعيش فى سلام ووئام ، وتصلح أمر دينها فى يسر واطمئنان دون أن تشتط اشتطاط لوثر أو لويولا .

وقد أكسب كل ذلك هذه المملكة الجزرية ميزة هائلة ، فى نضالها المقبل فى سبيل تملك المستعمرات ، وضمن لانكلترا الزعامة فى الشئون الدولية، تلك الزعامة التى ظلت محتفظة بها الى عهد قريب . بل ان تلك المغامرة المشئومة ، مغامرة تولية آل ستيوارت العرش ، لم تستطع أن توقف هذا التطور الطبيعى .

لقد كان آل ستيوارت الذين خلفوا آل تيودور على عرش انكلترا أجانب عن البلاد ، والظاهر أنهم لم يقدروا هذه الحقيقة أو يفهموها، ذلك أن بيت تيودور الوطنى كان فى مقدوره أن يسرق حصانا ، أما بيت استيوارت الاجنبى فلم يكن يسمح له بالتطلع الى لجام الحصان دون أن يثير ذلك سخطا عاما كبيرا .

لقد حكمت الملكة اليصابات ، تلك الملكة العريقة ، ملكها على ماتحب وتهوى ، على أنها كانت بصفة عامة تسير دائما وفق السياسة التى ترمى بأن يدخل المال فى جيوب الأمناء، وبمعنى آخر فى جيوب التجار الانكليز! ومن ثم كانت الملكة دائما أبدا موقنة من تعضيد رعاياها الشاكرين تعضيدا صادرا عن قلوبهم ، فكان الشعب يتغاضى عن طيب خاطر عن الحريات غير الجوهرية وعن الحقوق والامتيازات التى سلبتها الملكة من البرلمان الانكليزى فى سبيل المصالح الكبرى التى كانت تتحقق بفضل سياستها الخارجية القوية الموفقة .

وتابع الملك جيمس هذه السياسة فى ظاهر الأمر ، ولكنه كان ينقصه تلك الحمية الشخصية التى كانت من أخص خصائص سلفته العظيمة . فقد استمر فى تشجيع

التجارة الخارجية ، ولم يمنح الكاثوليك أية حرية من الحريات . على أنه ما أن أقبلت أسبانيا على انكلترا محاولة أن تعقد معها صلات ودية حتى استجاب جيمس لهذا الاقبال . وكان معظم الشعب الانكليزى ينفر من ذلك ، ولكن جيمس كان ملكهم فاستكانوا .

وسرعان مالاحت أسباب أخرى للخلاف بين الملك وشعبه ، فقد كان جيمس ومن بعده ولده شارل الأول الذى خلفه على العرش عام ١٦٢٥ ، يعتقدان اعتقادا جازما بحق الملك الالهى فى حكم مملكته بحسب مايرى ومن غير أن يتعرف على رغبات رعاياه . ولم تكن هذه الفكرة جديدة ، فقد كان البابوات الذين كانوا من عدة وجوه خلفاء أباطرة الرومان ، أو قل انهم كانوا يمثلون المثل الأعلى للامبراطورية الرومانية الذى يرمى الى اقامة دولة واحدةمتحدةتشملالعالم المعروفبأسره ـ يعدون انفسهم على الدوام خلفاء المسيح على الأرض ، وقد اعترف الناس لهم جهرة بهذه الصفة . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك انه لم يشك الا القليلون فى حق هذا الخليفة المقدس فى أن يفعل ما فعله المسيح ، وان يطلب الطاعة من الجماهير ، لانه كان يمثل مباشرة المدبر الأعظم للكون ، كان هو المسئول أمام الله العلى القدير دون سواه .

فلما ثبت نجاح الاصلاح الذى نادى به لوثر انتقلت هذه الحقوق المقدسة التى كانت من قبل فى أيدى البابوات الى كثير من الملوك الأوربيين الذين أصبحوا يدينون بالبروتستانتية ، وأصر هؤلاء على أن يكونوا خلفاء المسيح فى حدود ملكهم بوصف كونهم رؤساء كنائسهم الوطنية أو الكنائس التى يتوارثونها . ولم يناقش الشعب حق ملوكه فى اتخاذ هذه الخطوة ، فقد سلموا بها كما نسلم نحن الآن بفكرة النظام النيابى الذى يبدو فى نظرنا أنه الصورة الوحيدة المعقولة من صور الحكم التى تتحقق بها العدالة . ومن ثم فليس من الانصاف أن نقول ان اللوثرية أو الكلفنيةهىمصدر ذلك الشعور الخاص بالسخط الذى كانت تقابل به دعوة الملك جيمس بحقه الالهى الذى كان لاينفك يرددها جهرة ، ولا بد أن تكون ثمة أسباب أخرى لهذا الشعور السليم الذى أحس به الانكليز ، الا وهو عدم الاعتقاد فى الحق الالهى للملوك .

لقد سمعأول صوت أنكر بالفعل الحق الالهى للملوك فى الأراضى الواطئة، وذلك عندما نادى مجلس الطبقات بخلع سيد البلاد الشرعى الملك فيليب الثانى ملك أسبانيا عام ١٥٨١ ، فقد ذهب الى أن الملك قد أخل بالعهد الذى بينه وبين شعبه ، ولذا وجب ابعاده كما يبعد اى خادم آخر اخل بالأمانة ، وانتشرت منذ ذلك الوقت فكرةمسئوليةالملك امامرعاياهبين كثير من الشعوب التىتسكن شواطىء بحرالشمال . وكانتهذهالشعوب فىمركز مواتكل المواتاة، فقد كانت غنية . أما الشعوب الفقيرة فى أواسط اوربا التى كانتتحت رحمةالحرس الذى أقامه ملوكهم ، فلم يكن فى مقدورهم مناقشة مسألة تزجبهم على الفور فى سجن أقرب القلاع اليهم .

أما تجار هولندا وانكلترا الذين كانوا يملكون المال اللازم للانفاق على جيوش وأساطيل عظيمة ، والذين كانوا يعرفون كيف يستخدمون ذلك السلاح القتال الا وهو الاقراض ، فلم يغش قلوبهم ما غشى قلوب هؤلاء من خوف ، ذلك أنهم كانوا مصممين على أن يضعوا حر مالهم فى الميزان أمام الحق الالهى الذى يدعيه اى ملك من ملوك الهبسبورج أو البوربون أو الاستيوارت ". فقد عرفوا أنهم يستطيعون بذهبهم ان يفلوا الجيوش الاقطاعية المفككة التىكانت السلاح الوحيد الذى يعتد به الملك . كانوا يستطيعون أن يقدموا على العمل ، أما غيرهم فقد كتب عليهم أن يقاسوا العذاب صامتين ، أويغامروا بحياتهم على حبال المشنقة .

ولما بدأ آل ستيوارت يزعجون الشعب الانكليزى بدعواهم أن لهم الحق فى عمل مايحلو لهم دون أن يكونوا مسئولين عن ذلك أمام احد ، أخذت الطبقات الوسطى تتخذ من مجلس العموم حصنا أماميا لها يعصمها من سوء استخدام الملوك لسلطتهم . وقد رفض الملك ان يذعن للشعب فكان من أمره أن حل البرلمان . وظل شارل الأول يحكم البلاد بمفرده أحد عشر عاما ، فكان يجبى الضرائب التى عدها معظم الشعب أمرا غير مشروع ، وأخذ يدبر شئون الدولة البريطانية كأنها ملك خاص له . وكان يعاونه فى ذلك مساعدون مقتدرون . والحق أنه أوتى الشجاعة على ابرام مارسخ فى عقيدته .

ومن سوء الحظ أن شارل لم يعمل على اكتساب معونة رعاياه الاسكتلنديين المخلصين ، بل اشتبك فى نضال مع رجال الدين **البرسبتيريين** . وشعر شارل بحاجته الماسة الى مال نقدى فانتهى به الأمر ، على غير ما يحب ، الى دعوة البرلمان بمجلسيه مرة أخرى . فاجتمع فىشهرابريل عام ١٦٤٠،فتجهم له ، فحله بعد أسابيع قليلة من اجتماعه . واجتمع برلمان آخر فى نوفمبر ، ولكنه كان أكثر تشددا من

البرلمان السابق ، فقد أدرك أعضاؤه أنه يجب أن تحل مسألة الحكم بمقتضى الحق الالهى ، أو الحكم عن طريق البرلمان حلا نهائيا حاسما ، وهاجموا الملك فى شخص مستشاريه ، وقتلوا نفرا منهم ، وأعلنوا أنهم سوف لايسمحون بحل البرلمان دون موافقة أعضائه . وكان أن قدموا للملك أخيرا فى ديسمبر سنة ١٦٤١ عريضة احتجاج كبرى فصلوا فيها الكلام عن المظالم الكثيرة التى تغضب الشعب من مليكه .

وغادر شارل لندن فى يناير عام ١٦٤٢ الى الريف آملا أن يكتسب بعض التأييد لسياسته فى أقاليمه . وأخذ كل فريق يعد جيشا يتأهب للقتال السافر بين سلطان الملك المطلق وسلطان البرلمان المطلق . وسرعان ماتقدم الصفوف فى أثناء هذا النضال أقوى العناصر الدينية فى انكلترا الا وهم **المتطهرون** ، وهم من أتباع الكنيسة الانجليكانية الذين كانوا قد رغبوا أن يطهروا عقائدهم الدينية من أدرانها تطهيرا . فتقدمت كتائبهم المؤلفة من رجال ورعين وعلى رأسهم **أوليفر كرومويل** ، يسودهم النظام الذى أثر عنهم ، وتتملكهم الثقة الوطيدة فى قداسة أغراضهم ، فأصبحوا بعد قليل قدوة لجيوش المعارضين جميعا . وحلت الهزيمة بشارل مرتين وفر الى اسكتلندا عام ١٦٤٥ بعد وقعة **ناسبى** ، ولكن الاسكتلنديين باعوه الى الانكليز .

وأعقب ذلك فترة من الدسائس والمؤامرات ، وحدث انتقاض من البرسبيتريين الاسكتلنديين على المتطهرين الانكليز . وفى أغسطس عام ١٦٤٨ وضع كرومويل ، بعد موقعة پرستون پانز التى دامت ثلاثة أيام ، حدا لهذه الحرب الأهلية الثانية ، واستولى على أدنبرة . وفى خلال ذلك قرر جنوده — وقد ضاقوا بالنقاش فى المسائل الدينية والساعات الضائعة فى هذا النقاش — أن يقدموا على العمل من جانبهم فأخرجوا من البرلمان القديم كل من لم يوافق على آراء المتطهرين ، أما الباقون من أعضاء البرلمان القديم فقد اتهموا بالخيانة العظمى .

ورفض مجلس اللوردات أن يحكم فى هذا الموضوع ، فاختيرت محكمة خاصة أدانت الملك وحكمت عليه بالاعدام . وفى ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، سار الملك فى هدوء خارجا من نافذة فى قصره هوايت هول الى المشنقة . وفى ذلك اليوم تصرف الشعب صاحب الكلمة العليا ممثلا فى نوابه المنتخبين ، فأعدم للمرة الأولى حاكما عجز عن أن يدرك مهمته فى دولة حديثة . وينتسب العهد الذى أعقب مقتل الملك شارل الى أوليفر كرومويل . وكان كرومويل فى اول عهده دكتاتورا لم يعترف به الشعب ، ثم اعترف به سيدا حاميا للبلاد عام ١٦٥٣ ، وقد دام حكمه خمس سنوات . وسار فى هذه المدة على سياسة أليصابات . وقد غدت أسبانيا مرة أخرى الخصم الألد لانكلترا ، بحيث أصبحت الحرب بين الاثنتين أمرا لامفر منه وواجبا مقدسا . ووضعت تجارة انكلترا ومصالح تجارها فى المكان الأول ، واصطنعت الصرامة فى دعم العقيدة البروتستانتية فى أشد صورها . وأفلح كرومويل فى تعزيز مكانة انكلترا فى الخارج ، ولكنه فشل فشلا ذريعا فى اصلاحاته الاجتماعية . فالعالم مكون من عدد من الناس قلما يتشابهون فى أفكارهم . وقد بدا أن هذا الرأى سليم حكيم بمرور الزمن ، ذلك أن حكومة تعمل لفريق واحد فى المجتمع تقوم به وتعمل من أجله لايمكن أن تدوم . لقد كان المتطهرون بلا شك قوة عظيمة عندما سعوا الى اصلاح مساوىء السلطة الملكية ، ولكن الناس ضاقوا بهم عندما أصبحوا حكام انكلترا المستبدين بأمرها .

وكان من اليسير على آل ستيوارت ان يعودوا الى عرشهم القديم بعد وفاة كرومويل عام ١٦٥٨ . ولا ريب ان الشعب البريطانى قد رحب بهم ، وعدهم مخلصين له من محنته .. ذلك أنهم وجدوا أن نير المتطهرين لا يقل فداحة عن نير الملك شارل المستبد . ووعد الشعب بأنه سوف يدين بالولاء والاخلاص لبيت ستيوارت ما أظهروا عزمهم على نسيان الحق الالهى فى الحكم الذى نادى به أبوهم الفقيد المأسوف عليه ، والاعتراف بأن البرلمان هو صاحب السلطة العليا .

وتطلب نجاح هذا النظام الجديد جيلين . على أن ملوك الاستيوارت لم يكونوا فيما يظهر قد اعتبروا بذلك الدرس الذى مر بهم ، وكانوا الى ذلك عاجزين عن أن يقلعوا عن عاداتهم القبيحة . وعاد شارل الثانى الى عرش انكلترا عام ١٦٦٠ ، وكان رفيقا ، ولكنه كان شخصا تافها . فقد تحاشى — ببلادة طبعه واصراره على اصطناع أهون الأساليب الدستورية وأيسرها ، وببراعته فى الكذب — الوقوع فى نزاع سافر مع شعبه . وقضى شارل على سلطان رجال الدين من المتطهرين بمقتضى مرسوم التوفيق الصادر عام ١٦٦٢ ، وقد اقصى جميع رجال الدين المخالفين عن عن أبرشياتهم .

ثم أصدر فى عام ١٦٦٤ القانون المعروف باسم قانون

جماعة المعتزلين(Conventicle Act)حاول فيه منع المنشقين من حضور الاجتماعات الدينية مهددا اياهم بالنفى الى جزائر الهند الغربية . وكان مافعله أشبه شيء بفعال ملوك سالف الزمن يوم كانوا يستمتعون بالحق الالهى فى الحكم ، وبدأ الناس يظهرون ما أثر عنهم من أمارات الغضب . ولقى البرلمان فجأة مشقة فى تزويد الملك بالاعتمادات المالية اللازمة . ولما رأى شارل أنه لايستطيع الحصول على مال من برلمان يأباه عليه ، لجأ الى اقتراض المال سرا من جاره وابن عمه لويس ملك فرنسا ، فخان بذلك حلفاءه البروتستانت مقابل ٢٠٠ الف جنيه سنويا ، وسخر من رجال البرلمان الساذجين .

وكان من امر استقلال الملك فى تدبير المال ان اكسبه ثقة عظيمة فى قوته وبأسه . وكان شارل قد قضى سنوات كثيرة من منفاه بين عشيرته من الكاثوليك ، فكان لذلك يضمر الميل لعقائدهم . ولعله كان يحس بأن فى مكنته العودة بانكلترا الى أحضان كنيسة روما، فقد أصدر اعلانا بالغفران أوقف به القوانين القديمة التى سنت ضد الكاثوليك والمنشقين ، وحدث ذلك فى الوقت نفسه الذى قيل فيه ان اخاه الاصغر جيمس قد اعتنق المذهب الكاثوليكى . وكان كل ذلك مريبا فى نظر الشعب ، فبدأ يتوجس من ان يكون البابا يحيك خيوط مؤامرة فظيعة ، ومن ثم ساد القلق فى البلاد . وكان معظم الناس يرغبون فى الحيلولة دون نشوب حرب اهلية أخرى ، فقد كانوا يفضلون الاستبداد الملكى ووجود ملك كاثوليكى فى الحكم ، بل كانوا يؤثرون ان يتمتع هذا الملك بالحق الالهى فى الحكم على قيام فتنة جديدة بين ابناء الوطن الواحد . على أن ثمة آخرين كانوا أقل من هؤلاء تسامحا ، وهم المنشقون الذين كان الناس يخشونهم خشية شديدة ، والذين كانوا قد أوتوا جميع الأحوال الشجاعة على الجهر بعقائدهم . وكان على رأسهم عدد من أعيان الأشراف الذين كانوا راغبين عن أن يروا عودة تلك الايام التى كان فيها الملك هو صاحب السلطان المطلق .

وظل هذان الحزبان الكبيران ، وهما الأحرار (Whigs) (وهم الطبقة الوسطى الذين اشتق اسمهم هذا من الحادث الذى وقع عام ١٦٤٠ ، الاوهو قيام طائفة من سائقى الخيل الايقوسيين بزعامة رجال الدين البرسبيتيريين بالمسير الى ادنبرة لمناهضة الملك) والمحافظون (Tories) (وهو لقب كان فى الاصل يعير به الايرلنديون من أنصار الملك ، ولكنه يطلق الآن على أنصار الملك انفسهم) قرابة عشر سنوات يعارض كل منهما الآخر ، ولكن كان كل من الحزبين راغبا عن دفع الامور الى حد احداث ازمة فى البلاد ، فكان أن تركوا الملك شارل الثانى يموت آمنا فى سريره ، وسمحوا لجيمس الثانى الكاثوليكى بأن يخلف أخاه على العرش عام ١٦٨٥ ، ولكن جيمس روع البلاد باتخاذه تلك البدعة الأجنبية المفزعة : الا وهى انشاء جيش دائم يتولى قيادته فرنسيون كاثوليك ، ثم أصدر تصريحا ثانيا بالغفران عام ١٦٨٨ ، وامر بتلاوته فى جميع الكنائس الانجليكانية ، فتجاوز بعض التجاوز ذلك الحد المعقول الذى لايمكن أن يتجاوزه الا أحب الملوك لدى الشعب فى الظروف الاستثنائية الخطيرة . ورفض سبعة أساقفة الاستجابة لقرار الملك ، فاتهموا بالتمرد وحوكموا ، ولكن هيئة المحلفين حكمت ببراءتهم فنالت بذلك رضا الناس واستحسانهم الكبير .

وفى هذه الآونة غير المواتية أعقب جيمس ولدا من زوجته الثانية ماريا الكاثوليكية سليلة بيت مودينا استه ، وكان معنى ذلك أن العرش سوف يؤول الى صبى كاثوليكى لا الى اخت من أختيه مارى وآن اللتين كانتا على المذهب البروتستانتى . فأخذ الشك يدب مرة أخرى فى نفوس الناس ، لان زوجة جيمس — ماريا مودينا — كانت أسن من أن تلد البنين ، فتساءلوا أيكون ذلك كله طرفا من أطراف دسيسة مدبرة ؟ . وجرى على الألسن أن قسايسوعيا أحضر هذا الغلام الغريب الى القصر الملكى لكى يؤول عرش انكلترا الى ملك كاثوليكى . ونمت الشائعات على هذا النحو ، وبدا ان الجو ينذر بنشوب حرب اهلية أخرى . وعند ذلك كتب سبعة من مشاهير الأحرار والمحافظين طلبا يسألون فيه زوج مارى ابنة جيمس الكبرى — وهو وليم الثالث راس الجمهورية الهولندية — أن يحضر الى انكلترا ليخلص البلاد من ملكها الذى أنكره الناس انكارا وان كان هو الحاكم الشرعى للبلاد .

ونزل وليم أرض انكلترا عند توربى فى الخامس من شهر نوفمبر عام ١٦٨٨ ، ولكنه لم يشأ ان يضحى بحميه فساعده على الفرار آمنا الى فرنسا . وفى ٢٢ يناير سنة ١٦٨٩ دعا البرلمان الى الاجتماع . وفى ١٣ فبراير من العام نفسه نودى به وبزوجه مارى ملكا وملكة على انكلترا ، وبذلك مهد الطريق للمذهب البروتستانتى .

ورغب البرلمان فى أن يكون شيئا اكثر من مجرد هيئة استشارية للملك ، فاستغل الفرص التى اتيحت له الى أقصى حد ، ونبش السجلات المهجورة حتى

أخرج عريضة الحقوق القديمة التى يرجع تاريخها الى عام ١٦٢٨ ، وقدم وثيقة حقوق أخرى أشد من الأولى تقضى بأن يكون ملك انكلترا من أتباع الكنيسة الانجليكانية . ولم تكتف هذه الوثيقة بذلك ، بل نصت على أنه ليس من حق الملك ايقاف العمل بالقوانين ، أو أن يسمح لبعض المواطنين من أصحاب الامتيازات بالخروج عن طاعة قوانين بعينها . ونصت أيضا على أنه لا تجبى ضرائب أو يقام جيش دون موافقة البرلمان . ومن ثم فقد أتيح لانكلترا فى عام ١٦٨٩ أن تحصل على قدر من الحرية لم يكن لدولة أوربية أخرى به عهد .

ولم يخلد حكم وليم لانكلترا بهذه الخطوة العظيمة فى سبيل الحرية فحسب ، بل خلد أيضا بما تم فى عهده من قيام أول حكومة مسئولة . والحق أنه مامن ملك يستطيع أن يحكم وحده ، فهو فى حاجة الى عدد قليل من أصحاب المشورة المخلصين . وقد كان لملوك التيودور مجلسهم الكبير الذى كان يتألف من النبلاء ورجال الدين . وقد تضخم هذا المجلس ، فضيق نطاقه حتى أصبح يعرف باسم « المجلس الخاص » القليل العدد . وبمضى الزمن نشأت سنة اجتماع الملك بهؤلاء المشيرين فى احدى حجرات القصر ، ومن ثم عرفت هذه الهيئة باسم مجلس الغرفة (Cabinet Council) ثم عرفت بعد ذلك باسم الغرفة (Cabinet) أى مجلس الوزراء .

ونهج وليم نهج معظم أسلافه من ملوك الانكليز ، فاختار مستشاريه من جميع الأحزاب . فلما نما سلطان البرلمان نموا مطردا ، رأى وليم أنه يستحيل عليه أن يدير دفة السياسة فى البلاد بمساعدة المحافظين ، فى حين أن الأحرار كانوا أصحاب الأغلبية فى مجلس العموم ، لذلك أخرج المحافظين من مجلس الوزراء ، فأصبح يتألف من الأحرار وحدهم . وبعد سنوات قلائل فقد الأحرار سلطانهم فى مجلس العموم ، فرأى الملك أن سير الأمور يقتضيه أن يتخذ مستشاريه من بين زعماء المحافظين . وكان وليم الى حين وفاته عام ١٧٠٢ مستغرقا فى قتال لويس ملك فرنسا ، فصرفه ذلك عن التفرغ لحكومة انكلترا ، لذلك ترك بالفعل تصريف جميع الشئون الهامة لمجلس الوزراء . وظلت الحال على ذلك المنوال بعد أن خلفته على العرش زوجة أخيه آن . وتوفيت آن عام ١٧١٤ ، وكان أولادها السبعة عشر قد ماتوا جميعا قبلها لسوء الحظ ، فانتقل العرش الى جورج الأول سليل بيت هانوفر ، وهو ابن صوفى حفيدة جيمس الأول . وكان فى هذا الملك شىء من أخلاق أهل الريف ، فلم يكن يعرف قط كلمة انكليزية واحدة ، فتاه فى بيداء النظم السياسية الانكليزية المعقدة ، ومن ثم ترك مقاليد الأمور فى يد مجلس الوزراء ، ولم يحضر اجتماعاته التى كانت تضايقه بسبب عدم فهمه جملة واحدة مما يقول أعضاء هذا المجلس . وبهذا جرت العادة بأن يحكم مجلس الوزراء انكلترا واسكتلندا ، (التى انضم برلمانها الى برلمان انكلترا عام ١٧٠٧) دون أن يشغل الملك نفسه بتلك الامور . وكان جورج يؤثر أن يصرف جزءا كبيرا من وقته فى القارة الأوربية .

وتعاقب على رياسة مجلس الوزراء خلال حكم جورج الأول وجورج الثانى طائفة من زعماء الأحرار ، وظل واحد منهم ، وهو السير **روبرت والپول** ، فى دست الوزارة واحدا وعشرين عاما . واعترف بزعيم الأحرار آخر الأمر زعيما رسميا لحزب الاغلبية فى البرلمان الى جانب رياسته للوزارة . وقد حاول جورج الثالث أن يستعيد زمام الأمور ، ولا يترك مباشرة شئون الحكم لمجلس الوزراء ، فكانت عاقبة محاولته وخيمة ... فلم يحاولها أحد من بعده .

ونخرج من هذا بأن انكلترا كانت منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر تستمتع بحكومة نيابية ووزارة مسئولة تدير شئون البلاد . على أن تحرى الحق كاملا غير منقوص يقتضينا أن نقول ان هذه الحكومة لم تكن تمثل جميع طبقات المجتمع الانكليزى ، فلم يكن حق التصويت فى الانتخاب ممنوحا الا لأقل من واحد من اثنى عشر من الرجال البالغين . على أن تلك الحكومة كانت الأساس الذى قامت عليه الحكومة النيابية الحديثة ، فقد انتقل السلطان فى هدوء ونظام من يد الملك الى أيدى جماعة من ممثلى الأمة يزداد عددهم باطراد .

ولم تفىء هذه الحكومة النيابية السعادة الكبرى على انكلترا ، ولكنها حفظتها من معظم الشورات التى كانت وبالا على القارة الأوربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .



أما فى فرنسا فقد استمر حق الملوك المقدس فى الحكم قائما ، وزاد فخامة وبهاء عما كان عليه .

ولم يجد من أطماع الملك ألا السنة التى استخدمت فى تلك الأيام الا وهى توازن القوى

وليسمح لى القارىء أن أقص عليه – على سبيل المقابلة كما ذكرت فى الفصل السابق – الحوادث التى وقعت فى فرنسا خلال السنوات التى كان فيها الشعب الانكليزى يقاتل فى سبيل حريته . فالمشاهد أن التاريخ قلما يجود برجل صالح فى أمة صالحة فى زمن موات . على أن **لويس** قد بلغ هذه الغاية بالنسبة لفرنسا ، ولو أن سائر بلاد أوربا كانت خليقة بأن تكون أسعد حالا بدونه . فقد كانت الدولة التى استدعت هذا الملك الشاب ليتسنم عرشها أعمر بلاد الأرض وأزهرها فى تلك الأيام . تولى لويس عرش فرنسا ، وكان الكاردينالان العظيمان **ريشيليو** و **مازران** قد فرغا وشيكا من صهر مملكة فرنسا القديمة،وجعلاها أحكم الدول مركزية فى القرن السابع عشر .

ولقد كان لويس نفسه رجلا أوتى مقدرة خارقة ، ولا زلنا نحن أهل القرن العشرين تحيط بنا ذكريات عهده المجيد ، عهد « الملك الشمس » . ذلك أن حياتنا الاجتماعية تقوم على تلك الشمائل التى اكتملت فى بلاط **لويس الرابع عشر** ، وذلك الأسلوب الرشيق فى التعبير الذى رقى اليه ذلك البلاط . وما زالت اللغة الفرنسية فى ميدان الصلات الدبلوماسية والدولية ، هى اللغة الرسمية المستعملة فى المؤتمرات السياسية والاجتماعات الدولية ، ذلك أنها بلغت منذ قرنين من جودة اللفظ ورشاقة التعبير وسلامته مبلغا لم تستطع لغة أخرى أن ترقى اليه . ولا يزال مسرح الملك لويس يلقننا دروسا لا نتفهمها الا فى بطء شديد . وقد احتلت « الاكاديمية » الفرنسية التى استحدثها ريشيليو مكانة فى عالم الأدب حملت الامم الاخرى على تملقها بانشاء « أكاديميات » على غرارها . ويقتضينا تعداد آثار لويس فى هذا الباب عدة صفحات أخرى . وليست الصدفة وحدها هى التى جعلت قائمة الطعام فى أيامنا هذه تكتب بالفرنسية ، فقد مورس فن الطهو المستساغ ، ذلك الفن العويص الذى يعد من أعظم آيات الحضارة ، ارضاء لهذا الملك الخطير . وكان عصر لويس الرابع عشر عصر أبهة وجلال . ولا نزال نتعلم من بدائعه الشىء الكثير .

ومما يؤسف له أن هذه الصورة الزاهية لها جانب آخر معتم ، فقد جرت سنة الاحوال بأن مجد الدولة الذى تحرزه فى الخارج يقترن فى كثير من الاحوال ببؤس يرين عليها فى الداخل ، ولم تشذ فرنسا عن هذه السنة . لقد خلف لويس الرابع عشر أباه على عرش فرنسا عام ١٦٤٣ ، وتوفى عام ١٧١٥ ، ومعنى ذلك أن مقاليد الحكم فى فرنسا ظلت فى يد رجل واحد فقط مدة اثنين وسبعين عاما ، اى نحو جيلين تقريبا .

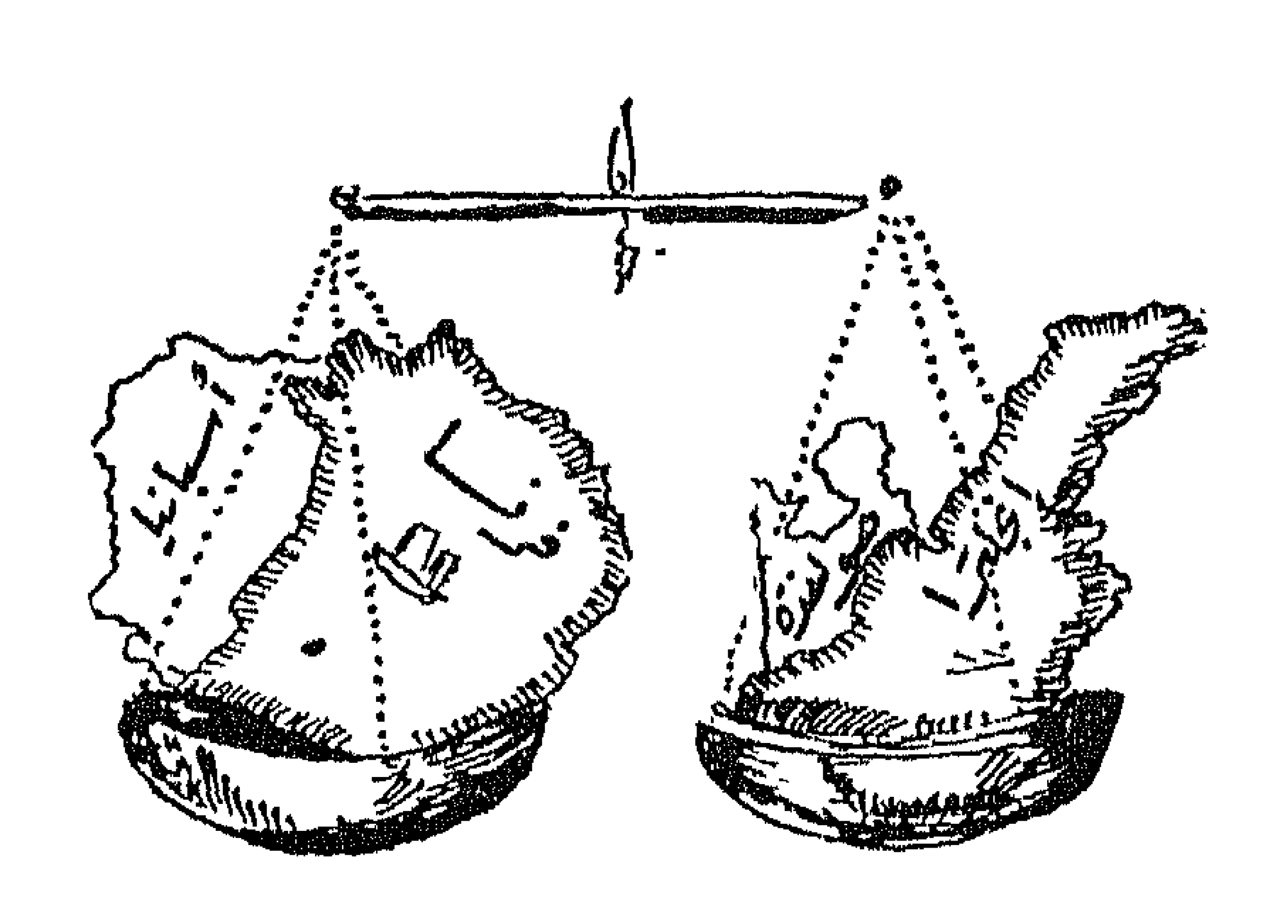
ومن الخير أن نتفهم جيدا هذه العبارة الا وهى « رجل واحد فقط » . كان لويس رأس قائمة طويلة من الملوك الذين انشأوا فى عدة دول تلك الصورة الخاصة من صور حكم الفرد التى تتميز بالكفاية والمقدرة العظميين ، والتى نسميها « حكومة استبدادية متنورة » . ذلك أن لويس لم يكن من طراز أولئك الملوك الذين كانوا يلهون بالحكم ، ويجعلون شئون الدولة أشبه شىء برحلة بهيجة . فقد كان ملوك هذا العصر المتنور يعملون أكثر مما يعمل اى فرد من رعاياهم ، يستيقظون قبل أن يستيقظ غيرهم ، وينامون بعد أن ينام سائر أفراد الشعب . ذلك أنهم كانوا يشعرون بعظم مسئوليتهم المقدسة ، شعورهم بالحق الالهى فى الحكم الذى خول لهم البت فى الامور دون أن يستشيروا رعاياهم .

وكان الملك بطبيعة الحال لا يستطيع أن يباشر بنفسه كل شأن من الشئون ، فلم يكن يجد بدا من أن يحيط نفسه بعدد قليل من المعاونين وأصحاب المشورة ، وحسبه قائد أو قائدان وبعض الخبراء فى السياسة الخارجية ونفر من البارعين فى شئون المال والاقتصاد . ولكن هؤلاء الأعيان جميعا لم يكونوا يستطيعون ابرام اى شىء الا باسمه ، ذلك أنهم لم يكونوا يقومون بذواتهم . وكان الملك فى نظر جمهور الشعب الرجل الذى تتمثل فى شخصه المقدس حكومة الدولة . وأصبح مجد الدولة هو مجد أسرة حاكمة واحدة ، ومن ثم فهى النقيض الصريح للمثل الديمقراطى فى الحكم . لقد كان الحكم فى فرنسا للبوربون يباشرونه بأنفسهم ولمصلحتهم .

ومساوىء هذا النظام واضحة بينة ، فالملك قد اصبح هو كل شيء ، وغدا كل من عداه لا يساوون شيئا . وقد أجبر الملك طبقة النبلاء القديمة النافعة على التخلي عن نصيبها السابق فى حكم الاقاليم تدريجا . فأخذ يقوم بالعمل الذى كان موكولا الى الشريف الاقطاعى قبل ذلك بمائة عام موظف ملكى صغير تلطخت أصابعه بالمداد ، وجلس وراء النوافذ المخضرة لبناية حكومية فى أرباض باريس البعيدة . ولما وجد هذا الشريف نفسه خاليا من كل عمل رحل الى باريس لينعم ما وسعه بالحياة فى البلاد . وسرعان مابدأت ضياعهم تقاسي من تلك الآفة الاقتصادية الخطيرة المعروفة بغياب صاحب الملك . وما انقضى على ذلك قرن واحد حتى كان الحكام الاقطاعيون النافعون المجدون قد أصبحوا تلك الطائفة من طفيليي فرساى أصحاب الشمائل المهذبة ، وان كان لايرجى من ورائها نفع ولا خير .

كان لويس فى العاشرة من عمره عندما عقد صلح وستفاليا ، وفقد آل هبسبورج سيادتهم على أوربا نتيجة لحرب الثلاثين سنة . ولم يكن ثمة بد من ان يستغل رجل له اطماح لويس الرابع عشر هذه الفرصة المواتية ليكسب لأسرته الامجاد التى كانت من قبل لآل هبسبورج . وفى عام ١٦٦٠ تزوج لويس من ماريا تريزا ابنة ملك اسبانيا . وبعد ذلك بقليل توفى حموه فيليب الرابع ، وكان من معتوهى الاسبان من بيت هبسبورج ، فطالب لويس من فوره بالجزء الاسبانى من الأراضى المنخفضة (بلجيكا) باعتباره جزءا من صداق زوجته .

وكان استيلاء لويس على هذه البلاد قمينا بأن يهدد امن أوربا بالخطر ، ويهدد كذلك أمن الدول البروتستانتية . وكان من نتيجة ذلك أن تكون الحلف الثلاثى بين السويد وانكلترا وهولندا عام ١٦٦٤ تحت زعامة جان ده ويت وزير خارجية ولايات الأراضى المنخفضة السبع المتحدة . وكان هذا الحلف أول حلف دولى كبير . ولم يدم هذا الحلف طويلا ، فقد استطاع لويس بماله ووعوده المعسولة أن يستميل الملك شارل والولايات السويدية . وتخلى عن هولندة حلفاؤها وتركوها تلاقى مصيرها . وفى عام ١٦٧٢ أغارالفرنسيون على الأراضى المنخفضة وأوغلوا فيها ، وفتحت السدود للمرة الثانية ، وغربت شمس الملكية الفرنسية وسط وحول المستنقعات الهولندية ، ولم يحسم صلح نمويجن الذى عقد عام ١٦٧٨ اى سبب من أسباب النزاع ، ولكنه لم يعد



ميزان القوى

أن يكون تمهيدا لحرب أخرى .

وشبت حرب عدوانية اخرى مابين عامى ١٦٨٩ ــ ١٦٩٧ انتهت بصلح رسويك ، ولكن هذا الصلح ايضا لم يكسب لويس المكانة التى كان يتطلع اليها فى اوربا . لقد قتل الغوغاء الهولنديون خصمه القديم جان ده ويت ، على ان خليفته وليم الثالث ــ الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق ــ قضى على جميع مجهودات لويس التى كانت ترمى الىجعل فرنسا سيدة أوربا .

ونشبت الحرب الكبرى الخاصة بالوراثة الاسبانية عام ١٧٠١ بعد وفاة شارل الثانى آخر ملوك اسبانيا من بيت هبسبورج ، وانتهت عام ١٧١٣ بصلح أوترخت... الا أن هذهالحرب لم تحسمايضاأسباب النزاع ، وأن كانت قد استنفدت خزائن لويس . صحيح ان الملك الفرنسى قد انتصر فى البر ، ولكن اساطيل انكلترة وهولندة قضت على كل امل فى أن يحرز الفرنسيون نصرا حاسما . ثم ان هذا النزاع الطويل قد بعث مبدأ جوهريا فى ميدان السياسة الدولية ، وهو المبدأ الذى جعل من المستحيل أنتقوم دولة واحدة فى المستقبلبحكمأوربا بأسرها ، أو العالم بأسره ، أية فترة من الزمن .

وكان هذا المبدأ هو المبدأ الذى عرف باسم « توازن القوى » ، وهو لم يكن قانونا مكتوبا ، ولكنه ظل ثلاثة قرون مرعيا تماما ... شأنه فى ذلك شأن القوانين الطبيعية . فقد قرر أولئك الذين ابدعوا هذه الفكرة أن أوربا فى مرحلة تطورها القومى لا يمكن أن تعيش الا اذا كان هناك توازن مطلق بين المصالح الكثيرة المتضاربة لدول القارة الاوربية بأسرها . ويجب الا يسمح لدولة بمفردها ، أو أسرة حاكمة دون سواهاأن تسيطر على غيرها . وكانت أسرة هبسبورج

خلال حرب الثلاثين سنة ضحية الأخذ بهذا المبدأ . على أنهم لم يحسوا بأنهم كانوا ضحية ، ذلك أن العواقب التى كانت معلقة فى الميزان خلال هـذه الحرب كان يغشاها دخان النضال الدينى الى حد اننا لانستطيع أن نتبين الاتجاهات الكبرى لهذا النضال الكبير . على أننا بدأنا منذ ذلك الوقت نرى كيف تسود الاعتبارات والتقديرات الاقتصادية السليمة كل المسائل الدولية ذات الشأن ، ونتبين ظهور ذلك الطراز الجديدمن السياسيين الذين فطروا على النظر الى الامور نظرة المحاسب الدقيق والصيرفى الخبير . . وكان **جان ده ويت** أول معبر ناجح عن هذه المدرسة الجديدة بين السياسيين . وكان وليم الثالث أول تلميذ نابه من تلاميذ هذه المدرسة . أما لويس الرابع عشر فكان مع كل ما نال من شهرة ومجد أول ضحية لهذه السياسة عن علم ومعرفة . . وما أكثر ضحايا هذا المذهب من بعده !

قيام روسيا

قصة الامبراطورية المسكوفية المحاطة بالأسرار التى انبعثت فجأة على مسرح السياسة الاوربية الكبير

اكتشفت كولومبس — كما تعلمون — قارة أمريكا عام ١٤٩٢ . وفى مستهل هذا العام خرج رجل من اهل التيرول يدعى **شنبس** على رأس بعثة علمية أعدها رئيس أساقفة التيرول ، مزودا بأطيب خطابات التوصية وبالأموال الوفيرة ، وحاول أن يبلغ مدينة موسكو التى تردد ذكرها فى الاساطير . واخفق

موسكو

شنبس فى بلوغ غرضه ، ذلك أنه عندما وصل الى تخوم دولة المسكوف المترامية الاطراف التى كان الناس يفترضون أنها تقوم فى الطرف الأقصى لاوربا الشرقية ، رد على أعقابه فى حزم ، لأنه لم يكن يسمح لأحد من الاجانب بالدخول الى هذه البلاد . فشخص شنبس الى الآستانة لزيارة الترك فيها عساه يتزود بشىء ينبىء به مولاه كبير الأساقفة متى عاد من رحلته الكشفية .

وبعد ذلك باحدى وستين سنة حاول **رتشارد تشانسلور** الكشف عن الطريق الشمالى الشرقى الى جزائر الهند الشرقية ، ولكن رياحا شديدة أطاحت به الى البحر الأبيض (White Sea) فبلغ مصب نهر دوينا ، وشاهد قرية خلمجورى المسكوفية ، وهى على مسيرة ساعات قلائل من البقعة التى أنشئت فيها مدينة اركانجل عام ١٥٨٤ . وفى هذه المرة طلب المسكوف من هؤلاء الزوار الأجانب الذهاب الى موسكو ليحظوا بالمثول بين أيدى الدوق الأكبر ، فذهبوا الى موسكو، ثم عادوا الى انكلترا ومعهم أول معاهدة تجارية عقدت بين الروسيا والعالم الغربى . وبادرت دول أخرى بانتهاج هذا السبيل ، وبذلك تيسرت معرفة بعض الاخبار عن هذه البلاد العجيبة .

والروسيا من الناحية الجغرافية سهل واسع الاطراف ، كما أن جبال الاورال المنخفضة لا تقوم حاجزا يرد عادية المغيرين ، أما أنهارها فعريضة ولكنها ضحلة فى كثير من الاحيان ، ومن ثم كانت خير البلاد صلاحية للبدو .

ففى الوقت الذى قامت فيه الامبراطورية الرومانية وعظم سلطانها ثم اختفت من عالم الوجود ،

كانت القبائل الصقلبية التى تركت موطنها الاصلى فى أواسط آسيا منذ عهد بعيد ، قد أخذت تهيم على وجهها فى الغابات والسهول بين نهرى الدنيستر والدنيبر . وقد التقى اليونانيون فى بعض الأحيان بهذه القبائل الصقلبية ، كما جاء ذكرهم على لسان رحالة القرنين الثالث والرابع الميلاديين . على أننا لانعرف فيما عدا ذلك الا أخبارا قليلة لاتتجاوز ماعرفناه عن هنود النيقادا عام ١٨٠٠ .

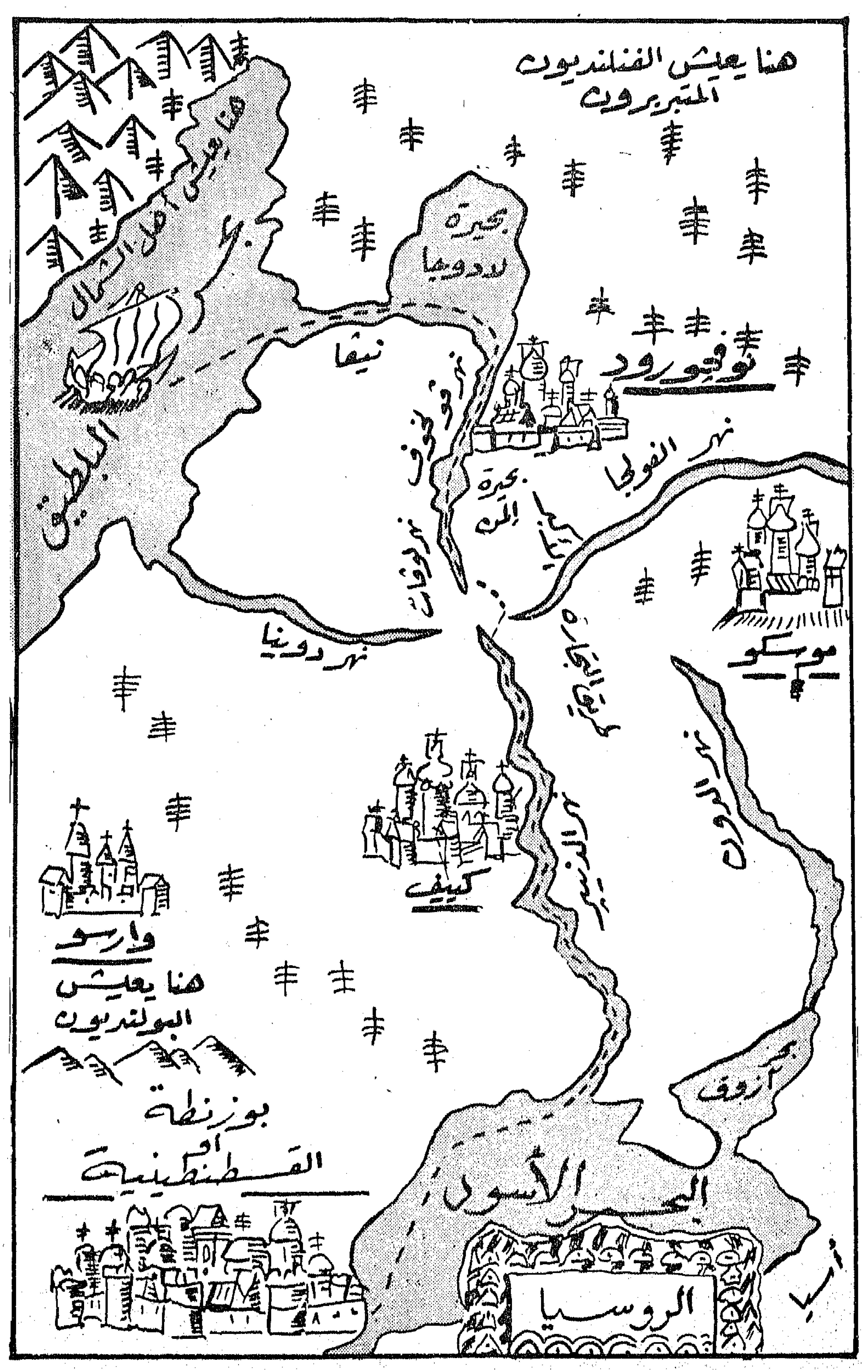
وقد تزعزع أمن هذه الشعوب البدائية ، اذ كان يخترق بلادها طريق تجارى ميسر كل التيسير ، وهو الطريق الرئيسى الذى كان يصل ما بين شمالى أوربا والقسطنطينية . وكان هذا الطريق يساير شاطىء البحر البلطى حتى **نيقا** ثم يعبر بحيرة لادوجا ويتجه جنوبا على طول نهر فلخوف ، ثم يعبر بحيرة الن ونهر لوفات الصغير ، ثم يسير مرحلة قصيرة حتى نهر الدنيبر ، ثم يهبط مع الدنيبر حتى البحر الاسود . ولقد عرف أهل الشمال هذا الطريق منذ عهد سحيق ، وأخذوا منذ القرن التاسع يستوطنون روسيا الشمالية ، كما أخذ غيرهم من أهل الشمال يضعون اسس دويلات جديدة مستقلة فى المانيا وفرنسا . وفى عام ٨٦٢ عبر ثلاثة أخوة من أهل الشمال البحر البلطى وكونوا ثلاث أسر حاكمة صغيرة . ولم يعمر من هؤلاء الأخوة طويلا الا **روريك** ، فاستولى على ممتلكات أخويه . وبعد مرور عشرين سنة من وصول روريك أول اهل الشمال ، كانت قد قامت دولة صقلبية عاصمتها كييف .

والمسافة من كييف الى البحر الاسود قصيرة ، ومن ثم سرعان ما علم أهل القسطنطينية بوجود هذه الدولة الصقلبية المنظمة ، وكان ذلك معناه ظهور مجال جديد امام المبشرين المسيحيين المتحمسين . ولهذا نجد الرهبان البوزنطيين يسيرون شمالا من الدنيبر ، وسرعان ما بلغوا قلب روسيا . وهناك وجدوا الناس يعبدون آلهة غريبة ذهبوا الى أنها تسكن الغابات والأنهار وكهوف الجبال . فأخذ المبشرون يقصون عليهم قصة عيسى . ولم يكن ينافسهم فى هذا الميدان المبشرون الرومانيون ، فقد كان هؤلاء الرجال الطيبون منهمكين فى تعليم التيوتون الوثنيين ، فلم يهتموابهؤلاء الصقالبة البعيدى الدار ، وبذلك تلقت روسيا دينها وأبجديتها وآراءها الأولى فى الفن والعمارة من الرهبان البوزنطيين . وقد كانت الامبراطورية البوزنطية ، وهى أثر من آثار الامبراطورية الرومانية الشرقية ، قد غلبت عليها الصفة الشرقية ، وفقدت كثيرا من سماتها الاوربية ، ومن ثم كانت البلية التى أصابت الروس .

ولم تكن عاقبة هذه الدول الجديدة التى قامت فى سهول روسيا الواسعة حسنة من الناحية السياسية ، ذلك أن أهل الشمال جروا على تقسيم كل ارث بين الأبناء بالتساوى . فما أن تقوم دولة صغيرة حتى تقسم بين ثمانية أو تسعة من الوارثين ، وهؤلاء يورثون أراضيهم لعدد مطرد الزيادة من الأحفاد ، ومن ثم لم يكن مناص من نشوب النضال بين هذه الدويلات المتنافسة . وكانت الفوضى هى سنة تلك الأيام ، فما ان كانت تلوح النذر فى الأفق الشرقى ، منبئة اهل الشمال بقرب هبوب ريح غزوة ، حتى كانت تلك الدول الصغيرة تجد نفسها ضعيفة مقسمة لاحيلة لها فى دفع هذا العدو المخيف . وقد حدثت أول غزوة تترية كبرى عام ١٢٢٤ ، اذ ظهرت فى الغرب لأول مرة جحافل جنكيزخان فاتح الصين وبخارى وطشقند والتركستان . وحلت الهزيمة بجيوش الصقالبة بالقرب من نهر كلكه ، واصبحت روسيا تحت رحمة المغول . واختفى التتر فجأة ، على أنهم عادوا أدراجهم بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ، أى عام ١٢٣٧ . وقد تمكنوا فى أقل من خمس سنوات من غزو كل ناحية من نواحى سهول روسيا المترامية الأطراف . وظل الحال على هذا المنوال الى أن حل عام ١٣٨٠ ، فأنزل بهم **ديمترى دنسكوى** دوق موسكو الأعظم ، الهزيمة فى سهول كوليكوڤو .

ومهما يكن من شىء فان الروس لم يستطيعوا رفع نير التتر عن كاهلهم الا بعد سعى دام قرنين من الزمان ، ذلك ان هذا النير كان فادحا شديد الوطأة تأباه النفوس ، وكان من شأنه أن نزل بالفلاحين الصقالبة الى مرتبة العبيد البائسين ، فلم يكن ثمة أمل لأى روسى فى البقاء الا اذا رضى بأن يجثو خاضعا أمام رجل مغولى قمىء قذر قد اقام فى خيمة ضربها فى مكان من قلب فيافى روسيا ، وقبل أن يبصق هذا الرجل فى وجهه . وقد جرد ذلك الشعب الروسى من كل شعور بالكرامة والاستقلال . واصبح يغلب على الناس الجوع والبؤس وسوء المعاملة وتحمل الاساءة ، وانتهى الأمر بأن أصبح الروسى ، سواء أكان فلاحا أم نبيلا ، يباشر عمله كالكلب الضال الذى توالى عليه الضرب حتى انكسر قلبه وعاد لايجسر على أن يبصبص بذنبه الا اذا أذن له بذلك .

ولم يكن هناك مفر من هذه الحال لأن فرسان خان التتر كانوا خفافا سراعا لايعرفون الرحمة . ولم تكن



هنا يعيش الفنلنديون
المتبربرون
هنا يعيش أهل الشمال
البلطيق
بحيرة
لادوجا
نيفا
نهر فولخوف
نوفجورود
بحيرة
إلمن
نهر الفولجا
نهر لوفات
نهر دوينا
موسكو
طريق التجارة
نهر الدون
نهر الدنيبر
كييف
وارسو
هنا يعيش
البولنديون
بوزنطة
أو
القسطنطينية
بحر آزوف
البحر الأسود
الروسيا
آسيا

أصل روسيا

البرارى المترامية الأطراف تتيح لأحد من الروس اجتيازها حيث يأمن على نفسه فى بلاد أخرى تجاور بلاده ، فكان لامناص له من التزام السكينة ، واحتمال مايرميه به سيده الأصفر ، ويعرض نفسه لخطر الموت . وكان من الممكن أن تتدخل أوربا فى هذا الشأن ، ولكنها كانت مشغولة بأمر نفسها تخوض غمار الحروب التى نشبت بين البابا والامبراطور ، أو باخماد مايبدو من نزعات المارقين ، ولذلك تركت أوربا الصقالبة يلاقون مصيرهم ، وحملتهم على أن يلتمسوا بأنفسهم سبيل الخلاص .

وقيض لروسيا الخلاص آخر الأمر على يد امارة صغيرة من الامارات التى أسسها حكام أهل الشمال المتقدمون ، وكانت هذه الامارة فى قلب السهل الروسى وعاصمتها موسكو ، وهى على تل منحدر على ضفاف نهر موسكوفا . وكانت هذه الامارة الصغيرة تسترضى التتر اذا رأت ان الظروف تقتضي ارضاءهم ، وتخاشنهم اذا لم تر فى ذلك مايهدد سلامتها .

واصبحت بذلك زعيمة الحياة الروسية الوطنية الجديدة خلال منتصف القرن الرابع عشر . ويجب الا يغيب عن بالنا أن التتر كانوا مفتقرين كل الافتقار الى القدرة السياسية المنشئة ، ذلك أنهم لم يكونوا يستطيعون التدمير فحسب ، بل كان همهم الأول غزو أراض جديدة تدر عليهم المال . وكان حصولهم على المال عن طريق ضرائب يفرضونها يقتضيهم الابقاء على بعض آثار النظم السياسية القديمة . ومن ثم أبقى الخان الاعظم على كثير من المدن الصغيرة ليقوم أهلها بمهمة جمع الضرائب وسرقة جيرانهم لملء خزائن التتر .

ولقد ارتوت امارة موسكو وشبعت على حساب البقاع المحيطة بها ، وبلغت آخر الامر من البأس مامكنها من أن ترفع راية العصيان فى وجه أسيادها التتر . ونجحت فى ذلك ، وأصبحت بفضل شهرتها بوصفها زعيمة الحركة الاستقلالية الروسية المركز الطبيعى لجميع اولئك الذين كانوا لايزالون يؤمنون بمستقبل سعيد ينتظر الجنس الصقلبى .

واستولى الترك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وبعد ذلك بعشر سنوات عمدت موسكو فى عهد ايفان الثالث الى ابلاغ العالم الغربى أن الدولة الصقلبية تطالب بميراثها الدنيوى والروحى الذى خلفته الامبراطورية الرومانية الزائلة ، وبما بقى من تقاليد الامبراطورية الرومانية فى القسطنطينية . وبعد ذلك بجيل من الزمان ، بلغ دوقات موسكو العظام فى عهد ايفان الهائل من القوة والبأس ما جعلهم يتخذون لانفسهم لقب القياصرة ، ويطالبون دول أوربا الغربية بالاعتراف بهم .

وتوفى فيودور الأول عام ١٥٩٨ ، فانتهى بذلك البيت المسكوفى القديم الذى كان أفراده من سلالة روريك الذى كان من أهل الشمال الاصليين . وتولى العرش خلال السنوات السبع التالية تترى مولّد يدعى **بوريس جودونوف** ، وتلقب بقيصر . وفى هذه الفترة تقرر مصير جماهير الشعب الروسى الفقيرة .

كانت هذه الامبراطورية غنية بأراضيها ، فقيرة كل الفقر بأموالها ، فلم تكن لها تجارة ، ولم يكن فيها مصانع . وكانت مدنها القليلة قرى قذرة . وكان قوام هذه الامبراطورية حكومة مركزية قوية وعدد كبير من الفلاحين الأميين . وكان يهيمن على هذه الحكومة خليط من الصقالبة وأهل الشمال والبوزنطيين والتتر ، ومن ثم لم تكن تعرف الا مصلحة الدولة فحسب . ورات أن الدفاع من هذه الدولة يتطلب جيشا ، كما أن جمع الضرائب التى كانت لازمة لدفع أعطيات الجند ، كان يقتضى وجود عدد من الموظفين المدنيين ، ولا يستطاع دفع أجور هذا العدد الكبير من الموظفين الا اذا توافرت الأرض ، وكان فى البرارى المترامية الاطراف التى فى الشرق والغرب مورد كاف يسد هذه الحاجة ، ولكن الأرض لاغناء فيها الا اذا تيسر لها عدد قليل من العمال يفلحون حقولها ويرعون ماشيتها ، ومن ثم جرد الفلاحون الرحل القدماء من امتيازاتهم الواحد بعد الآخر ، ثم انتهى الامر بأن جعلتهم الدولة خلال السنة الاولى من القرن السادس عشر جزءا من الارض التى يعيشون عليها ، فأصبحوا رقيق أرض ، وظل هذا حالهم حتى عام ١٨٦١ ، وفيه اظلم مصيرهم وعظم خطبهم حتى أشرفوا على الموت .

وفى القرن السابع عشر غدت هذه الدولة الجديدة بفضل اتساع أراضيها المطرد ، وسرعة امتدادها وايغالها فى سيبيريا ، قوة حملت سائر أوربا على أن يحسب حسابها . وفى عام ١٦١٣ ، اى بعد وفاة بوريس جودونوف ، انتخب النبلاء الروس واحدا منهم قيصرا ، وكان هذا القيصر هو ميشيل ابن فيودور من أسرة رومانوف بموسكو ، وكان يعيش فى بيت صغير فيما وراء الكرملين مباشرة .

وفى عام ١٦٧٢ ولد حفيده بطرس ، وهو ابن شخص آخر يدعى فيودور . ولما بلغ هذا الصبى العاشرة من عمره استولت صوفيا أخته غير الشقيقة

على العرش . وسمح لهذا الصبى أن يقضى وقته فى ضواحى موسكو حيث يعيش الاجانب . وكانت تحيط به حاشية من الخمارين الاسكتلنديين والتجار الهولنديين والصيدليين السويسريين والحلاقين الايطاليين ومعلمى رقص من الفرنسيين ومعلمين من الالمان ، ومن ثم تلقى هذا الامير الشاب فكرة أولى ، وان تكن عجيبة ، عن أوربا القاصية المحجبة بالاسرار التى كانت الامور فيها تسير سيرا يختلف عما ألفه هذا الامير .

ولما بلغ بطرس السابعة عشرة من عمره أزاح أخته صوفيا عن العرش فجأة ، وأصبح هو حاكم روسيا .

ولم يقنع بأن يكون قيصرا على شعب نصفه همجى ونصفه الآخر أسيوى ، وصح عزمه على أن يكون قيصرا على أمة متحضرة . ولم يكن تحويل روسيا من دولة بوزنطية تترية الى امبراطورية أوربية ، بالامر اليسير الذى يتم مابين يوم وليلة . بل كان ذلك يتطلب يدا قوية ورأسا مفكرا . وكانت هاتان الميزتان تتوفران فى بطرس . ففى عام ١٦٩٨ أخذ يطعم روسيا القديمة بدم أوربا الحديثة ، ولم يقض ذلك على المريض ، ولكنه لم ينج قط من هذه الصدمة . وهذا يتجلى بأجلى بيان فى الحوادث التى وقعت فى السنوات الخمس الاخيرة .

النزاع بين روسيا والسويد

خاضت روسيا والسويد حروبا كثيرة فى سبيل تقرير أينهما تكون لها السيادة على شمال شرقى أوربا

خرج القيصر بطرس عام ١٦٩٨ فى أول رحلة له الى أوربا الغربية ، فسافر عن طريق برلين ، وذهب الى هولندا ثم الى انكلترا . وقد أشرف بطرس على الغرق وهو بعد طفل يسير قاربا مصنوعا فى منزله فى بركة للبط ببيت أبيه الريفى . وظل ولعه بحوض الماء ملازما له حتى آخر حياته . وقد تجلى هذا الولع بطريقة عملية عندما أراد أن يجعل لاملاكه التى كانت

بطرس الاكبر فى حوض السفن الهولندية

تكتنفها اليابسة من كل ناحية منفذا الى البحر الفسيح .

وعمد أنصار النظام الروسى القديم بموسكو الى التخلص من جميع الاصلاحات التى قام بها ، وذلك أثناء غيبة هذا الحاكم الشاب الفظ عن وطنه . وقد شبت الفتنة بغتة بين حرسه المعروفين بكتيبة سترلتسى ، فاضطر بطرس الى العودة الى وطنه بأقصى سرعة ، وأقام نفسه على رأس جلاديهم ، فشنق رجال هذه الكتيبة ، وقطع أوصالهم ، وقتلهم عن آخرهم . أما الاخت صوفيا التى كانت على رأس هذه الفتنة ، فقد حبسها فى دير من الأديرة ، وبدا حكم بطرس فى عنفوانه . وتكرر هذا المشهد عام ١٧١٦ عندما خرج بطرس فى رحلته الثانية الى الغرب ، وانصاع المنتقضون فى هذه المرة لزعامة ابن بطرس المعتوه الكسيس . وهنا بادر القيصر الى العودة سريعا ، وضرب الكسيس فى غيابة سجنه حتى مات . وسار أنصار النظم البوزنطية القديمة آلافا من الأميال فى أراض موحشة فى طريقهم الى مقرهم الاخير بمناجم الرصاص فى سيبيريا . ولم يسخط الناس بعد ذلك سخطا يؤدى الى قيام فتنة ثالثة ، وبذلك استطاع بطرس أن يقوم باصلاحاته فى سلام حتى وافته منيته .

وليس من اليسير أن نذكر للقارىء بيانا باصلاحات بطرس حسب ترتيبها الزمنى ، فقد أخذ بطرس

يعمل بسرعة هوجاء ، ولم يكن يسير فى ذلك على نظام ، فكان يصدر مراسيمه فى عجلة يعسر تتبعها . والظاهر أن بطرس كان يشعر أن كل ماحدث قبله كان بالغ الخطأ ، فرأى أنه ينبغى أن يغير أحوال روسيا فى أقصر وقت ممكن . ولما توفى بطرس خلف وراءه جيشا حسن التدريب عدته ٢٠٠ الف مقاتل واسطولا من خمسين سفينة . وقد قضى على النظام الحكومى القديم بين عشية وضحاها ، ففض مجمع النبلاء المعروف بالدوما ، واستعاض عنه بهيئة تشد أزره تتألف من مجلس من موظفى الحكومة عرف بمجلس الشيوخ . وقسمت روسيا الى ثمانى حكومات أو ولايات ، وشقت الطرق ، وشيدت المدن. وأنشأ القيصر الصناعات كلما راق له ذلك ، دون نظر الى توافر المواد الاولية اللازمة لهذه الصناعات ، وشقت القنوات،وحفرت المناجم فى الجبال الشرقية . وأقام بطرس فى هذه البلاد التى كانت تسيطر عليها الامية المدارس ومعاهد التعليم العالى والجامعات والمستشفيات والمدارس الفنية ، وشجع المهندسين الهولنديين ورجال الصناعة وأرباب الحرف من جميع الدول على الشخوص الى روسيا ، وانشأ المطابع ، واشترط أن يقرأ رقباء الامبراطورية جميع الكتب قبل طبعها . وسن قانونا جديدا يحدد تحديدا دقيقا واجبات كل طبقة من طبقات المجتمع ، وأصدر مرسوما بابطال أزياء اللباس الروسية القديمة . وجمعت القوانين المدنية والجنائية كافة فى سلسلة من المجلدات المطبوعة . وكان رجال الشرطة المزودون بالمقصات يراقبون جميع الطرق فى الريف ، فيباغتون الفلاحين الروس ، ويشذبون شعورهم حتى يصبح منظرهم مقبولا ، جريا على سنة الاوربيين الحليقين .

أما فى المسائل الدينية فلم يسمح القيصر بأن تكون السلطة فيها موزعة مقسمة ، ورأى أنه ينبغى ألا تتاح الفرصة لقيام منافسة بين البابا والامبراطور كما حدث فى أوربا . وفى عام ١٧٢١ جعل بطرس نفسه على رأس الكنيسة الروسية ، والغى بطريركية موسكو . وتجلى المجمع المقدس فكان هو المصدر الاعلى للسلطة الدينية فى جميع مسائل العقيدة المقررة .

على أن بطرس رأى أن هذه الاصلاحات الكثيرة لايمكن أن تثمر مادامت العناصر الروسية الرجعية تجد لنفسها مأوى فى مدينة موسكو تتألب فيه عليه ، فصحت عزيمته على نقل مقر حكومته الى عاصمة جديدة . وقد شيد القيصر هذه العاصمة فى بطائح البحر البلطى الوبيئة . وأخذ يمهد الارض لانشائها عام ١٧٠٣ ، واشتغل مايقرب من أربعين الف فلاح عدة سنوات فى وضع أسس هذه العاصمة القيصرية .



بطرس الاكبر يشيد حاضرته الجديدة

وهاجم أهل السويد بطرس ، وحاولوا تدمير مدينته ، وأتى المرض والبؤس على عشرات الآلاف من المزارعين ، ولكن العمل استمر صيفا وشتاء ، وسرعان ما أخذت هذه المدينة الجديدة فى النمو . وفى عام ١٧١٢ اعلن رسميا أنها هى مقر القيصر ، وبلغ عدد سكانها بعد ذلك بنيف وعشر سنوات ٧٥ الف نسمة . وكان نهر نيفا يفيض على هذه المدينة مرتين فى العام ، ولكن القيصر كان جبارا لاتفل له عزيمة ، فأنشأ السدود والقنوات ، فلم تعد الفيضانات تلحق بها الضرر . ولما توفى بطرس عام ١٧٢٥ كان صاحب أكبر مدينة فى شمالى أوربا .

وكان من الطبيعى أن يثير هذا التوسع الفجائى ، الذى تم على يد هذا المنافس البالغ الخطر ، جيرانه جميعا . أما بطرس فكان يرقب باهتمام المغامرات الكبيرة التى أقدمت عليها مملكة السويد منافسته على البحر البلطى .

وفى عام ١٦٥٤ تركت كرستينا الابنة الوحيدة لجوستاف أدولف ، بطل حروب الثلاثين سنة ، العرش وذهبت الى روما لتعيش الى آخر حياتها كاثوليكية مخلصة . وخلف هذه الملكة التى كانت آخر ملكة من بيت ڤاسا ، ابن أخى جوستاف أدولف ، وكان على المذهب البروتستانتى . وفى عهد شارل العاشر وشارل الحادى عشر ، رقى هذا البيت الجديد بالسويد الى أوج عزها ، على أن شارل الحادى عشر توفى فجأة عام ١٦٩٧ ، فخلفه على العرش شارل الثانى عشر ، وكان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره .

وكانت تلك اللحظة هى الفترة التى يترقبها كثير

من دول الشمال . فقد نمت السويد على حساب جيرانها خلال الحروب الدينية العظيمة التى شبت فى القرن السابع عشر . وها هوذا الوقت قد حان فى نظر أولئك الجيران لمحاسبة السويد . وشبت الحرب على الفور بين الروسيا وبولندا والدانيمارك وسكسونيا ، وبين السويد ، وأنزل شارل هزيمة منكرة بجيوش بطرس التى كانت طرية العود لم تتمرس بالقتال بعد ، فى وقعة نارفا الشهيرة فى نوفمبر عام ١٧٠٠ .

وبعد ذلك تفرغ شارل ، وهو من ألمع رجال الحرب عبقرية فى ذلك القرن ـ لمحاربة أعدائه الآخرين ، فظل تسع سنوات يهدم ويحرق كل مايقع فى يده من قرى ومدن بولندا وسكسونيا والدانيمارك وأقاليم البحر البلطى . وكان بطرس فى هذه الاثناء يدرب جنوده فى روسيا البعيدة ، ومن ثم هزم المسكوف فى عام ١٧٠٩ جيوش السويد التى أنهكها التعب فى وقعة بلتاوه .

وظل شارل شخصية قوية التأثير ، فكان أشبه شىء ببطل عجيب من أبطال القصص والاساطير ، ولكنه حاول عبثا أن يثأر لنفسه وجلب الدمار على بلاده . وفى ١٧١٨ اتفق أن قتل شارل أو أغتيل ، ولا نعرف أيهما الصحيح ، وفقدت السويد فى صلح نيشتاد عام ١٧٢١ كل ماكان لها من أملاك على البحر البلطى ، ماعدا فنلندا . وأصبحت الدولة الروسية الجديدة التى أنشأها بطرس زعيمة شمالى أوربا .

ولكن كان ثمة منافس جديد لها فى طريقه الى الظهور ، ذلك أن معالم الدولة البروسية كانت قد أخذت تبدو للعيان .

قيام بروسيا

انبعاث عجيب لدولة صغيرة تعرف ببروسيا فى جزء موحش من شمالى ألمانيا

ان تاريخ بروسيا هو تاريخ اقليم من الأقاليم الواقعة على الحدود . ففى القرن التاسع نقل شارلمان المركز القديم للحضارة من البحر المتوسط الى الأقاليم الموحشة فى شمال غربى أوربا ، وأخذ جنوده من الفرنجة يبسطون حدود أوربا شيئا فشيئا ناحية الشرق ، فانتزعوا بلادا كثيرة من الصقالبة الوثنيين واللتوانيين الذين كانوا يعيشون فى السهول مابين البحر البلطى وجبال الكربات . وكان الفرنجة يحكمون هذه الأقاليم المتطرفة على النحو الذى جرت عليه الولايات المتحدة فى حكم ولاياتها قبل ان تصل الى مرتبة الدولة .

أن ولاية برندنبرج الواقعة على الحدود ، قد أسسها شارلمان بادىء ذى بدىء ، ليحمى بها ممتلكاته الشرقية من غزوات القبائل السكسونية المتبربرة . وأخضعت قبيلة الـ « وند » الصقلبية التى كانت تسكن ذلك الأقليم فى القرن العاشر ، فأصبح سوق هذه القبيلة المعروف باسم برنابور قصبة ولاية برندنبرج الجديدة ، ومنه اشتقت هذه الولاية اسمها .

وفى خلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر ، تعاقب على حكم هذه الولاية الواقعة على الحدود عدد من أسر نبيلة ، فكان أفراد هذه الاسر بمثابة ولاة عليها من قبل الامبراطور . واخيرا ظهر فى القرن الخامس عشر بيت هوهنزلرن ، وبدأوا ـ بصفتهم ناخبين لاقليم برندنبرج ـ فى احالة هذا الأقليم الرملى الموحش الواقع على الحدود ، الى امبراطورية من أقوى الامبراطوريات فى العالم الحديث .

وقد جاءت أسرة هوهنزلرن هذه بادىء الأمر ـ وهى الأسرة التى أبعدتها أوربا وأمريكا عن مسرح التاريخ ـ من جنوبى ألمانيا ، وهى من أصل وضيع جدا .

وفى القرن الثانى عشر تزوج فريدريك ، أحد أفراد هذه الاسرة ، زيجة موفقة ، واختير حارسا لحصن نورمبرج . واستغل أحفاده كل فرصة مواتية لتقوية سلطانهم . وبعد قرون عدة قضوها فى الترقب والتربص رفعوا الى منصب الناخب ، وهو اللقب الذى كان يطلق على الأمراء من الحكام الذين كان من المتوقع أن يقوموا بانتخاب اباطرة الامبراطورية الألمانية القديمة . وانضمت هذه الأسرة أثناء الاصلاح الدينى الى جانب البروتستانت ، وأصبحوا فى مستهل القرن السابع عشر من أقوى الأمراء فى شمالى ألمانيا .

وفى خلال حروب الثلاثين سنة أقبل كل من البروتستانت والكاثوليك على نهب أقليم برندنبرج وبروسيا ، وكان كلا الطرفين متحمسا فى ذلك على حد سواء .

ولكن سرعان ما أصلح هذا التلف الذى أصابهما فى عهد الناخب الاكبر فردريك وليم . وجند فردريك كل الموارد الاقتصادية والكفايات العقلية فى البلاد ، فاستطاع أن ينشىء دولة لم يترك فيها مرفقا الا

استغله استغلالا لا مجال فيه لضياع أو تبديد .

وبروسيا الحديثة دولة تلاشى الفرد فيها هو ورغباته وأطماحه فى مصالح المجتمع عامة . ويرجع الفضل فى قيام هذه الدولة الى والد فردريك الأكبر .

وكان **فردريك وليم** الأول جنديا بروسيا دءوبا شحيحا ذا ولع بسماع القصص تلقى فى الحانات ، وتدخين التبغ الهولندى القوى ، يكره أشد الكره جميع الوان الزينة ، وخاصة ما كان منها يرجع الى أصل فرنسى . وقد تملكته فكرة واحدة : ألا وهى الواجب . كان يأخذ نفسه بالشدة ، ولا يسمح بأن يتطرق أى ضعف الى رعاياه ، سواء أكانوا قوادا أم جنودا . وأقل مايقال فى العلاقة التى كانت بينه وبين ولده فردريك أنها لم تكن قط صافية ، فقد كانت طباع الوالد الخشنة تؤذى شعور ابنه الرقيق ، ذلك انه كان يستنكر ميل ولده لسجايا الفرسيين وادبهم وفلسفتهم وموسيقاهم ، ويرى أن فى هذا الميل ضعفا خليقا بالنساء . ومن ثم احتدمت التورة احتداما بين هاتين الطبيعتين العجيبتين . وحاول فردريك أن يفر الى انكلترا فقبض عليه وحوكم عسكريا ، وحمل على مشاهدة مقتل صديقه الصدوق الذى سعى الى مساعدته .

وكان من العقوبات التى انزلهـا به ما عمد اليه من ارسال هذا الأمير الشاب الى قلعة صغيرة فى الريف ، ليتعلم تفاصيل المهمة التى ستوكل اليه فى المستقبل: الا وهى صناعة الملك، فكان ذلك شرا ينطوى على الخير ، لأن فردريك كان عندما ولى العرش عام ١٧٤٠ قد عرف سياسة ملكه ، حقيرها وجليلها ، من شهادة ميلاد ابن الفقير المعدم الى ادق تفصيلات الميزانية السنوية المعقدة . اما فردريك المؤلف ، وخاصة كتابه المعروف باسم « الرد على مكيافللى » فقد عبر عن احتقاره للمذهب السياسى الذى قال به هذا المؤرخ الفلورنسى القديم الذى نصح تلاميذه من الامراء أن يعمدوا الى الكذب والخديعة اذا رأوا أن مصلحة بلادهم تقتضى ذلك . وخير الحكام فى مؤلف فردريك هو أول خادم لشعبه ، هو ذلكم المستبد المستنير الذى يسير على نهج لويس الرابع عشر . اما فردريك من حيث العمل فقد كان يخصص لشعبه كل ساعات يومه ، ومع ذلك فقد كان لايطيق أن يكون الى جانبه مشير يهتدى برأيه . أما وزراؤه فكانوا بمثابة كتاب كبار . وكان يعد بروسيا ملكا خاصا له يسوسه على هواه ، فلم يسمح لأحد أن يتدخل فى شئون الدولة .

وتوفى شارل السادس امبراطور النمسا عام ١٧٤٠ ، وكان قد سعى الى التمكين لابنته الوحيدة **ماريا تيريزا** بأخذ أغلظ المواثيق والعهود ، وتسجيلها على قطعة كبيرة من الرق . على أنه ما ان غيب هذا الامبراطور المسن فى قبور أسرة هابسبورج ، حتى سارت جيوش فردريك الى الحدود النمساوية لتحتل ذلك الجزء من سيليسيا ، هو وكل مايقع فى أواسط أوربا تقريبا ، استنادا الى حق قديم مشكوك فيه كثيرا . وخاض فردريك عدة حروب غزا فيها جميع سيليسيا ، واستطاع أن يصمد لكرات النمساويين جميعا ، ويحتفظ بجميع البلاد التى فتحها حديثا على الرغم من أنه كان فى كثير من الأحيان مشرفا على الهزيمة .

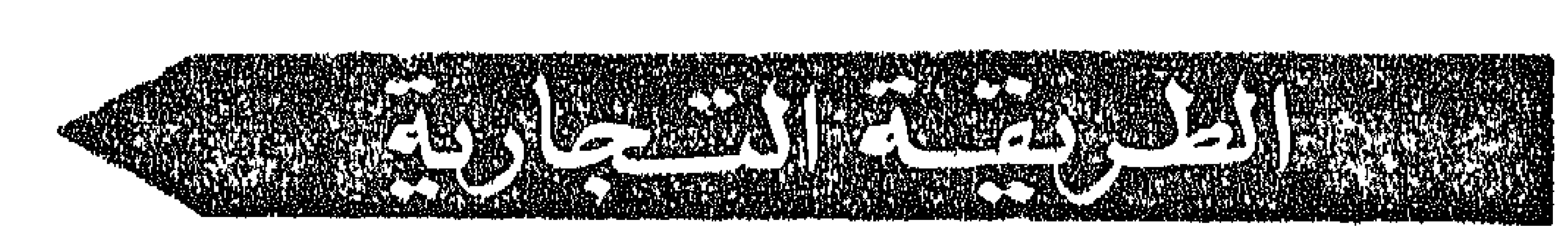
وانتبهت أوربا فى حينه الى ظهور تلك الدولة الجديدة العظيمة البأس .

وكانت المانيا فى القرن الثامن عشر قد انهكتها الحروب الدينية الكبرى ، فلم يعد يعمل احد لها حسابا كبيرا . ولكن فردريك بذل بغتة مجهودا جبارا يماثل مابذله بطرس الأكبر فى روسيا ، فبدل احتقار الناس لألمانيا خوفا وخشية . لقد نظم شئون بروسيا الداخلية تنظيما بارعا ، فقلت اسباب الشكوى بين رعاياه عنها فى اية بلاد أخرى . وزاد دخل الدولة السنوى على خرجها ، وأبطل اعمال التعذيب ، وأصلح النظام القضائى ، وشق طرقا جديدة ، وفتح المدارس والجامعات الجليلة ، وكفل للبلاد ادارة نزيهة امينة ، فأحس الناس بأنهم سيلاقون جزاء اية خدمة يطلب منهم اداؤها .

لقد ظلت المانيا عدة قرون مسرحا لحروب الفرنسيين والنمساويين والسويديين والدانيماركيين والهولنديين . وهاهى ذى قد استردت جأشها بفضل المثل الذى ضربته لها بروسيا ، وبدأت تستعيد ثقتها بنفسها ، وكان هذا من فعل ذلك الرجل العجوز الضئيل ذى الأنف المعقوف والملابس العتيقة المعفرة بالسعوط ، ذلك الرجل الذى كان يتحدث عن جيرانه حديثا مضحكا للغاية وان كان مؤلما غاية الايلام ، والذى كان يلعب تلك اللعبة المشينة المأثورة عن الدبلوماسية فى القرن الثامن عشر ، دون ان يراعى الحق والصدق اية مراعاة . . مادام فى مكنته أن يكسب شيئا بأكاذيبه .

وكان يفعل هذا على الرغم من انه صاحب الكتاب الذى سماه « الرد على مكيافللى » .

وفى عام ١٧٨٦ حان حينه ، فقد ولى أصدقاؤه جميعا . أما نعمة الولد فقد حرم منها فتوفى وحيدا يسهر على خدمته خادم واحد وعدد من كلابه المخلصة التى أحبها أكثر من حبه لبنى الانسان ، لأنها كانت فى قوله لاتعرف الجحود بل تبقى وفية لأصدقائها .



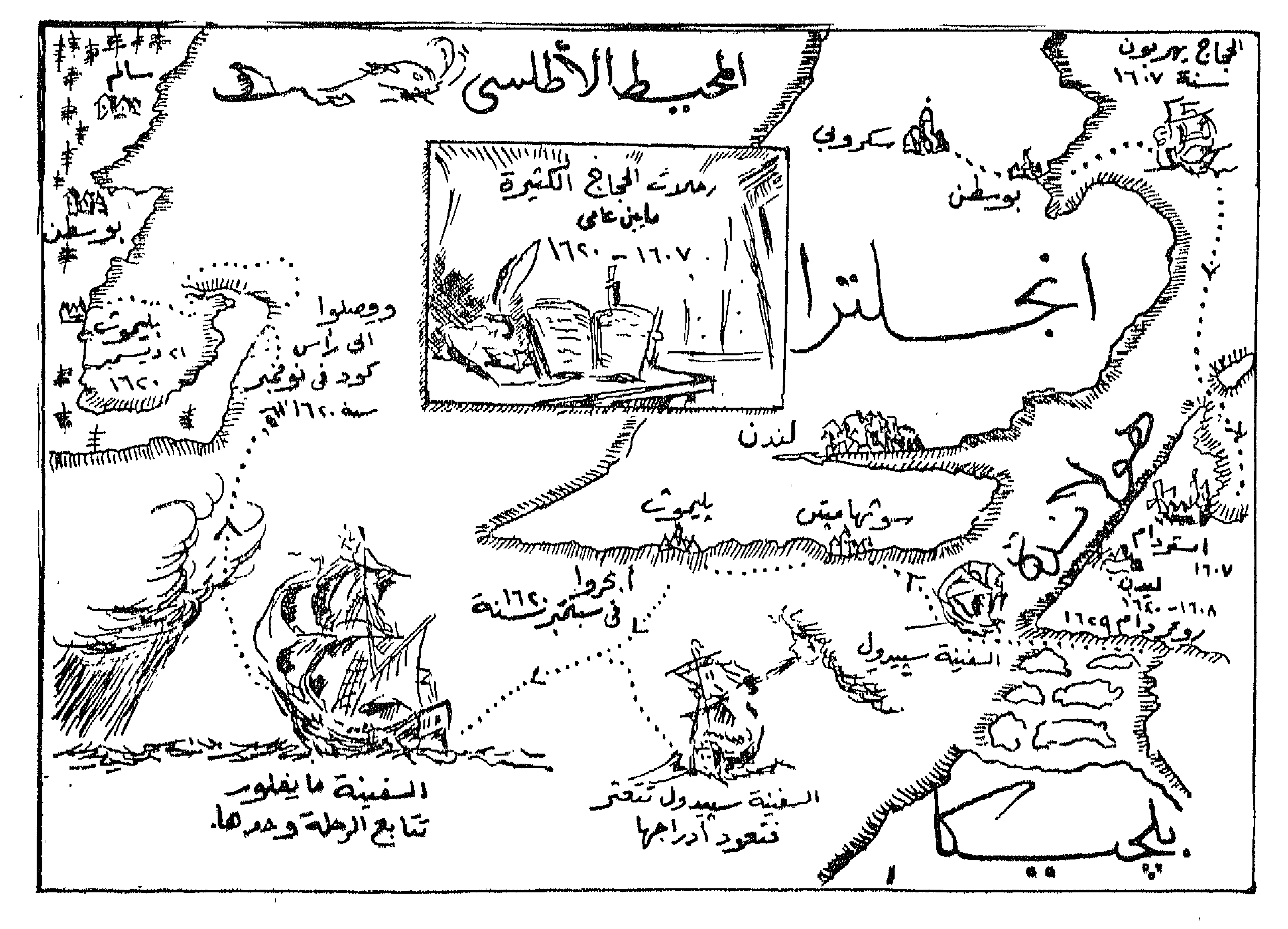
الطريقة التجارية

كيف حاولت الحكومات القومية الناشئة ، أو حكومات الأسر المالكة الاوروبيـة ، أن تثري . وماذا كانت تعنى عبارة ((الطريقة التجارية)) .

لقد رأيناكيف نشأتدول العالم الحديث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وبدأت تبرز معالمها . وتكاد كل دولة من هذه الدول تختلف فى منشئها عن الدولة الاخـرى . فمنها ما كان ثمـــرة جهد مطرد بذله ملك واحد ، ومنها ماكان وليد الصدفة ، ومنها ماكان وليد حدود جغرافية طبيعية مواتية . عـلى أن هذه الدول ما ان ظهرت حتى أخذت تعمل جميعا على تقوية ادارتها فى الداخل ، وبســط نفوذها الى اقصى حد ممكن فى الشئون الخارجية . وقد اقتضاها كل ذلك بطبيعة الحال أموالا طائلة .

لم تكن الدولة فى العصور الوســطى تعتمد عـلى ميزانية كبيرة لافتقارها الى السلطة المركزية ، فكان الملك يحصل على دخله من أملاكه ، أمـا الخدمات المدنية فكانت تدر مايسد مصروفاتها . أمـا الدولة الحديثة ذات السلطة المركزية فأكثر من ذلك تعقيدا . فقد اختفى الفرسان القدماء ، وحل محلهم موظفون مأجورون . ويتطلب الجيش والأســطول والادارة الداخلية الملايين من الجنيهات ، لذلك أصبحت المسألة تنحصر فى كيفية تدبير هذه الأموال .

لقد كان الذهب والفضة سلعة نادرة فى العصـور الوسطى ، ذلك أن الرجل من أوساط الناس لم ير فى حياته قط ــ كما سبق ان قلت ــ قطعة ذهبية واحدة ، ولم يعرف العملة الفضية الا سكان المدن الكبيرة . غير أن الكشف عن القارة الأمريكية ، واستغلال مناجم



رحلات الحجاج

بيرو قد غير من ذلك كله ، اذ انتقل مركز التجارة من البحر المتوسط الى سواحل الاطلسى ، وفقدت المدن التجارية القديمة فى ايطاليا ماكان لها من شأن فى عالم المال ، وحل محلها دول تجارية جديدة ، وعادالذهب والفضة لايستثيران العجب ، ووجدت المعادن النفيسة طريقها الى أوربا على يد الاسبانيين والبرتغاليين والهولنديين والانكليز . لقد كان للقرن السادس عشركتابه الذين كتبوا فىالاقتصادالسياسى ، وكانت لهم نظرية فى الثروة القومية بدت لهم سليمة كل السلامة،مفيدة أعظم الفائدة لبلادهم . وقد ذهب هؤلاء الاقتصاديون الى أن الذهب والفضة ثروة بحق ، ومن ثم اعتقدوا أن الدولة التى تحتفظ بأكبر قدر من النقد فى خزائنها ومصارفها ، هى فى الوقت نفسه أغنى دولة .

ولما كان المال معناه القدرة على تعبئة الجيوش واعدادها ، فان أغنى الدول كانت من ثم أقواها بأسا، وهى التى تستطيع حكم سائر دول العالم .

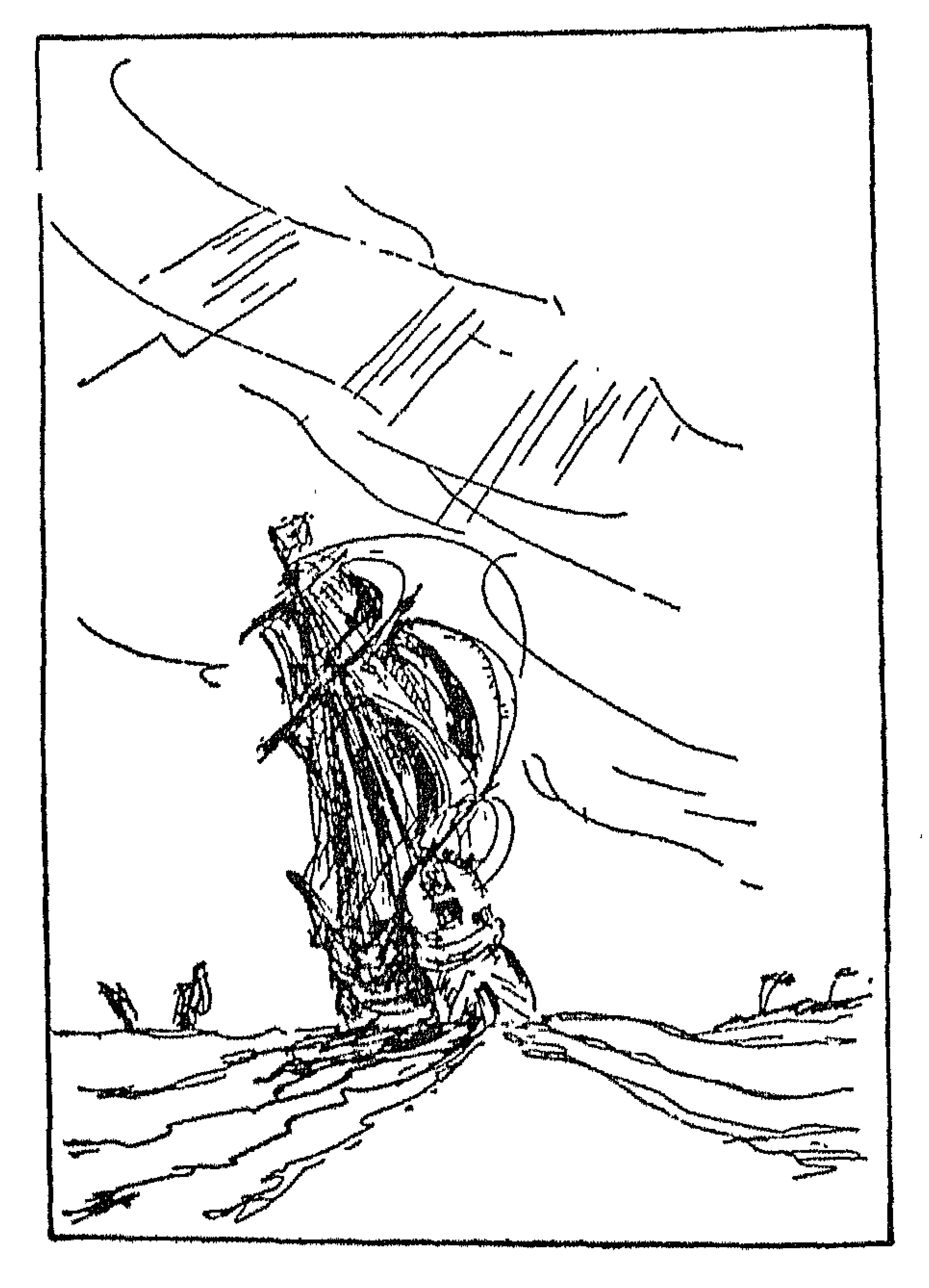
ونحن نطلق على هذه الطريقة اسم « الطريقة التجارية » . وكان الناس يعتقدون فيها اعتقادا راسخا يماثل اعتقاد النصارى الاقدمين فى المعجزات ،ويماثل اعتقاد الكثيرين من رجالالأعمال الأمريكيين فى الوقت الحاضر ، بنظام التعاريف الجمركية . وتتلخص هذه الطريقة من الناحية العملية فيما يلى :

لكى يكون للدولة أكبر فائض من المعادن النفيسة ، يجب أن يكون ميزانها التجارى فى صالحها ، لأنك اذا استطعت أن تصدر الى جارك أكثر مما يصدر هو لك ، فانه يكون بذلك مدينا لك بقدر من المال ، وسوف يضطر — والحالة هذه — الى أن يرسل لك بعض ذهبه ، ومن ثم يكون الربح فى جانبك والخسارة فى جانبه . لذلك كان البرنامج التجارى لكل دولة فى القرن السابع عشر يتلخص وفقا لهذا المذهب فيما يلى :

١ — اسع الى الحصول على أكثر مايمكنك من المعادن النفيسة .
٢ — شجع التجارة الخارجية ، وفضلها على التجارة الداخلية .
٣ — شجع الصناعات التى تحيل المواد الخام الى مواد مصنوعة معدة للتصدير .
٤ — شجع السكان على الزيادة لانك سوف تحتاج الى أيد عاملة فى مصانعك ، والمجتمع الزراعى لايستطيع أن يزودك بحاجتك من العمال .
٥ — دع الدولة تشرف على هذه المسائل جميعا وتتدخل — اذا اقتضى الامر — فى ذلك .

وقد حاول أهل القرنين السادس عشر والسابع عشر ، تنظيم تجارتهم بمقتضى القرارات الرسمية والقوانين الملكية والمساعدات المالية من جانب الحكومة بدلا من النظر الى هذه التجارة الدولية على انها أشبه شىء بالقوى الطبيعية : تسير دائما وفق قوانين طبيعية بعينها ، غير حافلة بتدخل الانسان .

وفى القرن السادس عشر أخذ شارل الخامس بهذه الطريقة التجارية التى كانت وقتذاك بدعة من البدع ، وطبقها فى ممتلكاته الكثيرة . وسارت على نهجه فى هذه السياسة اليصابات فى انكلترا تملقا له . وكان البوربون فى فرنسا — وخاصة الملك لويس الرابع عشر — متعصبين لهذه الطريقة ، وغدا **كولبير** وزير مالية لويس العظيم ، نبى هذا المبدأ . وأخذت أوربا كلها تهتدى بهديه . وكانت سياسة كرومويل الخارجية كلها تطبيقا عمليا لهذه الطريقة . وكانت هذه السياسة موجهة فى جميع الاحوال الى جمهورية هولندا الغنية المنافسة ، فقد كان أصحاب السفن الهولنديون — بوصفهم حملة تجارة أوربا — يجنحون بعض الجنوح

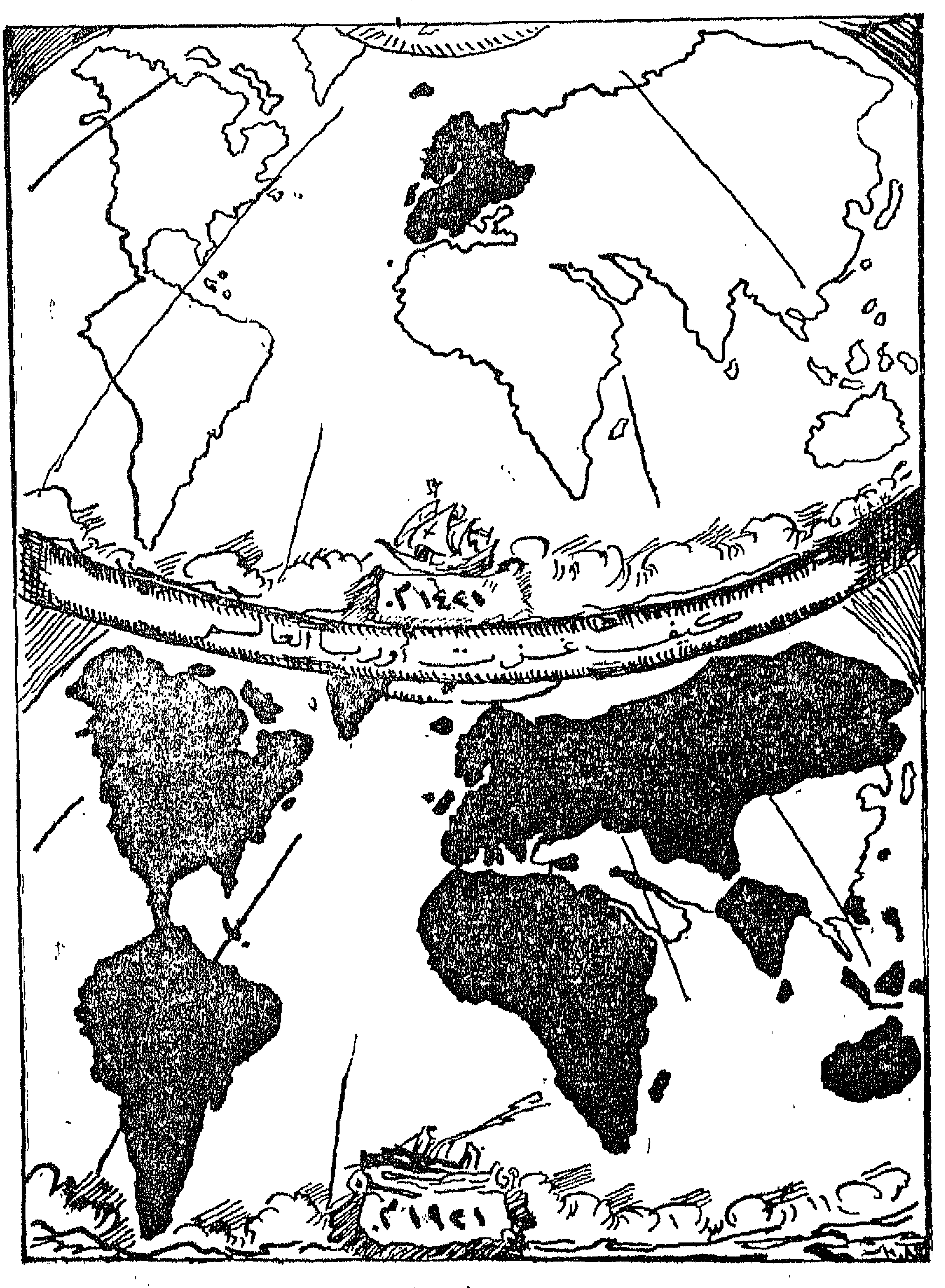


القوة البحرية

الى حرية التجارة ، ومن ثم رأى كروموبل أن القضاء عليها أمر لا مفر منه .

ومن اليسير علينا أن ندرك الأثر الذى كانت هذه الطريقة قمينة بأن تتركه فى المستعمرات ، فقد اصبحت المستعمرة فى ظل هذه الطريقة التجارية مجرد مخزن للذهب والفضة والأفاويه يصرف منه لصالح الدولة المستعمرة . واصبحت موارد آسيا وامريكا وافريقيا من المعادن النفيسة والمواد الخام الخاصة بهذه المناطق الاستوائية ،احتكارا للدولة التى قدر لها أن تملك هذه المستعمرة بذاتها . ولم يكن يسمح لأى أجنبى بالدخول فى هذه المستعمرة ، ولا لمواطن من أهلها بالمتاجرة مع تاجر يرفرف على سفينته علم أجنبى .

وليس من شك فى أن الطريقة التجارية قد شجعت على نمو الصناعات الصغيرة فى بعض الدول التى لم يكن بها صناعات من قبل ، كما أنها كانت السبب فى شق الطرق وحفر القنوات وتحسين أسباب المواصلات . وكانت هذه الأعمال تتطلب وجود عمال



كيف غزت أوربا العالم

مهرة ، كما أنهـا رفعت مركـز التاجر الاجتماعى ، وأضعفت فى الوقت نفسه من سلطان طبقة الأشراف أصحاب الأرض .

على أن هذه الطريقة قد زادت من اسباب البؤس زيادة عظيمة ، ذلك انها جعلت أهالى المستعمرات فريسة لأشد أنواع الاستغلال مجلبة للخزى والعار، وعرضت المواطنين فى الدول المستعمرة لمصير أشد من ذلك هولا . فقد ساعدت هذه الطريقة الى حد كبير على تحويل كل بلد من البلاد الى معسكر حربى ، كما قسمت العالم الى مناطق صغيرة كل منطقة تعمل على تحقيق مصلحتها الخاصة ، فى حين تسعى دائما الى القضاء على قوة جيرانها والاستيلاء على خزائنهم ، وجعلت همها الأكبر الحصول على الثروة حتى أصبح الثراء يعد الفضيلة الوحيدة التى يتحلى بها المواطن من اوساط الناس .

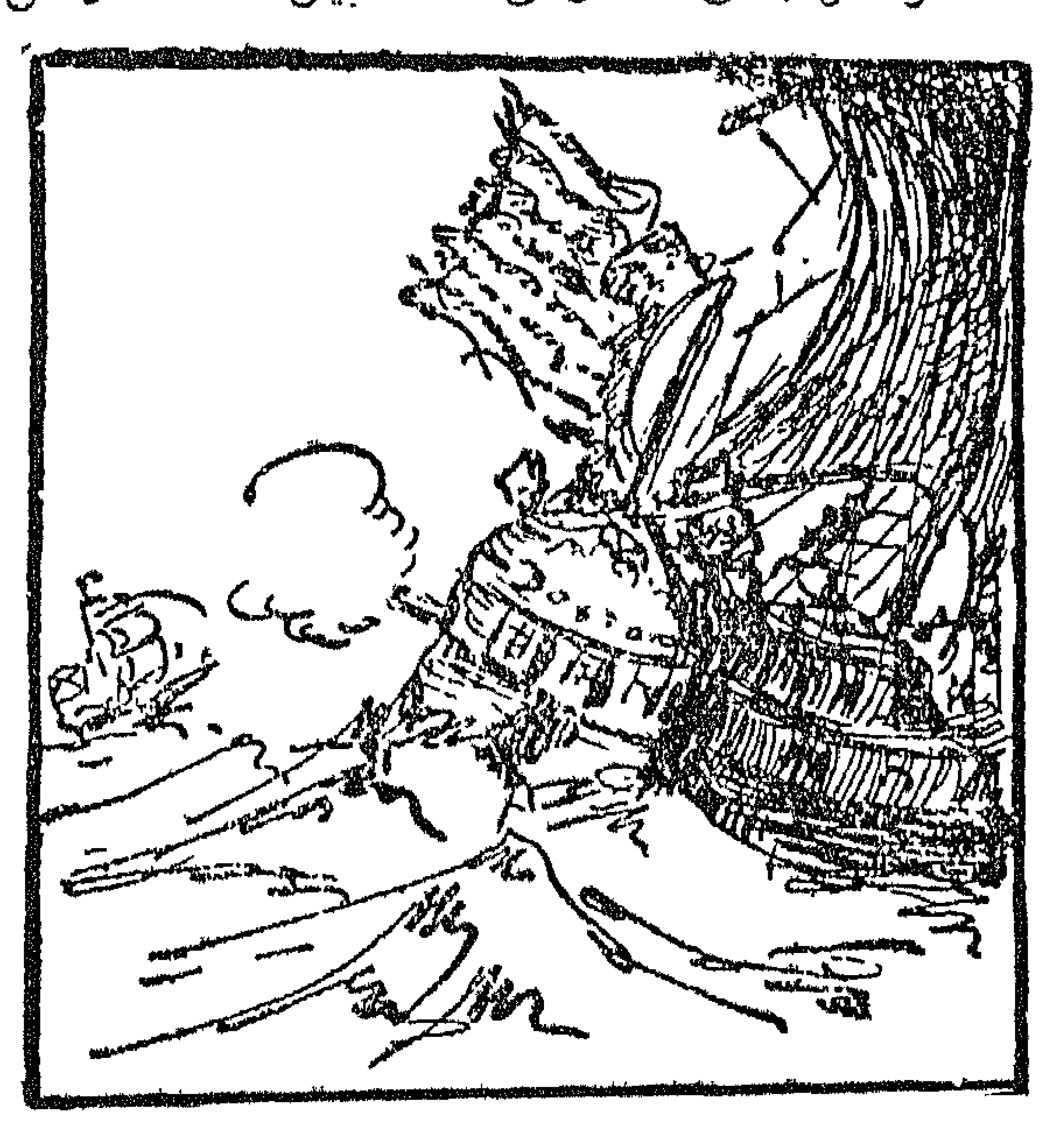
على أن المذاهب الاقتصادية تجىء وتذهب ، شأنها شأن البدع التى تظهر فى الجراحة وفى أزياء النساء . وكان أن نبذت الطريقة التجارية فى القرن التاسع عشر، وحلت محلها المنافسة الحرة الصريحة . وهذا هو على الأقل مبلغ ماوصل اليه علمى .

الثورة الأمريكية

فى أواخر القرن الثامن عشر سمعت أوربا أخبارا عجيبة عن حادث وقع فى برارى القارة الشمالية الامريكية ، فقد أضاف سلالة أولئك الرجال الذين عاقبوا الملك شارل لتمسكه بالحق المقدس للملوك ، فصلا جديدا الى تلك القصة القديمة ، قصة نضال الناس فى سبيل حكم أنفسهم بأنفسهم

يقتضينا المقام هنا أن نعود ادراجنا بضعة قرون ، ونكرر ما سبق أن ذكرناه عن التاريخ المتقدم للنضال الكبير الذى نشب فى سبيل الحصول على المستعمرات .

ما ان قام عدد من الدول الأوربية على ذلك الاساس الجديد : أساس القومية أو مصالح الاسر الحاكمة ، خلال حروب الثلاثين سنة أو بعيدها حتى استمر ملوكها فى القتال فى سبيل امتلاك أراض

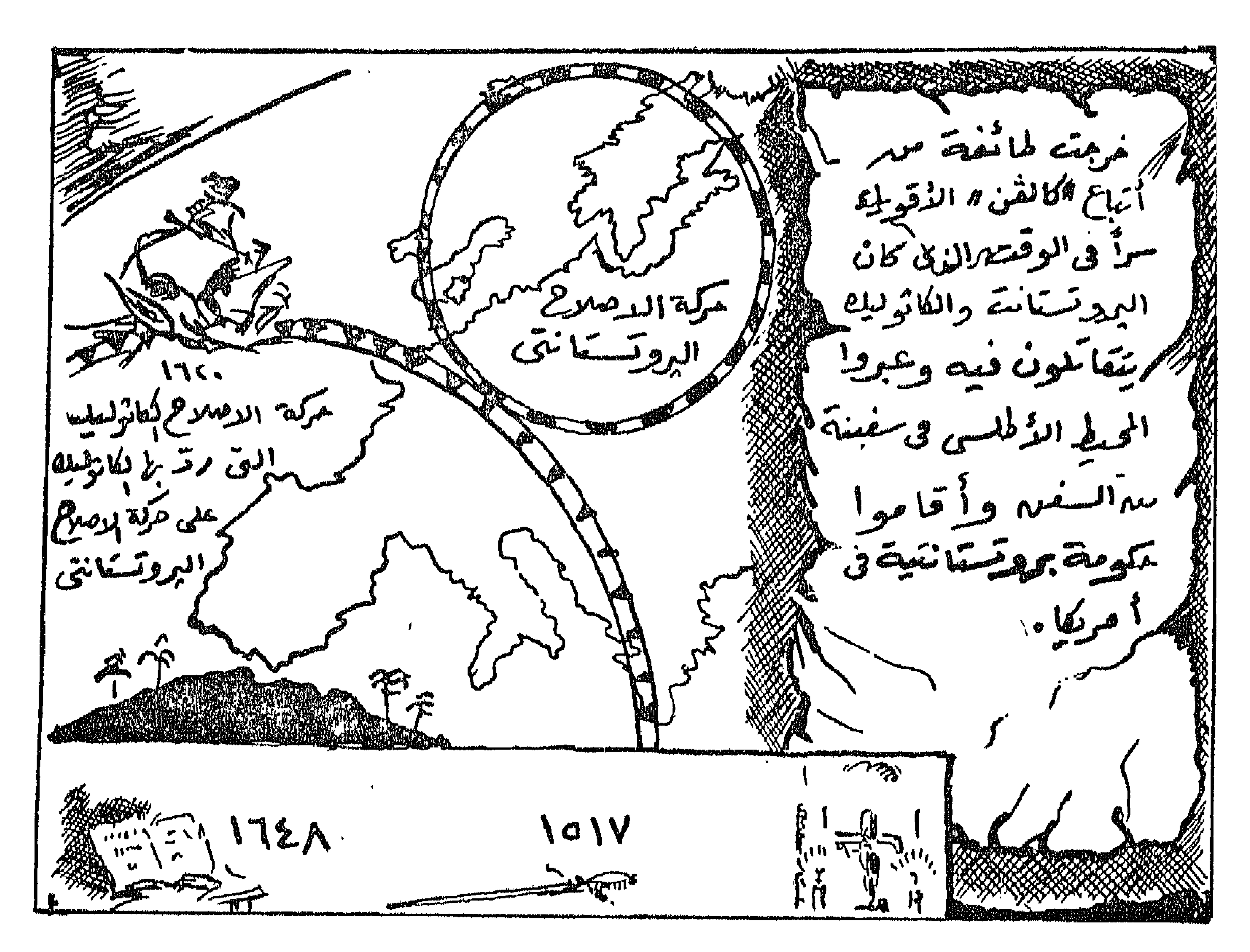


القتال فى سبيل الحرية

جديدة فى آسيا وافريقيا وامريكا ، يشد أزرهم فى ذلك التجار بأموالهم والشركات التجارية بسفنها .

ظل الاسبان والبرتغاليون يرتادون المحيط الهندى والمحيط الهادى أكثر من قرن قبل أن تظهر هولندا وانكلترا على مسرح الحوادث . وكان ذلك فى مصلحة هاتين الدولتين ، فقد قام الاسبان والبرتغاليون فعلا بأعمال الكشف الشاقة الاولى ، يضاف الى ذلك أن الملاحين الأولين أغضبوا فى كثير من الاحيان الاهالى الاسيويين والامريكيين والافريقيين ، ومن ثم رحب هؤلاء بالانكيز والهولنديين وعدوهم أصدقاءهم ومحرريهم .

ونحن لانستطيع أن نقول أن فضائل هذا الفريق تفوق فضائل ذاك،على أن الفريقين جميعا كانوا تجارا قبل كل شىء،فلم يسمحوا قط بأن تتدخل الاعتبارات الدينية فى حكمهم العملى على الامور . فقد سلكت الدول الاوربية جميعا فى علاقاتها الاولى مع الاجناس الضعيفة ، مسلكا وحشيا تقشعر منه الأبدان . اما الانكليز والهولنديون فقد فاقوا غيرهم ، وعرفوا من أين تؤكل الكتف ، ذلك أن عزمهم قد صح على ترك أهالى المستعمرات يعيشون كيفما يريدون ، ما داموا يحصلون على أفاويههم وذهبهم وفضتهم ويجبون منهم الضرائب ، ومن هنا لم يشق عليهم كثيرا أن يوطدوا أقدامهم فى أغنى بقاع العالم . ولكن ما ان تم لهم ذلك حتى أخذ كل منهم يحارب الآخر فى سبيل



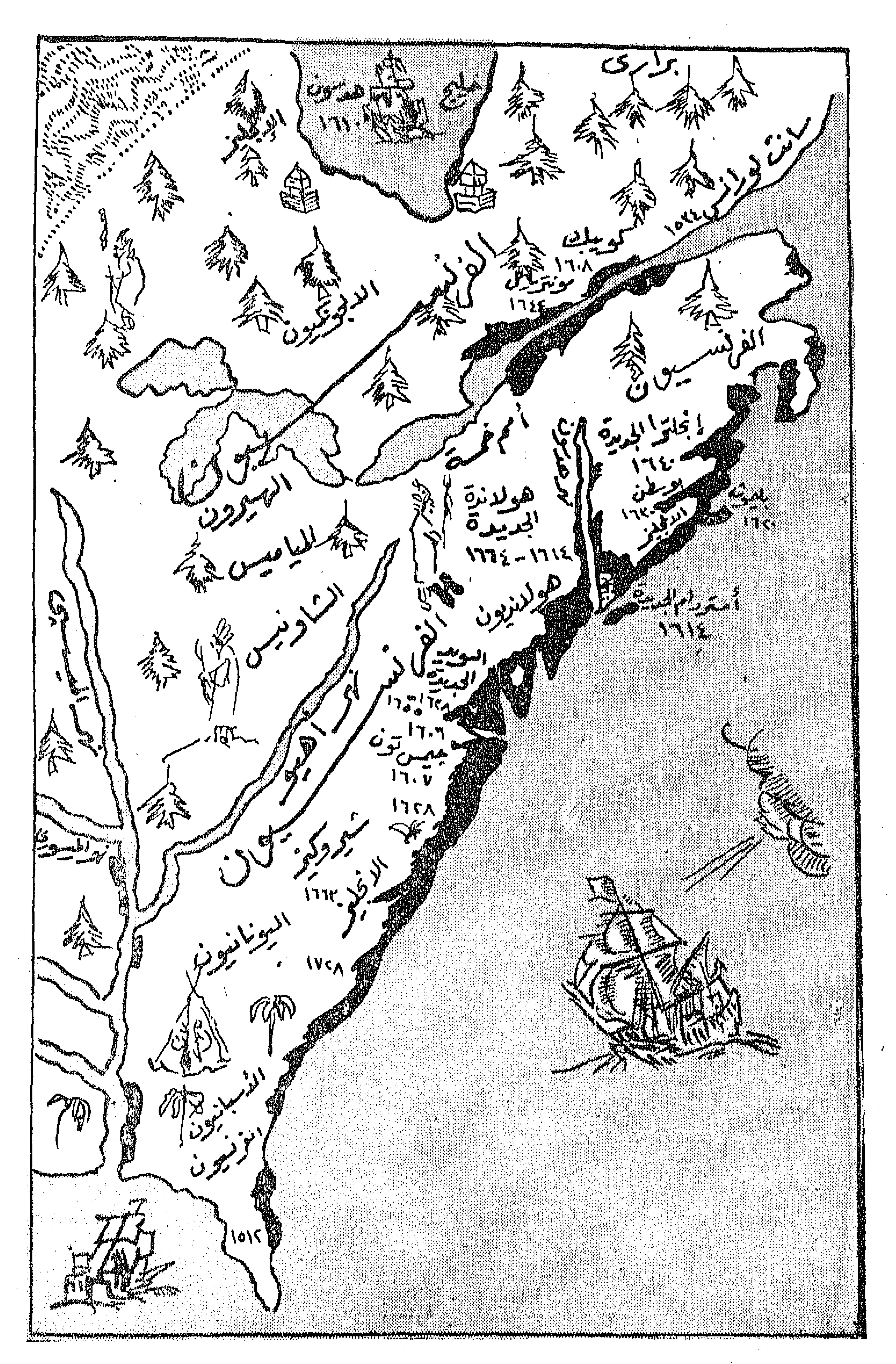
حركة الاصلاح الكاثوليكى تواجه حركة الاصلاح البروتستانتى

توسيع ممتلكاته . ومن الغريب أن حروب الاستعمار لم تحسم قط فى المستعمرات ذاتها ، ولكن أساطيل هذه الدول المتنازعة قد قررت مصير هذه الحرب على مسيرة ثلاثة آلاف ميل من هذه المستعمرات . ومن أهم المبادىء فى الحروب قديمها وحديثها ، بل من قوانين التاريخ القليلة التى يعتد بها ، تلك الحقيقة ... وهى ان الدولة التى تسيطر على البحر تسيطر كذلك على البر ، ولم يحدث قط حتى الآن ما يخرق هذا القانون الا ان الطائرة الحديثة قد تغيره . ومع ذلك فلم تكن فى القرن الثامن عشر طائرات . وكان الاسطول البريطانى هو الذى كسب لانكلترا مستعمراتها المترامية الأطراف فى أمريكا والهند وافريقيا .

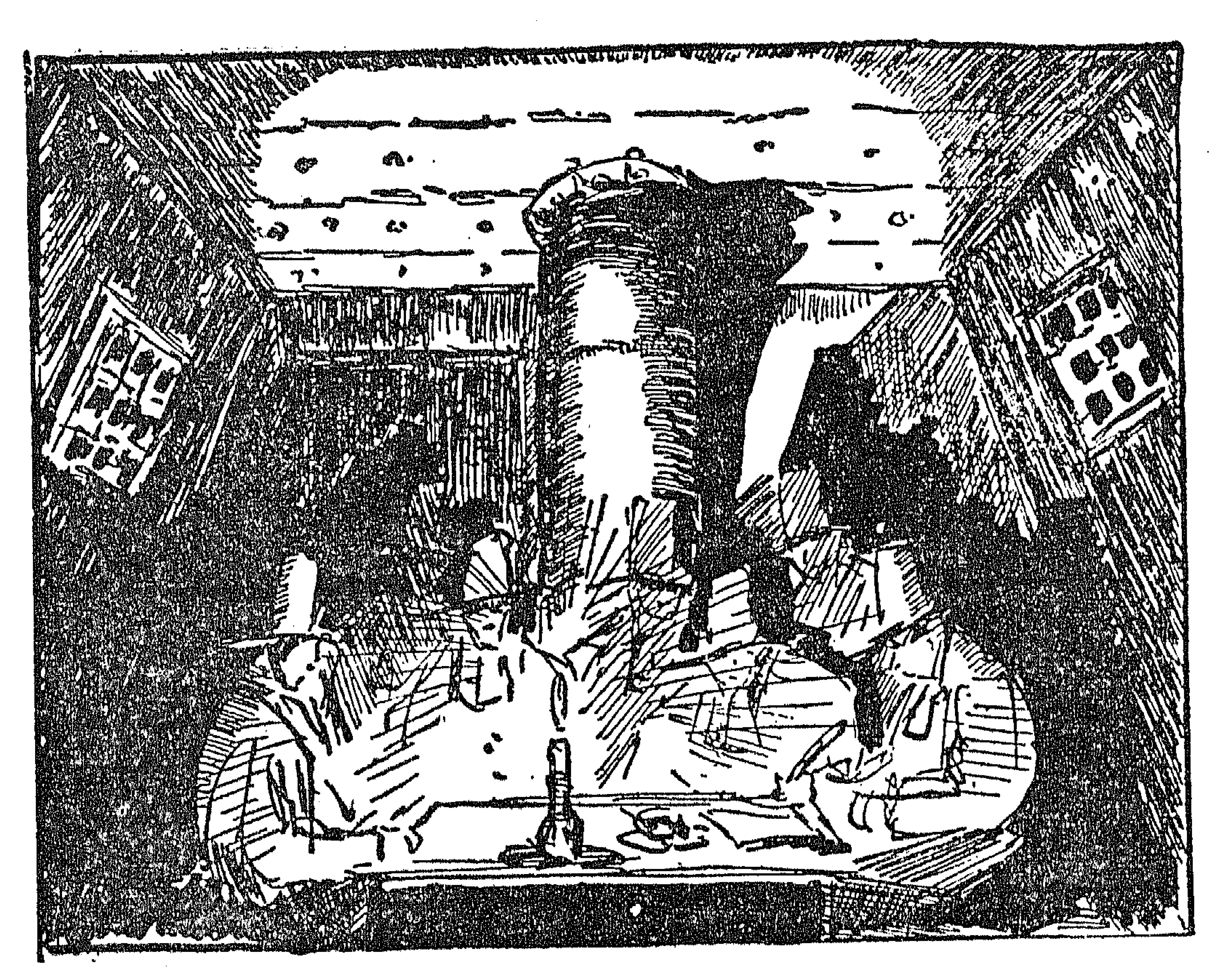
ولا يعنينا فى هذا المقام ذكر سلسلة الحروب البحرية التى نشبت بين انكلترا وهولندا فى القرن السابع عشر . وقد انتهت هذه الحروب كما تنتهى جميع الحروب التى تصطرع فيها دولتان بينهما بون شاسع فى القوة والبأس . على أن الحرب بين انكلترا ومنافستها الاخرى فرنسا أعظم أهمية بكثير . فانه على الرغم من أن أساطيل انكلترا القوية قد أوقعت الهزيمة فى آخر الامر بالبحرية الفرنسية ، الا أن شطرا كبيرا من المناوشات التى سبقت الحرب ، قد وقع فى القارة الامريكية . كانت كل من فرنسا وانكلترا تدعى لنفسها كل ما كان يكشف من أرض تلك القارة الواسعة ، بل تدعى أكثر من ذلك قدرا كبيرا من الارض التى لم يكن قد وقع عليها من بعد نظر الرجل الابيض .

ففى عام ١٤٩٧ نزل **كابوت** فى القسم الشمالى من أمريكا ، وقد جاء اليها على سفن تحمل العلم الانكليزى . وبعد ذلك بسبع وعشرين سنة زار تلك البلاد **جيوفانى فرازانو** ، وقدجاءها على سفن فرنسية ، ومن ثم نجد كلا من انكلترا وفرنسا تدعى انها صاحبة هذه القارة بأسرها .

وفى خلال القرن السابع عشر قامت نحو عشر مستعمرات انكليزية مبعثرة فيما بين **مين** و **كارولينا** ، وكانت هذه المستعمرات فى غالب الاحيان بمثابة مأوى وملاذ لبعض الطوائف الانكليزية المنشقة مثل المتطهرين (Puritans) الذين شخصوا عام ١٦٢٠ الى انكلترا الجديدة ، أو طائفة الكويكريين الذين استقروا فى بنسلفانيا عام ١٦٨١ . ثم



كيف استقر البيض فى شمالى امريكا



فى قمرة السفينة « ماى فلاور »

ان هذه المستعمرات كانت جماعات من النـــاس صغيرة العدد تأوى فى رحاب الشاطىء حيث اجتمع القوم ليقيموا موطنا جديدا ، ويبدأوا الحياة فى بيئة أسعد ، بعيدين كل البعد عن اشراف الملك وتدخله فى شئونهم .

أما المستعمرات الفرنسية فقد ظلت على الدوام من أملاك التاج،فلم يسمح للهيجونوت أو البروتستانت بالذهاب الى هذه المستعمرات ، خشيـــة أن ينشروا عقائدهم البروتستانتية الخطرة بين الهنود،أو يتدخلوا فى الدعوة التى يبشر بها الآباء اليسوعيون هناك . ومن ثم كانت المستعمرات الانكليزية مظهـرا من مظاهر النشاط التجارى الذى بذلته الطبقات الوســطى فى انكلترا ، أما المستعمرات الفرنسية فقد كان يسكنها اناس عبروا المحيط ، وكانوا خداما للملك ، يترقبون العودة الى باريس فى أول فرصة تلوح لهم . على أن المستعمرات الانكليزية كانت من الناحية السياسية فى مركز سيىء . فالفرنسيون قد اكتشفوا مصب نهر سانت لورانس فى القرن السادس عشر ، ثم شـقوا طريقهم من اقليم البحيرات الكبرى جنوبا ، وهبطوا مع نهر المسيسيبى ، وأقاموا عدة حصون على خليج المكسيك . وبعد قرن من تاريخ هذا الاستكشاف كان هناك خط من الحصون الفرنسية عددها ستون حصنا تفصل بين المحلات الانكليزية التى على شاطىء المحيط الاطلسى وقلب القارة الامريكية .

وكانت انكلترا تمنح شركات الاستعمار المختلفة حق تملك الارض من البحر الى البحر ، وكان هذا الاجراء سليما من حيث النظر ، أما من حيث العمل فقدكانت المستعمرات الانـكليزية تنتهى عند خط الحصون الفرنسية . وكان اجتياز هذه العقبة ممكنا ، ولكنه اقتضى الانكليز رجالا وأموالا ، وحملهم على خـوض سلسلة من حروب الحدود الفظيعة أخذ فيها كل فريق يعمل القتل فى جيرانه البيض بمساعدة القبائل الهندية .

وكان شبح الحرب بين انكلترا وفرنسا بعيـدا فى العهـد الذى كانت فيه انكلترا تحت حـكم آل ستيوارت ، ذلك أن الاستيوارت كانوا فى حاجة الى مساعدة البوربون فى محاولتهم توطيد الحكم المطلق فى بلادهم والقضاء على سلطان البرلمان . ولكن حدث فى عام ١٦٨٩أن اختفى آخر ملك من ملوك الاستيوارت من الارض البريطانية ، وخلفه على العـرش وليم



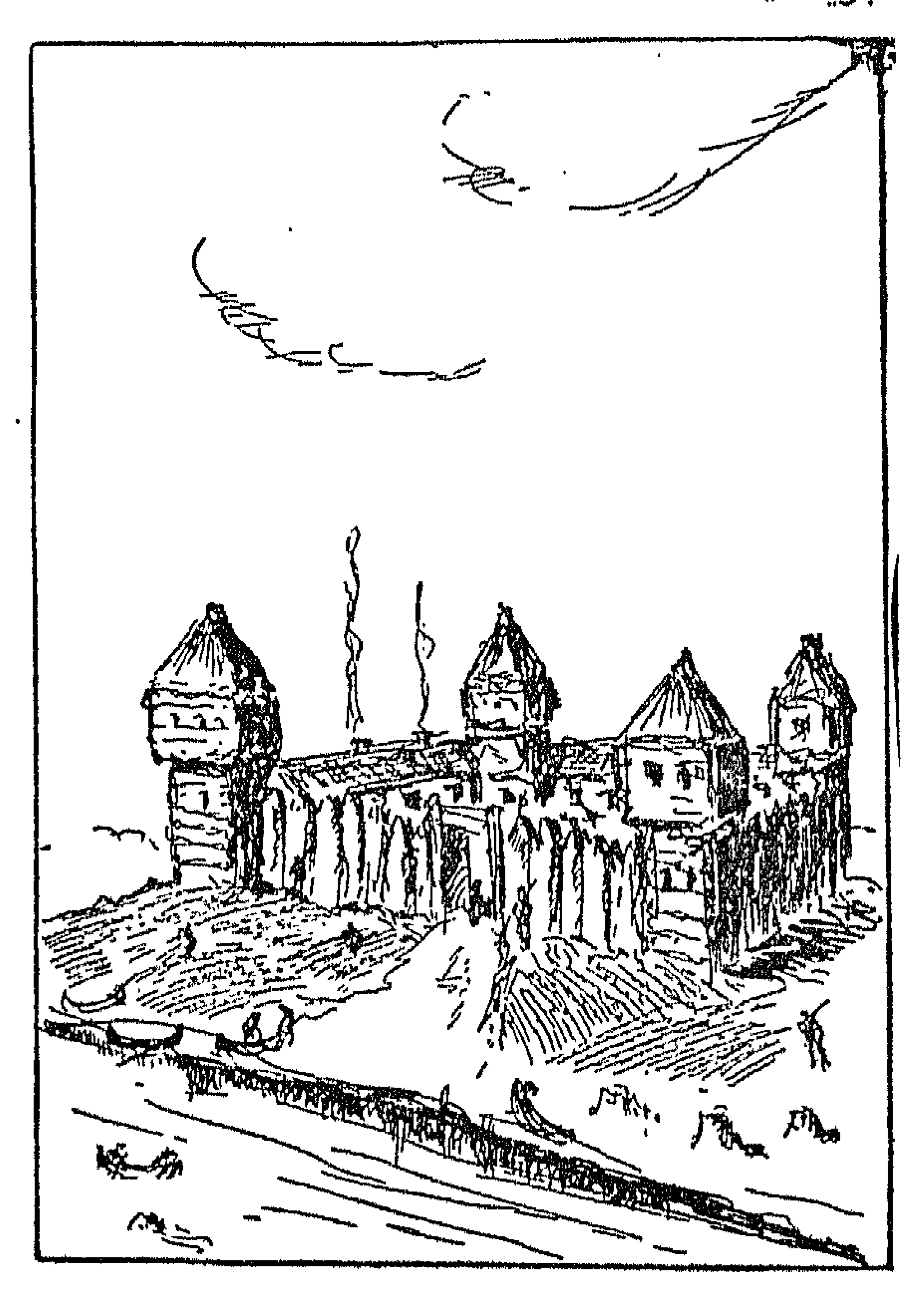
الفرنسيون يرتادون الغرب

الهولندى الد اعداء لويس الرابع عشر ، ومنذ ذلك الحين حتى معاهدة باريس عام ١٧٦٣ وانكلترا فى حرب مع فرنسا فى سبيل امتلاك الهند وامريكا الشمالية . وكانت الاساطيل الانكليزية خلال هذه الحروب تنزل الهزيمة تلو الاخرى بالاساطيل الفرنسية ، كما سبق أن بينا . وانقطعت الصلة بين فرنسا ومستعمراتها ففقدت معظم املاكها . وما ان أعلن الصلح حتى كانت أمريكا الشمالية بأكملها قد وقعت فى يد الانكليز . وضاعت على فرنسا تلك الاعمال الكشفية العظيمة التى قام بها كل من **كارتييه** و **شابلين** و **لاسال** و **ماركيت** وغيرهم هباء منثورا .

ولم يكن عامرا بالسكان من هذه الرقعة المترامية الاطراف الا جزء صغير ، فكانت هناك جماعات متفرقة تسكن شريطا رفيعا من الارض بين ماساشوست فى الشمال ، حيث نزل جماعة الحجاج (وهم فريق من المتطهرين المغالين فى التعصب لم يهنأوا بالعيش فى انكلترا الانجليكانية ولا فى هولندا الكلفنية) عام ١٦٣٠ ، وكاروليناس وڤرجينيا ، وهما اقليمان يزرع فيهما التبغ انشئا للاستغلال فحسب.

غير ان الناس الذين سكنوا هذه البلاد الجديدة ذات الهواء النقى والسماء الصافية ، كانوا يختلفون كل الاختلاف عن بنى أرومتهم ممن يسكنون انكلترا نفسها . فقد عرفوا فى هذه البرارى الاستقلال والاعتماد على النفس .

لقد انحدروا من أسلاف عرفوا بالبأس وعلو الهمة ، لأن الكسالى والجبناء لم يكونوا يقدمون على عبور المحيط فى تلك الايام ، ذلك أن المستعمرين الامريكيين كرهوا القيود التى كانت تغلهم فى بلادهم الاصلية،وضاق بهم هذا الوطن حتى أصبحت حياتهم جحيما لا يطاق ، وارادوا أن يتحرروا فلا يكون عليهم سلطان ولا سيد . غير أن الطبقات الحاكمة فى انكلترا كانت فيما يبدو لا تهضم ذلك ، اذ أخذت فى مضايقة المستعمرين ، وأخذ المستعمرون الذين كرهوا التضييق عليهم بهذه الصورة فى ازعاج الحكومة البريطانية .



المعقل الخشبى فى القفار

وتولد عن هذا الشعور السيىء شعور أشـــد سوءا . ولا يقتضينا المقام أن نذكر بالتفصيل ماحدث بالفعل ، وما كان يمكن تحاشيه لو أن ملك انكلترا كان أحصف من **جورج الثالث** ، أو أقـل ركونا الى الدعة وقلة المبالاة مـن وزيره اللورد **نورث** . فلمـا ادرك المستعمرون الانـكليز أن المفاوضات السلمية ليست حرية بأن تحل المشاكل .. . امتشقوا الحسام، ونزعوا ثوب الرعايا المخلصين ، والتجأوا الى العصيان وعرضوا أنفسهم لعقوبة الاعـدام اذا ما وقعوا فى قبضة الجنود الالمان ، الذين استأجرهم الملك جورج الثالث لقتالهم ، جريا على الطريقة التى كانت سائدة فى تلك الايام ، اذ كان أمراء التيوتون يبيعون فـرقا عسكرية بأكملها لمن يدفع فيها أغلى ثمن .

واستمر القتال بين انكلترا ومستعمراتها الامريكية سبع سنوات ، كان احتمال انتصار الثوار انتصـارا حاسما أمرا مشكوكا فيه جدا فى معظم هذه الفترة ، ذلك أن عددا كبيرا من الناس ، وخاصة فى المدن ، ظل مواليا للملك ، وكان هذا العدد من الناس تواقا الى التوفيق ، بل كان حريا أن يسعى الى الصلح .



جورج واشنطن

ولكن واشنطن العظيم كان حفيظا على قضيـة المستعمرين لهذه البلاد ، وكان يعاونه فى ذلك نفر من الرجال الشجعان ، وقد استخدم جنوده ، وكانوا من أهل العزم ــ ولو انهم كانوا مجهزين تجهيزا سيئاــ فى اضعاف قوى الملك . وكانت بوادر الهزيمة الماحقـة تبـدو فى الافق مـن حين الى حـين ، الا ان قدرة واشنطن الحربية كانت تميل بكفة الميزان الى جانبه. وقد كان رجاله فى كثير من الاحيان لا ينالون قسطا وافيا من الطعام ، وكان يعوزهم فى فصل الشـتاء الاحذية والمعاطف ، كما كانوا يضطرون الى العيش فى خنادق وبيئة غير صحية . ولكن ثقتهم فى قائدهم



الشتاء الاول فى نيو انجلند

العظيم كانت راسـخة لا تتزعـزع ، وقد ظلوا مستمسكين بها حتى ساعة النصر الاخير .

على أن ثمة حادثة وقعت فى بواكير الثورة أهم من وقائع واشنطن ، أو الانتصارات التى أحرزها فى ميدان السياسة بنيامين فرانكلين الذى كان يقوم فى أوربا بجمع الأموال من الحكومة الفرنسية ، ومن أصحاب المصارف فى امستردام ... ذلك أن ممثلى المستعمرات المختلفة كانوا قد اجتمعوا فى فيلادلفيا لمناقشة بعض المسائل ذات الصبغة العامة ، وكان ذلك فى أول سـنة من سـنى الثـورة ، وكان معظم المدن الكبيرة التى على ساحل المحيط لا يـزال فى أيـدى البريطانيين ، وكانت الامدادات تصل تباعا من انكلترا على ظهور السفن . ولم يكن يجسر على ابرام ذلك القرار الخطير الذى اتخذ فى شهرى يونية ويولية من عام ١٧٧٦ الا أولئـك النـاس الذين كانوا يؤمنـون بعدالة قضيتهم ايمانا راسخا لا يتزعزع .

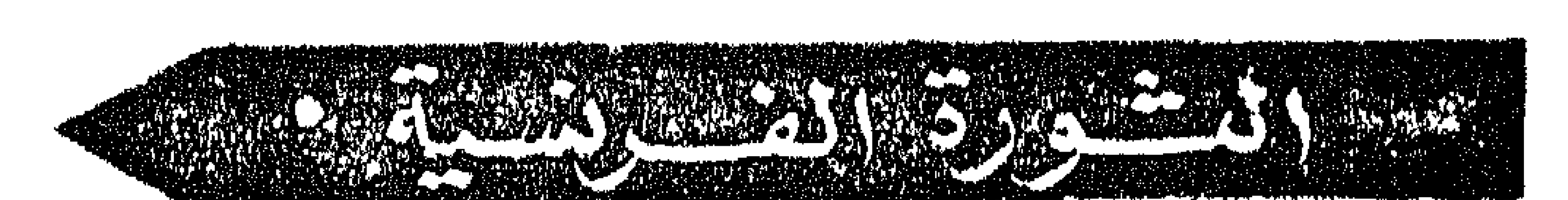
ففى شهر يونية اقترح **ريتشارد هنرى لى** ، أمام أعضاء مؤتمر القارة الامريكية ، أن هذه المستعمرات المتحدة هى ولايات حرة مستقلة ، ومن حقها أن تكون كذلك ، وانها فى حل من أن تدين بأى ولاء للتـاج البريطانى ، وان كل رابطـة سـياسية بينهـا وبين حكومة بريطانيا العظمى منفصمة تمام الانفصام ، بل يجب أن يكون هذا هو شأنها .

وقد عزز هذا الاقتراح اقتراح آخر قدمه **جـون آدمز** من ولاية ماساشوست ، واخذ بهذا الاقتراح فى الثانى من يولية ، وفى الرابع منه اعقبه صـدور اعلان رسمى بالاستقلال قام به **توماس جفرسون** ، وهو باحث عميق قدير فى مسائل السـياسة ونظم الحكم ، قدر له أن يصبح من أشهر رؤساء الجمهورية الامريكية .



الثورة الامريكية الكبرى

ولما بلغت أوربا أنباء هـذا الحادث ، وما تلاه من انتصار المستعمرين انتصارا حاسما ، واتخاذهم عام ١٧٨٧ ذلك الدستور المشهور الذى كان أول الدساتير المكتوبة ... أثار ذلك اهتماما كبيرا بين الاوربيين . وكان نظام الاسر الحاكمة فى الدول الممعنة فى المركزية ـ وهو النظام الذى كان قد نما فى أعقاب الحروب الدينية الكبرى فى القرن السابع عشر ـ قد بلغ عنفوانه . وكانت قصور الملوك فى كل مكان قد اتسعت رقعتها اتساعا عظيما ، فى حين كان يحيط بمدن هذه الممالك مساحات من البيوت الحقيرة تزداد رقعتها على الدوام . وكان سكان هذه البيوت قد أخذت تظهر عليهم امارات القلق ، فقد كانوا لاحول لهم ولا قوة . على أن الطبقات العليا والنبلاء واصحاب المهن كانوا هم ايضا قد اخذت تساورهم الشكوك فى الأحوال الاقتصادية والسياسية التى كانوا يعيشون فى ظلها . فقد كشف لهم انتصار المستعمرين الأمريكيين أن كثيرا من الامور التى كانت تبدو مستحيلة قبل ذلك بوقت قصير ، قد غدت فى حيز الامكان . وشاهد ذلك قول الشاعر أن أول رصاصة أطلقت فى وقعة **لكسنجتون** قد تردد صداها فى العالم أجمع . على أن هذا القول فيه شىء من المبالغة ، لان الصينيين واليابانيين والروس ، ناهيك بالاستراليين واهل جزر هاواى (الذين كان **الكابتن كوك** قد كشف عنهم وشيكا وجازوه بالقتل على مابذل من جهد) ... لم يسمعوا بها قط . ولكن هذه الرصاصة قد جاوزت المحيط الأطلسى ، وسقطت فى مخزن بارود أوربا الساخطة ، واحدثت فى فرنسا انفجارا هز أركان القارة جميعا من بتروغراد الى مدريد ، ودفن تحت أنقاضه ممثلى المدرسة القديمة فى الحكم والسياسة تحت اطنان واطنان من اللبنات الديمقراطية .



الثورة الفرنسية العظيمة تعلن مبادىء الحرية والاخاء والمساواة الى شعوب العالم قاطبة

يقتضينا الواجب أن نقول كلمة الحق فى تفسير مدلول الثورة قبل أن نتحدث عن ثورة من الثورات بحق . والثورة فى قول كاتب روسى كبير ـ وما أحرى الروس بأن يعرفوا مايقولونه فى هذا الشأن ! ـ هى « تقويض سريع يحل فى سنوات قليلة بانظمة تطلب تأصيل جذورها فى الارض قرونا حتى بدت متينة البنيان ، راسخة الأركان ، يشق على اكثر المصلحين حماسة أن يهاجموها فى كتاباتهم . فهى انهيار وتداع يصيب فى وقت قصير كل ما كان الى ذلك الحين جوهر الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية لأمة من الأمم » .

ولقد شبت ثورة من هذا القبيل فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، عندما اصبحت حضارة هذه الأمة عقيما ، لاتنمو ولا تزدهر . وكان الملك فى أيام لويس الرابع عشر قد غدا كل شىء فى الدولة ، بل كان هو الدولة . أما النبلاء الذين كانوا من قبل الخدام المدنيين للدولة المتحدة ، فقد وجدوا أن كواهلهم قد خلت من الواجبات ، وأصبحوا زينة المجتمع فى بلاط الملك .

على أن الدولة الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت تتطلب أموالا طائلة لم تجد مناصا من تحصيلها بالضرائب تفرضها على الشعب . ومن سوء الطالع أن ملوك فرنسا كانوا أعجز من أن يحملوا النبلاء ورجال الدين على أداء نصيبهم منها . فوقع عبء هذه الضرائب كله على كاهل المزارعين . ولكن الفلاحين الذين كانوا يعيشون فى أكواخ حقيرة ، لم تعد صلاتهم طيبة بملاك اراضيهم السابقين ، بل كانوا فريسة وكلاء قساة عاطلين من الكفاية . فازداد حالهم سوءا على سوء ، واخذوا يسائلون أنفسهم : لم يكدون ويكدحون ؟ . وكان ازدياد دخلهم يؤدى الى ازدياد الضرائب المفروضة عليهم ، ولا يعود عليهم ذلك بالمنفعة . فاهملوا حقولهم بمقدار ما أوتوا من شجاعة وجراة . ومن ثم نجد ملكا يرتع وسط مظاهر الابهة الفارغة فى أبهاء قصوره الفسيحة يتبعه فى العادة جماعة من الطامعين فى الوظائف ، وكلهم يعيشون على الدخل المستمد من الفلاحين الذين كانت حالهم لاتفضل حال السائمة فى الحقول . وهذه الصورة سيئة قاتمة ، ولكنها خالية من المبالغة . على أن ثمة ناحية اخرى لما يعرف ب « نظام الحكم القديم » لا ينبغى أن تغيب عن بالنا .

والحق ان وجود طبقة وسطى ميسورة الحال ترتبط بالنبلاء بمقتضى السنة المألوفة ، سنة زواج ابنة رجل من أرباب المال بابن نبيل فقير ، وبلاط يضم أظرف الظرفاء والسمار فى فرنسا كافة — قد رقى بذلك الفن المهذب ، فن الحياة الرشيقة الانيقة الى الاوج . ذلك ان خيرة أصحاب العقول فى فرنسا قد حرم عليهم الاشتغال بمسائل الاقتصاد السياسى ، فأنفقوا أعمارهم الفارغة فى مناقشة الافكار المجردة .

وكانت أنماط التفكير ومذاهب السلوك الشخصى حرية بأن تذهب الى أقصى مدى تبلغه أزياء اللباس . ومن ثم كان من الطبيعى أن يهتم مجتمع تلك الأيام ، الذى أفرط فى الصنعة والتكلف غاية الافراط ، اهتماما بالغا بما كانوا يسمونه بـ « الحياة البسيطة » . فأخذ الملك والملكة وملاك فرنسا أصحاب السلطان المطلق ، وجميع مستعمراتها ومحمياتها ، وحاشية هؤلاء جميعا ، ينطلقون فيعيشون فى بيوت ريفية صغيرة مضحكة ، ويرتدون جميعا لباس بائعات اللبن وغلمان حظائر الخيل ، ويمرحون فى ثيابهم هذه كأنهم رعاة واد سعيد من أودية اليونان القديمة ، وحولهم حاشيتهم يراقصونهم وموسيقيو البلاط يضعون لطائف الألحان ، وحلاقوه يفتنون فى تجهيز أغطية للرأس أحبك وأحكم وأنفس ، حتى دفعت الملالة والخلو من أى عمل جدى هذا العالم المتكلف كله ، الذى كان يقوم فى فرساى (وهو القصر المبهرج الذى بناه لويس الرابع عشر بعيدا عن المدينة الصاخبة المضطربة) الى قصر حديثه على أولئك الرعايا الذين أقصوا اقصاء عن حياته ، كما يقصر الرجل الذى برح به الجوع حديثه على الطعام .

فلما بدأ **ڤولتير** — وهو ذلكم الفيلسوف العجوز الجرىء ، والكاتب المسرحى والمؤرخ والروائى ، والعدو الأكبر لجميع ضروب الاستبداد الدينى والسياسى — يطلق سهام نقده على كل ما يتصل بالنظام الذى كان قائما وقتئذ . . . هلل له الفرنسيون جميعا ، واصبحت مسرحياته لا تمثل الا كلما اجتمع الناس لسماعها .

ولما أخذ **جان جاك روسو** يذوب حسرة على الانسان البدائى ، ويرسم لمعاصريه صورا بهيجة للسعادة التى كان ينعم بها سكان الكرة الارضية الاصليون (وكانت معرفته بهم قليلة لا تزيد عن معرفته بالاطفال مع أنه كان يعد حجة فى تعليمهم وتربيتهم) — أقبل الفرنسيون جميعا على قراءة كتابه « العقد الاجتماعى » ، وذرف هذا المجتمع الذى كانت الدولة والملك فيه شيئا واحدا ، الدموع السخينة عندما سمعوا دعوة روسو الى العودة الى تلك الايام المباركة حين كان السلطان الحقيقى فى يد الشعب ، وكان الملك لا يعدو ان يكون خادما للشعب .

ولما نشر **مونتسكيو** « رسائله الفارسية » التى قلب فيها اثنان من رحالة الفرس المجتمع الفرنسى الذى كان قائما وقتئذ رأسا على عقب ، وسخرا بالجميع : من الملك الى أحقر طاه من طهاته الستمائة الذين كانوا يصنعون له الفطائر — راجت هذه الرسائل من فورها ، حتى لقد طبعت أربع مرات ، واكسبت المؤلف آلافا من القراء أقبلوا على قراءة بحثه الشهير فى « روح القوانين » الذى أظهر فيه بارونا نبيلا يوازن بين النظام الانكليزى المجيد والنظام الفرنسى المتأخر ، وينادى بترك الملكية المستبدة واقامة نظام تكون فيه السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية مستقلة بعضها عن بعض ، يقوم على كل منها رجال لا شأن لهم برجال السلطتين الآخريين .

ولما أعلن الوراق الباريسى **لبرتون** أن السادة **ديدرو ودالمبير وترجو** ونفرا من الكتاب المبرزين اعتزموا أن ينشروا **دائرة معارف** تضم « جميع الآراء الجديدة والعلوم الجديدة والمعارف الجديدة » ، قابل الجمهور ذلك بأعظم آيات الرضا . ولما تم المجلد الثانى والعشرون من هذه الدائرة بعد ثمانية وعشرين عاما ، لم يستطع رجال الشرطة الذين تدخلوا فى الامر بعد فوات الوقت أن يخمدوا الحماسة التى قابل بها المجتمع الفرنسى هذا الاثر العظيم الشأن البالغ الخطورة الذى كان له فضل على المناقشات التى كانت دائرة آنئذ .

ولتسمح لى أيها القارىء بأن أسوق لك فى هذا المقام تحذيرا طفيفا . فأنت اذا قرأت قصة عن الثورة الفرنسية ، أو رأيت مسرحية تعالجها ، فانه من اليسير أن تخرج منها بفكرة : وهى أن هذه الثورة كانت من فعل الرعاع الذين خرجوا من أحياء باريس القذرة . الا أنها لم تكن من ذلك فى شىء . فالرعاع يظهرون فى كثير من الاحيان على مسرح الثورة ، ولكن الذين كانوا يحرضونهم ويقودونهم فى جميع الافعال : هم أولئك الرجال المحترفون من الطبقة الوسطى الذين كانوا يرون فى جماهير العامة الجائعين حليفا قويا لهم فى صراعهم مع الملك وبلاطه .

على أن الأفكار الكبرى التى سببت الثورة ، أبدعتها عقول نفر من الرجال النابهين ، وأدخلت أول الامر فى أبهاء « النظام القديم » البديعة ، لتروح عن سيدات البلاط الملكى وسادته وتبدل من حديثهم الذى ضاقوا به . وأخذ هؤلاء الناس أهل البشاشة واللطف ، بل

أهل الغفلة ، يلعبون بنار النقد الاجتماعى الخطرة حتى تسربت شرارتها من خلال أرض الابهاء ، وكانت هى الاخرى قديمة متداعية كسائر البناء . ثم انبعثت صرخة تنذر بالنار . ولكن رب البيت الذى كان معنيا بكل شيء الا بتدبير ملكه ، لم يعرف كيف يخمد هذا اللهب الصغير ، فاندفع سريعا ، وأتت النيران التى نسميها الثورة الفرنسية الكبرى على البيت كله .

ويمكننا أن نقسم الثورة الفرنسية الى طورين تيسيرا للحديث عنها : الطور الأول ، وهو يبدأ من سنة ١٧٨٩ ، وينتهى سنة ١٧٩١ . وقد بذلت فى هذا الطور محاولة متفاوتة فى اطرادها لادخال نظام الملكية الدستورية . وباءت هذه المحاولة بالخيبة لقلة ايمان القائمين بها ، ولحماقة الملك نفسه ، ولظروف لم يكن لاحد عليها اى سلطان .

والطور الثانى من عام ١٧٩٢ الى عام ١٧٩٩ ، وقد كانت تقوم فيه جمهورية ، كما بذلت خلاله محاولة أولى لاقامة صورة من صور الحكم الديمقراطى . على أن اندلاع نيران العنف والقسوة بالفعل ، قد سبقته عدة سنوات سادها القلق ، وبذلت فيها محاولات كثيرة صادقة للاصلاح ، الا أنها كانت غير مثمرة .

وفى الوقت الذى بلغ فيه دين فرنسا ٤٠٠٠ مليون من الفرنكات ، وكانت خزانتها فيه خاوية على الدوام ، ولم يكن ثمة شيء واحد يستطاع أن تفرض عليه ضرائب جديدة ــ أحس الملك الطيب لويس نفسه ، وكان رجلا حريصا كل الحرص على المال ، يحسن اقتناص الفرص وان كان قليل الحيلة فى السياسة . . بأنه ينبغى أن يفعل شيء ، ومن تم استدعى **روبرت جاك ترجو** وأقامه وزيرا لماليته . وكان آن روبرت جاك ترجو بارون ده لولن رجلا فى أواخر العقد الرابع من حياته يمثل خير تمثيل طبقة الاعيان من أصحاب الاراضى التى كانت آخذة فى الزوال السريع . وكان الى ذلك واليا من ولاة الاقاليم الناجحين واقتصاديا سياسيا هاويا عظيم المقدرة . وقد بذل هذا الرجل كل ما فى وسعه ، ولكنه كان لسوء الحظ لا يستطيع أن يأتى بالمعجزات . فقد كان من المستحيل عليه أن يعتصر الفلاحين المساكين فيجبى منهم ضرائب جديدة . ومن ثم لم يجد بدا من أن يحصل على الاموال اللازمة من النبلاء ورجال الدين الذين لم يؤدوا للدولة قط سنتيما واحدا . وجعله ذلك أبغض الناس فى نظر بلاط فرساى . ثم ان ترجو اضطر الى مواجهة عداوة الملكة **مارى انطوانيت** التى كانت تعادى كل من يجسر على ذكر كلمة « اقتصاد » فى حضرتها . وسرعان ما رمى بأنه « رجل أحلام غير عملى » وانه « أستاذ نظرى » ولهذا تعذر عليه بطبيعة الحال البقاء فى منصبه ، وحمل على الاستعفاء منه عام ١٧٧٦ .

وخلف هذا الاستاذ رجل أوتى النظرة العملية المأثورة عن رجال الأعمال . كان هذا الرجل سويسريا دءوبا يدعى **نكر** ، أصبح من الاثرياء بفضل احتكاره للغلال وبفضل كونه شريكا فى بيت من بيوت المال العالمية . وقد دفعت به زوجته الطموح الى خدمة الحكومة آملة أن يحقق ذلك لابنتها مكانة ومركزا ، وقد غدت هذه الابنة ــ التى تزوجت بعد من البارون **ده ستايل** وزير السويد فى باريس ــ علما من أعلام الادب فى صدر القرن التاسع عشر .

وانخرط **نكر** فى العمل ، مظهرا غيرة محمودة ، كما فعل ترجو سواء بسواء .

وفى عام ١٧٨١ نشر بيانا عن المالية الفرنسية عرضها فيه عرضا دقيقا . على أن الملك لم يفهم شيئا من هذا البيان الحسابى . ذلك أنه كان قد أنفذ وشيكا جنودا الى أمريكا ليعين الامريكيين على الانكليز عدو الطرفين المشترك . على أن هذه الحملة كانت كثيرة النفقة على عكس ما كان منتظرا ، ومن ثم طلب من نكر أن يدبر لها المال اللازم . فلما انصرف عن تدبير هذا المال الى نشر ارقام أخرى ، وعمل احصائيات ، وأخذ يلجأ الى ذلك التحذير الكئيب الذى ينادى بضرورة الاقتصاد أصبحت أيامه معدودة . فصرف عن منصبه فى سنة ١٧٨١ بعد أن رمى بعدم الكفاية فى اداء مهمته .

وخلف الاستاذ ورجل الاعمال ، مالى من ذلك الطراز الذى يبهر الناس ، فهو يمنيهم بربح قدره ١٠٠ ٪ تدره أموالهم كل شهر اذا هم وثقوا فى نظامه الذى لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه . وقد كان هذا الرجل : الا وهو **شارل اسكندر ده كالون** ، موظفا جريئا بنى مستقبله بكده وبعده كل البعد عن مقتضيات الأمانة ونواهى الضمير . وجد « **كالون** » أن البلاد مثقلة بالدين ، ولكنه كان أريبا يعتزم أن يرضى كل انسان ، فابتدع علاجا سريعا . . . فسدد الديون القديمة بعقد ديون أخرى . ولم تكن هذه الطريقة جديدة مستحدثة ، كما أنها كانت منذ أقدم الأزمان وخيمة العاقبة . فلم يمض على ذلك الا سنوات ثلاث أو أقل ، حتى أضيف الى قائمة ديون فرنسا مبلغ يزيد على الثمانمائة مليون فرنك بفضل ذلك الوزير الساحر للألباب الذى كان لا يقلق باله شيء قط ، وكان يمهر

بتوقيعه مبتسما كل طلب يأتيه من صاحب الجلالة وزوجته الملكة الفاتنة التى كانت قد الفت الاسراف فى أيام شبابها التى قضتها فى ڤينا .

وانتهى الامر بأن قرر برلمان باريس نفسه ـ وكان هيئة قضائية وليس هيئة تنفيذية ـ بأنه ينبغى أن يفعل شيء لتدارك الأمر ، مع أن ولاءه للملك لم تكن تشوبه أية شائبة . وأراد **كالون** أن يستدين ثمانية ملايين أخرى من الفرنكات . وكانت سنة شحت فيها محاصيل الغلال ، وأخذ البؤس والجوع بمخانق الناس فى المناطق الريفية . وكانت فرنسا قمينة بأن تفلس الا اذا اتخذ اجراء سليم لتلافى ذلك .



لويس السادس عشر

وكان الملك ، كشأنه دائما ، لايدرك خطورة الموقف . الم يكن من الخير أن يستشار ممثلو الأمة ؟ لم يكن مجلس الطبقات قد اجتمع منذ سنة ١٦١٤ . وكان ثمة من ينادى بدعوة هذين المجلسين بالنسبة لحالة الدعر التى كانت تتهدد البلاد . على أن لويس السادس عشر ، وهو الرجل الذى كان عاجزا دائما عن البت فى الأمور ، رفض أن يبلغ هذا المدى .

وأراد لويس أن يهدىء خواطر الناس الهائجة ، فعقد اجتماعا من الأعيان فى سنة ١٧٨٧ . وانما كان هذا الاجتماع مجلسا عقدته أعرق الأسر ، وناقشت فيه مايمكن عمله وما ينبغى اتخاذه من الاجراءات دون أن يمس ذلك الامتياز الذى أعفى أمراء الاقطاع ورجال الدين من أداء الضرائب .

وكان مما يجافى المنطق أن ننتظر من طبقة معينة من طبقات المجتمع ، أن تنتحر سياسيا واقتصاديا تحقيقا لمصلحة طبقة أخرى من اخوانهم فى الوطن .

وقد رفض هؤلاء الاعيان البالغ عددهم ١٢٧ عينا ، فى اباء واصرار أن يتنازلوا عن حق واحد من حقوقهم القديمة . وطالب جمهور الشوارع الذى كان الجوع قد أخذ يلح عليه ، ويأخذ بمخانقه بأن يعاد **نكر** موضع ثقته الى منصبه ... وأبى الأعيان . فأخذت الجماهير فى الشوارع تحطم النوافذ ، وتأتى من الفعال ماهو مستنكر مستقبح . ففر الأعيان ، وصرف كالون عن منصبه .

وعين خلفا له فى وزارة المالية رجل آخر لالون له هو الكاردينال **لومينى ده بريين** . وهدد رعايا لويس الجائعون بالالتجاء الى العنف والشدة ، فلم يجد لويس بدا من الموافقة على دعوة مجلس الطبقات الى الاجتماع بأسرع ماتسمح به الظروف . على أن هذا الوعد الغامض لم يرض بطبيعة الحال أحدا .

واتفق أن حل بالبلاد شتاء قارس لم تر مثله منذ قرن تقريبا . ذلك أن المحاصيل أتى عليها الفيضان أو تجمدت من الصقيع فى الحقول . وذوت أشجار الزيتون جميعا فى بروڤانس ، وحاولت جمعيات البر ان تفعل شيئا ، ولكن جهدها كان قليلا بالنسبة لسكان فرنسا الجائعين الذين بلغ عددهم اذ ذاك ثمانية عشر مليونا من النفوس . فثار الناس فى كل مكان طالبين الخبز ، وكان الجيش قمينا بأن يخمد مثل هذه الثورة لو أنها شبت قبل ذلك بجيل تقريبا . على أن عمل المدرسة الفلسفية الجديدة كان قد أخذ يؤتى ثماره . ذلك أن الناس بدأوا يدركون أن البنادق ليست علاجا شافيا للبطون الخاوية ، ثم ان الجنود أنفسهم ، الذين خرجوا من بين صفوف الشعب ، أصبحوا لايعول عليهم فى هذا الشأن . وبات من أوجب الأمور أن يفعل الملك شيئا حاسما ليستعيد ثقة الناس ، ولكن التردد عاوده .

وأقيمت فى انحاء متفرقة من الولايات الفرنسية جمهوريات صغيرة مستقلة على يد أتباع المدرسة الجديدة . وعلت الصيحة «بأن لا ضرائب من غير تمثيل» بين صفوف الطبقة المتوسطة المخلصة ، وهى الصيحة

التى كانت قبل ذلك بربع قرن شعار الثوار الأمريكيين . وحاقت الفوضى العامة بفرنسا . وأرادت الحكومة أن تهدىء خواطر النـاس ، وأن تزيد فى استمالتهم الى الملك ، فأوقفت على غير انتظار الرقابة الشديدة الصارمة التى كانت مضروبة على الكتب ، فانهال على فرنسا فى الحال طوفان منها . فكان كل فرد كبر مقامه أو صغر ينتقد وينتقد ، ونشرت أكثر من ٢٠٠٠ رسالة . وأطاحت عاصفة من المثالب والشتائم بلومينى ده بريين ، واستدعى نكر على عجل ليهدىء ما وسعه من القلق الذى عم أفراد الشعب . فارتفع سوق الاوراق المالية فى الحال بنسبة ثلاثين فى المائة . وباتفـاق الجميع رضى النـاس بأن يؤجلوا حكمهم على الامور فترة قصيرة أخرى . وحدد موعـد لاجتماع مجلس الطبقات فى مايو سنة ١٧٨٩ ، وعندئذ سوف تعجل حكمة الأمة جمعاء بحل تلك المشكلة العويصة ، ألا وهى اعادة المملكة الفرنسية الى حال من السلامة والسعادة .

على انه قد ثبت أن هذه الفكرة السائدة ، فكرة أن حكمة الشعب كافة سوف تتغلب على جميع المصاعب ، كانت وخيمة العاقبة . فقد عرقلت جميع الجهود الشخصية التى كان يمكن أن تبذل فى خلال هذه الشهور الكثيرة الهامة .

ولم يعمد نكر الى الاحتفاظ بمقاليد الحكم فى يديه فى هذه الفترة الحرجة ، بل ترك كل شىء يسير الى غير غاية . ومن ثم انطلق الناس من جديد يتناقشون محتدين فى خير الوسائل لاصلاح المملكة القديمة . واخذت قبضة الشرطة تتراخى فى كل مكان . وبدأ الجمهور فى ضواحى باريس ، يقوده محرضون من المحترفين ، يحس بقوته . وشرع يلعب الدور الذى قدر له أن يلعبه خلال سنوات الفتنة الكبرى ، حينما أصبح القوة الغاشمة التى اصطنعهـا زعماء الثـورة الحقيقيون لينالوا بها مالم يستطيعوا أن ينالوه بالطريقة المشروعة .

وأراد نكر ان يلهى فلاحى الطبقة الوسطى بلقمة ، فاستقر رأيه على أنه ينبغى أن يتـاح لهم التمثيـل المزدوج فى مجلس الطبقات . وقد كتب الاب سييز آنئذ رسالة مشهورة فى هذا الموضوع تساءل فيهـا « ما شأن الطبقة الثالثة ؟ » .

وانتهى الى القول بأن الطبقة الثالثة — وهو الاسم الذى اطلق على الطبقة الوسطى — يجب أن يكون لها شأن فى كل شىء ، وان لم يكن لها فى الماضى شأن فى أى شىء ، وهى الآن تطالب بأن يكون لها شأن فى أى شىء .

وقد عبر سييز بذلك عما يشعر به جمهور الشعب الذى كان يغار على مصلحة البلاد من قلبه .

ثم حدث آخر الأمر أن أجريت الانتخابات فى أسوأ ما يتصور من ظروف ، فلما انتهت حمل ٣٠٨ من رجال الدين و٢٨٥ نبيلا و٦٢١ ممثلا للطبقة الثالثـة عدتهم ليشخصوا الى فرساى . أما الطبقة الثالثة فقد اضطرت الى الاستزادة من عدتها . وكانت هذه العدة تقارير ضخمة عرفت بالكراسات ، سجل فيها كثير من شكاوى ناخبيهم ومظالمهم . وأعد المسرح للفصل العظيم الأخير الذى قصد به الى انقاذ فرنسا .

واجتمع مجلس الطبقات فى ٥ مايو سنة ١٧٨٩ ، وكان الملك مهموما . أما رجال الدين والنبلاء فقد كان من المعروف أنهم قد عقدوا العزم على ألا يتخلوا عن امتياز واحد من امتيازاتهم . وأمر الملك بأن تجتمع كل طبقة من طبقات المجلس الثلاث على حدة فى غرف مستقلة ، وان تتناقش كل منها فى مظالمها بعيدة عن الأخرى .

وأبت الطبقة الثالثة أن تطيع ما أمر به الملك ، واقسم ممثلوها ايمانا مغلظة على ذلك فى باحـة من باحات التنس أعدت على عجل لهذا الاجتماع غير المشروع ، وكان هذا القسم فى العشرين من يونية سنة ١٧٨٩ . واصر هؤلاء على أنه ينبغى أن تجتمع الطبقات الثلاث جميعا ، وهى النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثـة وأبلغوا جلالته ذلك ... فسلم .

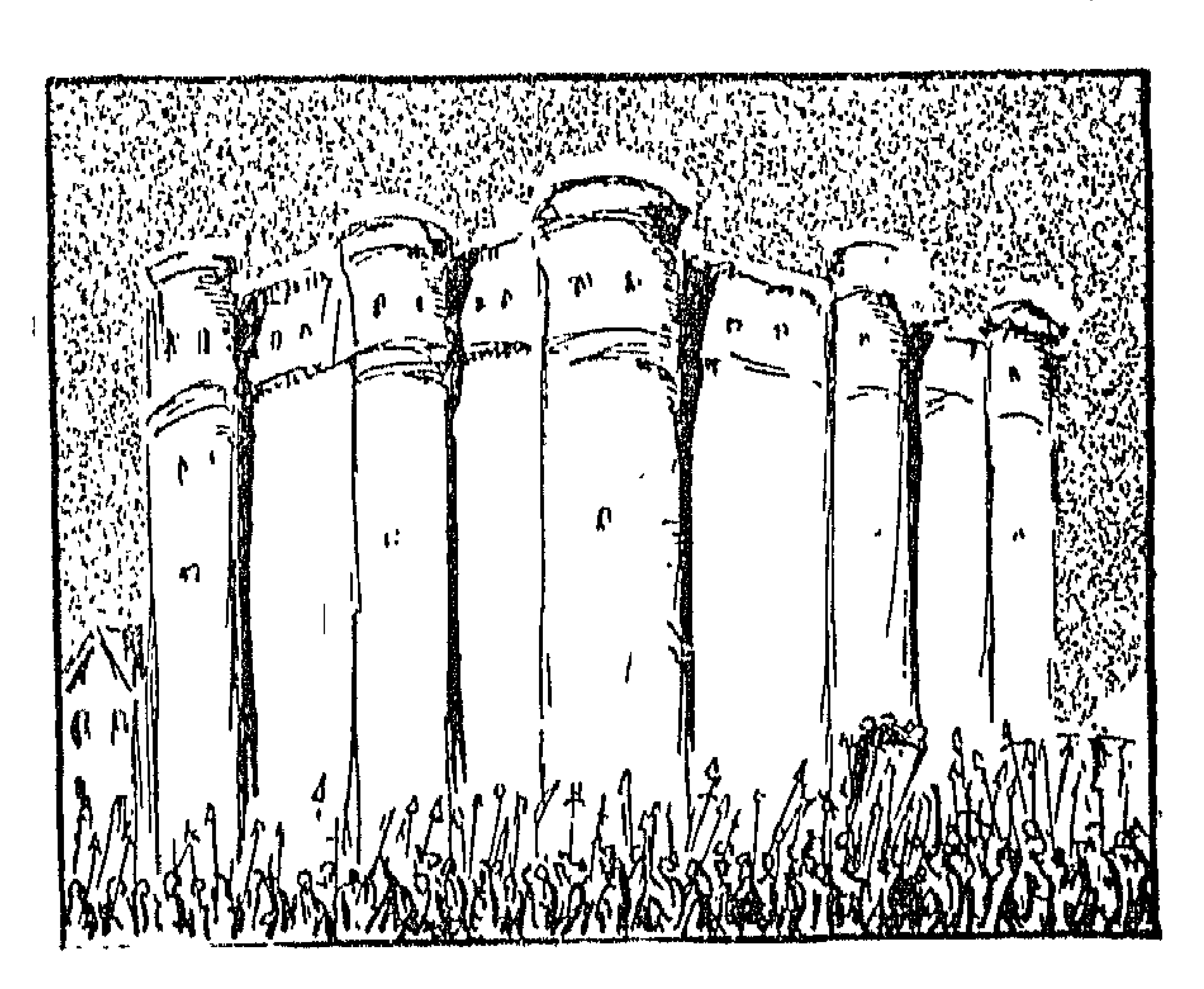
وبدأ مجلس الطبقات يناقش حالة المملكة الفرنسية بوصفه « جمعية وطنية » وغضب الملك . ثم عاوده تردده ، وقال أنه لن يسلم فى سـلطته المطلقة . ثم خرج الى الصيد ونسى كل مهام الدولة ، ولما عاد من صيده استسلم . ذلك أنه جرى عـلى أن يتصرف التصرف السليم فى غير وقته وعلى نحو مخطىء : فاذا طالب الشعب بكذا ، عنفه الملك ولم يعطه شيئا . على أنه سلم عندما أحاطت بالقصر جماهير صاخبـة من الشعب الجائع ، وأعطى رعاياه ماطلبوه . ولكنه ما ان حان هذا الوقت حتى كان الشعب يطالب بكذا وكيت .. فتكررت المهزلة . ولما وقع الملك مرسوما ملكيا يمنح شعبه المحبوب كذا وكيت ، كان الشعب يهدد بقتل الأسرة المالكة جميعا ان لم يحصل على كـذا وكيت وكيت . وهكذا كان شأنه حيال طلبات الشعب المتوالية حتى انتهى به الأمر الى المقصلة .

ومن سوء الحظ أن الملك كان دائما لا يتصرف الا بعد ان يفوته الشوط بخطوة . ولكنه لم يدرك ذلك

قط ، بل هو قد أحس ــ وعنقه تحت المقصلة ــ بأنه رجل مبتلى تكاثرت أرزاؤه ، رجل لقى بغير ما مبرر أسوأ المعاملة على يد شعبه الذى أضمر له كل ما فى طاقته المحدودة من حب .

على أن كلمة « لو » لن يكون لها فى التاريخ قط أية جدوى كما سبق أن حذرتكم مرارا . وما أيسر أن نقول أن الملكية كانت خليقة بأن تنقذ لو أن لويس كان أبعد همة واقل رحمة ! ولكن الملك لم يكن وحده فى الميدان . بل « لو » أن الملك قد أوتى ما أوتى نابليون من قوة لاتعرف الرحمة أو الشفقة ، لكانت سيرته فى تلك الأيام الحرجة خليقة بأن تفسد على أهون سبيل بفعل زوجته ابنة **ماريا تيريزا** ملكة النمسا ، تلك الزوجة التى كانت تتصف بجميع الفضائل والرذائل المعهودة فى فتاة شابة نشأت فى أحضان بلاط عرف بأنه كان اشد بلاط فى هذا العهد اخذا بالأساليب الاستبدادية وأساليب القرون الوسطى .

واستقر راى الملكة على انه يجب أن يفعل شىء ، ودبرت ثورة على الثورة . وصرف نكر عن منصبه فجأة ، واستدعى الجنود الموالون للملك الى باريس ،



الباستيل

فلما سمع الشعب بذلك أقتحم قلعة سجن **الباستيل** ، وحطموا ذلك الرمز المعهود الممقوت للسلطة الاستبدادية ، وعاد هذا السجن لايستعمل منذ هذا التاريخ البعيد للأغراض السياسية دون سواها ، بل أصبح يستعمل الآن معتقلا من معتقلات المدن ، شأنه فى ذلك شأن سائر السجون فى باريس . على أن الملك لم يحرك ساكنا كما هو شأنه ، ذلك أنه كان فى رحلة من رحلات الصيد فى اليوم الذى سقط فيه الباستيل ، ظفر فيها بعدد من الايايل ، وكان راضيا مغتبطا أشد الاغتباط .

وشرعت الجمعية آنئذ فى العمل ، وفى الرابع من أغسطس قرر أعضاؤها ــ وصيحات الجماهير الباريسية ترن فى آذانهم ــ الغاء جميع الامتيازات . وتلا ذلك « اعلان حقوق الانسان » فى السابع والعشرين من هذا الشهر ، وكان اعلان هذه الحقوق هو الديباجة المشهورة التى استهل بها الدستور الفرنسى الأول .

وكانت الأمور الى ذلك الحد تسير سيرا حسنا ، على أن البلاط لم يتعظ فيما يظهر بالدرس الذى تلقاه . فقد ساور النفوس شك فى أن الملك كان يحاول التدخل مرة أخرى فى هذه الاصلاحات ، ومن ثم انطلق الشعب ثانية فى باريس فى الخامس من اكتوبر ، وامتد الى فرساى ، ولم تهدأ خواطر الناس الا عندما أعادوا الملك الى قصره فى باريس . ذلك أنهم لم يكونوا يأمنون جانبه وهو مقيم فى فرساى . ورغبوا أن يكون مقامه حيث يستطيعون السهر عليه ومراقبة مكاتباته مع اقربائه فى بلاط فينا ومدريد وغيرهما من حواضر أوربا .

وفى الوقت نفسه كان **ميرابو** النبيل الذى اصبح زعيما للطبقة الثالثة ، قد اخذ يعبث بالنظام فى الجمعية الوطنية ويحيله الى فوضى . على أنه توفى فى الثانى من ابريل سنة ١٧٩١ قبل أن يتمكن من انقاذ موقف الملك . وبدأ الملك يخشى على حياته فحاول الهرب فى ٢١ يونية . ولكن أمره كشف بفضل صورته المضروبة على احدى قطع العملة ، وأوقفه رجال من الحرس الوطنى بالقرب من قرية فارن ، وأعيد الى باريس .

وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ تمت الموافقة على الدستور الفرنسى الأول ، وعاد أعضاء الجمعية الوطنية الى بيوتهم . واجتمعت الجمعية التشريعية فى أول اكتوبر سنة ١٧٩١ لاتمام العمل الذى قامت به الجمعية الوطنية . وقد ضم هذا الاجتماع الجديد لممثلى الشعب كثيرا من الاشخاص المتطرفين فى الثورة . وكان أجرأ هؤلاء هم المعروفين باليعاقبة نسبة الى الدير اليعقوبى القديم الذى كانوا يعقدون فيه اجتماعاتهم السياسية .

وقد القى هؤلاء الشبان الذين كان ينتسب معظمهم الى طوائف ارباب الحرف خطبا بالغة العنف ، فلما نقلت الصحف هذه الخطب الى برلين وفينا استقر رأى ملك بروسيا والامبراطور على أنه ينبغى لهما ان يفعلا شيئا لينقذا أخاهما الصالح وأختهما الطيبة . وكانا فى هذا الوقت ذاته منهمكين فى تقسيم مملكة بولندا ، حيث كانت الاحزاب السياسية المتنافسة قد أحالتها الى درجة من الفوضى جعلتها تحت رحمة أى

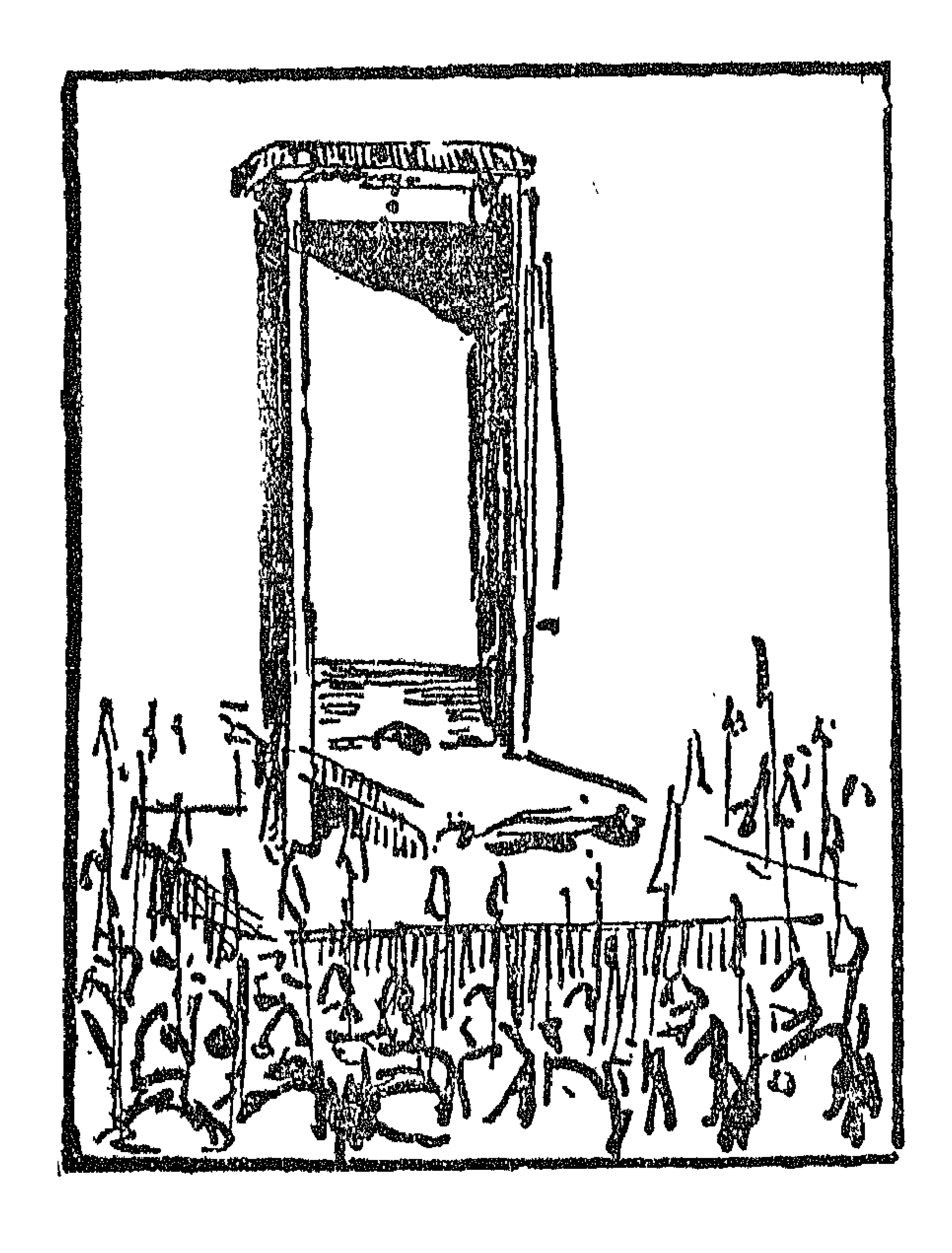
شخص يريد أن يسلخ منها ولاية أو ولايتين . على أنهما دبرا انفاذ جيش لغزو فرنسا وانقاذ الملك .

وعندئذ اجتاحت فرنسا موجة عارمة من الذعر . وبلغ مرجل الحقد الدفين الذى ولدته تلك السنوات التى قضاها الشعب فى الجوع والآلام حد الانفجار المريع . فاقتحم رعاع باريس قصر التويلرى . وحاول رجال الحرس السويسرى المخلصون الدفاع عن مولاهم ، الا أن لويس عجز عن أن يحزم رأيه ، وأمر الحرس بأن يكف عن اطلاق النار فى الوقت نفسه الذى كانت فيه جموع الدهماء آخذة فى الارتداد . فما كان من هؤلاء السكارى بنشوة الدماء والجلبة والخمر الرخيصة ، الا أن قتلوا الحرس السويسرى حتى آخر رجل ، ثم اقتحموا القصر واقتفوا أثر لويس الذى كان قد احتمى فى قاعة اجتماع الجمعية الوطنية ، ثم أوقفوه عن الحكم على الفور ، ونقلوه من هناك أسيرا الى **قلعة المعبد** القديمة .

على أن جيوش النمسا وبروسيا استمرت فى تقدمها ، واستحال الذعر فى فرنسا الى هوس جعل الرجال والنساء أشبه بالحيوانات المفترسة .

وفى الأسبوع الاول من سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، اقتحمت الغوغاء السجون وقتلت المسجونين جميعا ، ولم تتدخل الحكومة فى ذلك . وأدرك اليعاقبة يقودهم **دانتون** أن هذه الأزمة اما أن تؤدى الى نجاح الثورة واما الى اخفاقها ، وانه لانجاة لهم الا اذا ركنوا الى أشد ضروب الجراة الوحشية . وانفضت الجمعية التشريعية فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، واجتمع مؤتمر وطنى جديد ، وكان هذا المؤتمر هيئة جل أعضائها من غلاة الثوريين . واتهم الملك رسميا بالخيانة العظمى ، وسيق الى حضرة المؤتمر ، وقرر المؤتمر ادانته بأغلبية قدرها ٣٦٠ صوتا من ٣٦١ وحكم باعدامه . وكان الصوت الوحيد الذى جاء فى صفه هو صوت ابن عمه الدوق **أورليانز** . وفى يوم ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ سيق الى المقصلة ، وتقبل ذلك بسكينة ووقار عظيمين . ولم يدرك قط فيم اطلقت كل هذه الرصاصات ؟ وعلام كل هذه الضجة ؟! لقد كان لويس أرفع من أن يسأل عن سبب ذلك .

ثم انقلب اليعاقبة على المعتدلين من رجال المؤتمر ، الا وهم الجيرونديون ، الذين نسبوا الى ذلك الاقليم الجنوبى الذى خرجوا منه... وهو اقليم جيروند . وأنشئت محكمة ثورية خاصة قضت باعدام واحد وعشرين اماما من ائمة الجيرونديين ، وانتحر الباقون . وكان هؤلاء رجالا مقتدرين مخلصين كانوا أكثر فلسفة

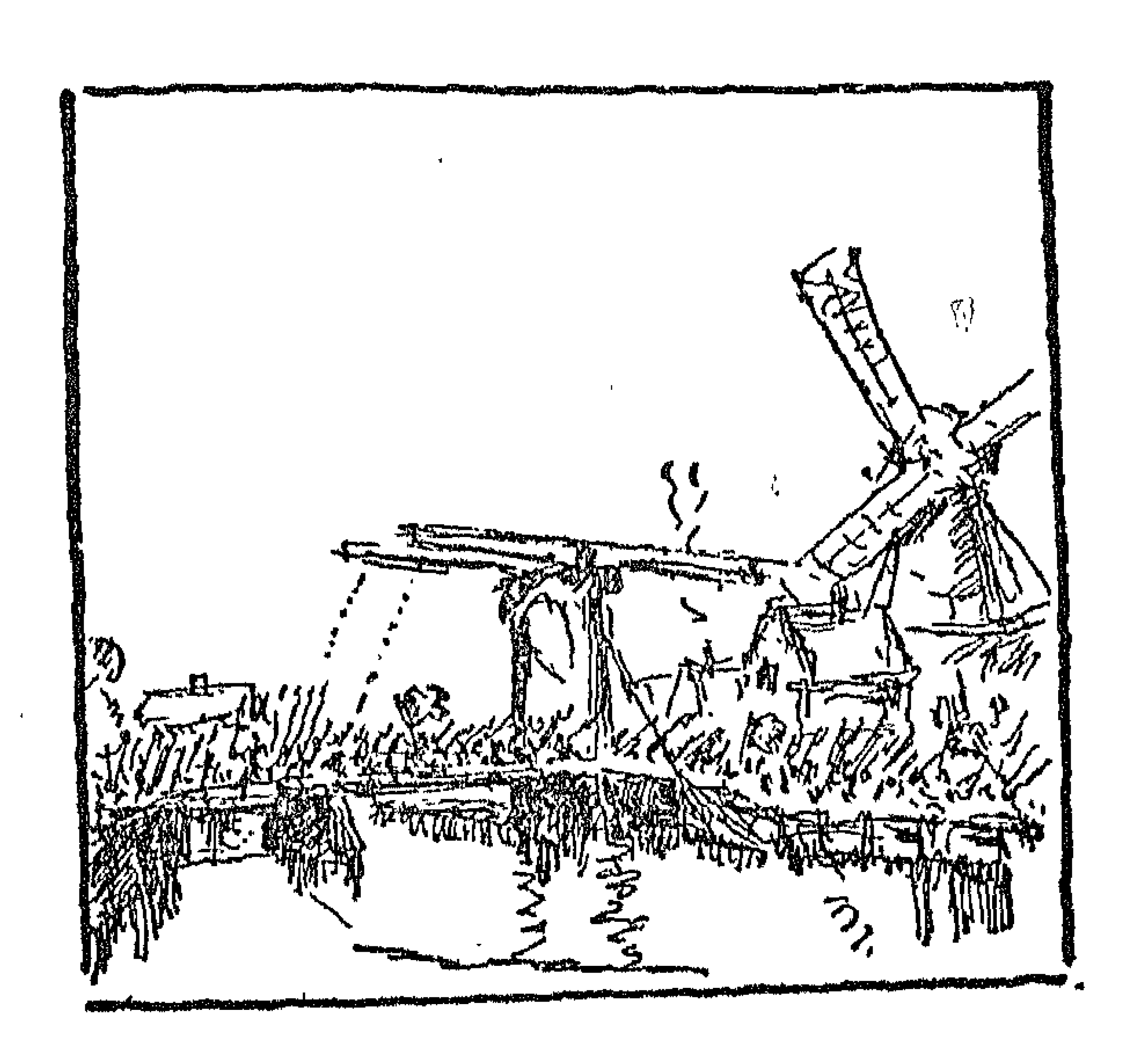


المقصلة

وأشد اعتدالا ، من أن يحتفظوا بحياتهم فى هذه السنين الحافلة بالفظائع والشناعات .

وفى أكتوبر سنة ١٧٩٣ أوقف اليعاقبة الدستور « حتى يحل الوقت المناسب لاعلان السلام » . ووضعت مقاليد السلطة جميعا فى يد شرذمة عرفت بلجنة الأمن العام على رأسها **دانتون وروبسبيير** . وابطل الدين المسيحى ، والغى التقويم القديم . وحل « عصر العقل » الذى كتب عنه **توماس پين** كتابة غاية فى البلاغة خلال الثورة الأمريكية ، واقترن هذا العصر بالارهاب الذى قتل فى مدى عام او أكثر اناسا من الصالحين والأشرار ، وممن لا ناقة لهم فى الامر ولا جمل بمعدل سبعين أو ثمانين شخصا فى اليوم .

قضى على حكم الملك الاستبدادى ، وحل محله طغيان طائفة قليلة من الناس ، هاموا بفضيلة الديمقراطية هياما حملهم على قتل كل أولئك الذين اختلفوا معهم فى الرأى . واستحالت فرنسا الى مجزر تحز فيه الرقاب . وكان كل فرد يشك فى غيره ، فلم يأمن أحد على نفسه . وتملك الخوف وحده نفرا من أعضاء المؤتمر القديم ، وأحسوا بأنهم سوف يكونون الضحية التالية للمقصلة ، فانتهوا الى الانقلاب على **روبسبيير** ، الذى كان قد أطاح بالفعل برءوس

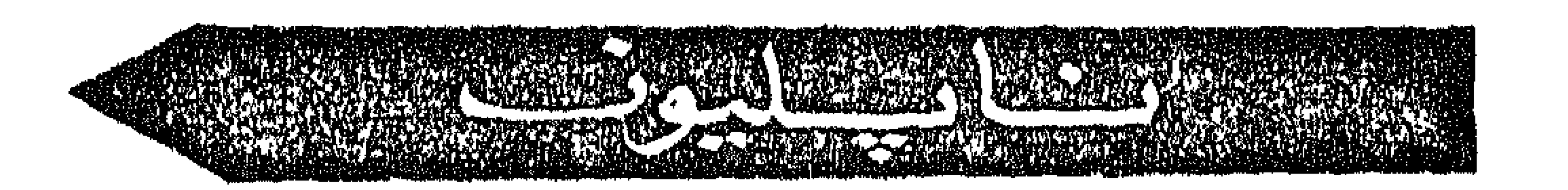


الثورة الفرنسية تغزو هولنده

معظم زملائه السابقين. وحاول روبسبير «الديمقراطى الحق الاوحد الذى لا تشوب ديمقراطيته شائبة» أن يقتل نفسه، ولكن سعيه خاب. وضمد فكه المحطم على عجل، وسيق الى المقصلة. وفى اليوم السابع والعشرين من يوليه سنة ١٧٩٤ — الموافق ٩ ترميدور من السنة الثانية لتقويم الثورة العجيب — انتهى عهد الارهاب ورقصت باريس فرحا.

على أن موقف فرنسا الخطر قد استوجب بقاء مقاليد الحكومة فى يد نفر من الرجال الاقوياء حتى يتيسر اخراج اعداء الثورة الكثيرين من أرض الوطن ... فرنسا ..

وعين خمسة مديرين فى الوقت الذى كانت فيه جيوش الثورة المهلهلةاللباس، الخاويةالبطون، تخوض مستيئسة معارك الرين وايطاليا وبلجيكا ومصر، وتهزم كل أعداء الثورة الكبرى واحدا واحدا، وقد حكموا فرنسا اربع سنوات. ثم وضعت السلطة فى يد قائد ظافر يدعى **نابليون**، وهو الذى أصبح قنصل فرنسا الاول عام ١٧٩٩. واصبحت قارة اوربا القديمة فى السنوات الخمس عشرة التالية حقلا لعدة تجارب سياسية لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل.



ولد **نابليون** عام ١٧٦٩، وهو الابن الثالث **لكارلو ماريا بونابرت** من زوجته الصالحة ليتتزيا رامولينو. وكان كارلو كاتب عقود حميد السيرة فى مدينة أجاكسيو بجزيرة قورشقة، ومن ثم فان بونابرت لم يكن فرنسيا، بل كان ايطاليا. وكانت قورشقة مسقط راسه، مستعمرة يونانية قديمة فى البحر المتوسط، ثم انتقلت الى أيدى القرطاجنيين ثم الى الرومان، وظلت سنوات تكافح فى سبيل استعادة استقلالها من الجنويين أول الامر، ثم من الفرنسيين بعد منتصف القرن الثامن عشر. وكان الفرنسيون قد بذلوا مساعدتهم عن طيب خاطر لاهل قورشقة فى نضالهم من أجل حريتهم، ثم احتلوا الجزيرة كى يستغلوها لمنفعتهم الخاصة.

وكان **نابليون** الشاب، خلال السنوات العشرين الاولى من حياته، وطنيا قورشقيا احترف الوطنية، وكان اشبه برجال الشين فين، يريد أن يخلص وطنه المحبوب من نير العدو الفرنسى الذى كان أهل وطنه يمقتونه مقتا شديدا. ولكن الثورة الفرنسيةاعترفت على غير انتظار بحقوق القورشقيين. وانساق نابليون رويدا رويدا فى خدمة وطنه الثانى فرنسا، وكان قد تلقى تعليما عسكريا حسنا فى مدرسة بريين الحربية، واصبح فرنسيا على الرغم من انه لم يعرف قط أن يكتب اللغة الفرنسية كتابة صحيحة أوينطقها نطقا فصيحا لا تشوبه تلك اللكنة الايطالية المطوطة، بل هو قد غدا فى الوقت المناسب خير من يمثل الفضائل الفرنسية جميعا، وهو يعد اليوم رمز العبقرية «الغالية».

وكان نابليون من أولئك الذين يقال لهم ارباب العمل الخاطف، ذلك أن سيرته المثلى لم تستغرق أكثر من عشرين عاما. ففى هذه الفترة الوجيزة استطاع نابليون أن يأتى من الفعال ما لم يستطعه اضرابه جميعا، ولا نستثنى من ذلك الاسكندر الاكبر

أو جنكيز خان ... فقد خاض من الحروب أكثر مما خاضوا ، وأحرز من الانتصارات أكثر مما أحرزوا ، وسار من الاميال أكثر مما ساروا ، وفتح من الاراضى أكثر مما فتحوا ، وقتل من الناس أكثر مما قتلوا ، وهو - بصفة عامة - قد قلب الاحوال فى أوربا قلبا لم يعرف له مثيل .

كان نابليون رجلا قلة ، ولم يكن فى السنوات الاولى من حياته فى كامل صحته ، وما من مرة قط اثرت طلعته فى الناس ، وظل منظره الى آخر أيامه لاتستسيغه العيون أينما اقتضته الظروف الى الظهور فى مناسبة من المناسبات الاجتماعية . فلم تكن له ميزة واحدة من ميزات الحسب والثروة ، وكان فى الشطر الاكبرمن شبابه مملقا ، وما أكثر ماكان يبيت على الطوى ، أو يضطر الى سلوك طرق ملتوية للحصول على بضعة دريهمات . وكان نابليون لايبشر بمستقبل ادبى باهر ، ذلك انه قد تقدم للحصول على جائزة اكاديمية ليون ، فكان ترتيب الموضوع الذى تقدم به قبل الأخير ، أى أن ترتيبه كان الخامس عشر من بين المتبارين الذين بلغ عددهم ستة عشر شخصا .

على أن نابليون تغلب على هذه الصعوبات جميعا بفضل ايمانه المطلق الذى لا يتزعزع بمصيره ومستقبله المجيد . وكان الطموح هو الحافز الاكبر فى حياته ، فان تفكيره فى ذاته ، وتقديسه لحرف النون الذى كان يمهر به جميع رسائله ، والذى كان يتردد دائما فى زينة قصوره التى كان ينشئها على عجل ، وعزمه الاكيد على أن يجعل اسم نابليون أهم شىء فى العالم بعد اسم الله ... كل هذه الرغبات حملت نابليون الى غاية من الشهرة لم يبلغها رجل من قبل .

وكان نابليون - وهو بعد ملازم فى الجيش يتقاضى نصف اجر - مولعا بكتاب سير مشاهير الرجال للمؤرخ اليونانى **بلوتارخ** . ولكنه لم يحاول قط أن يرقى بحياته الى ذلك المستوى الخلقى الرفيع الذى رسمه أبطال تلك الايام الغابرة . والظاهر أن نابليون كان مجردا من جميع المشاعر المعقولة المتزنة التى تميز الانسان عن الحيوان . ومن اشق الامور أن نقرر على وجه اليقين : هل اتفق لنابليون أن احب أحدا الا نفسه ؟ .. صحيح انه التزم حدود الادب فى حديثه مع امه ، ولكن ليتزيا كانت تتوفر فيها شمائل السيدة العظيمة وخصالها ، وكانت على غرار الامهات الايطاليات تعرف كيف تسوس أطفالها وتفرض عليهم احترامها . وظل نابليون بضع سنوات مغرما بجوزفين زوجته المولدة الجميلة ، وكانت ابنة ضابط فرنسى من المارتنيك ، وأرملة الفيكونت بوهارنيه الذى قتله روبسبير ، لأنه هزم فى الوقعة التى نشبت بين الفرنسيين والبروسيين . على أن الامبراطور طلقها لانها لم تعقب له ولدا يرث عرشه ، وتزوج من ابنة أمبراطور النمسا ، لأنه رأى أن ذلك من حسن السياسة .

وقد درس نابليون كتاب مكيافيللى بعناية فائقة فى أثناء حصاره لمدينة طولون ، وهو الحصار الذى اكتسب فيه نابليون شهرة كبيرة بوصفه قائد احدى فرق المدفعية . ولقد سار نابليون على هدى هذا السياسى الفلورنسى ، فكان لايفى بعهده قط اذا رأى ان المصلحة تقتضيه التحلل منه ، ولم يكن لكلمة عرفان الجميل مكان فى قاموسه . ومن الانصاف ان نقول انه لم يكن يتوقعها من غيره . فلم يكن يبالى قط بشقاء الانسان ، فقد قتل أسراه فى الحرب « بمصر عام ١٧٩٨ » بعد أن أمنهم على حياتهم ، وكذلك لم يبال بأن يترك جنوده الجرحى فى سورية نهبا للموت عند ما رأى استحالة نقلهم على ظهور السفن .

وأمر بالحكم على الدوق **انجين** بالموت على يد محكمة عسكرية متحيزة ، وأن يقتل رميا بالرصاص مخالفا فى ذلك جميع القوانين ، ومتذرعا بسبب واحد وهو « أن البوربون كانوا فى حاجة الى انذار وتحذير » . وأصدر حكمه بأن يرمى بالرصاص أولئك الضباط الالمان الذين أسروا وهم يقاتلون فى سبيل استقلال بلادهم عند أقرب حائط . ولما وقع فى يده البطل التيرولى **اندرياس هوفر** ، بعد أن أبلى فى القتال أعظم البلاء ، قتله كما يقتل اى خائن من طغام الخونة .

وصفوة القول أننا اذا ما درسنا أخلاق هذا الامبراطور وطباعه ، بدأنا نفهم مسلك أولئك الامهات البريطانيات المتلهفات اللائى جرين على سوق أولادهن الى سررهم متوعدات بأن « بونابرت الذى كان يفطر على الصبيان والبنات الصغار سوف يأتى ويخطفهم اذا لم يكن مسلكهم حميدا طيبا » .

أما وقد ذكرت هذه المساوىء الكثيرة عن ذلك الطاغية العجيب الذى كان يعنى اشد العناية بكل ناحية من نواحى جيشه ، اللهم الا الخدمة الطبية فكان يهملها ، والذى كان يتلف ثيابه الرسمية بالعطور ، لانه كان لايطيق رائحة العرق تفوح من جنوده المساكين .. أقول اننى مع ذكرى لكل هذه المساوىء ،

واستعدادى الكامل لذكر مساوىء أخرى كثيرة ، فانه لا مناص لى من التسليم بأن شعورا من الشك يتحير فى نفسى ...

وهأنذا أجلس الآن الى مائدة مريحـة مثقلة بالكتب : أنظر بعين الى الآلة الكاتبة وبالعين الأخرى الى القطـة ليكوريس المولعـة باللعب بأوراق الكربون ، واقص عليك أن الامبراطور نابليون كان أهلا لاشـد الاحتقار . على أنه لو اتفق لى أن أرسلت ببصرى من خلال النافذة ، وهبطت به الى الشارع السابع فرأيت ذلك الموكب الذى لا ينتهى من سيارات النقـل والعربات ، قد توقف فجأة عن المسير ، وطرق سمعى صـوت الطبول الضخمة ، ورايت ذلك الرجل القلة ممتطيا صهوة جواده الأشهب مرتديا لباسه الرسمى القديم الاخضر الذى كان يؤثره على غيره ... فلست أدرى ما أنا فاعل ؟ ! ولكنى أخشى أن أترك كتبى وقطتى ومنزلى وكل شيء آخر لأتبع هذا الرجل حيثما سار .

لقد فعل ذلك جدى ، والله يعلم أنه لم يخلق ليكون بطلا . ولقد فعل ذلك أجداد ملايين غيرى من الناس لم يلقوا جزاء ، ولكنهم كانوا لا ينتظرون الجـزاء . كانوا يجودون عن طيب خاطر بأرجلهم واذرعهم وأرواحهم فى خدمة هذا الاجنبى الذى انتقل بهم آلاف الاميـال بعيدا عن موطنهم ، وسيرهم فى وجه ستار من المدافع الروسـية أو الانكليزية أو الاسبانية أو الايطاليـة أو النمسوية ، واخذ يحملق فى الفضاء فى هدوء وسكون فى حين كانوا يترنحون بين براثن الموت .

ولو انك سألتنى تفسيرا لذلك ، فـلا مناص من الاجابة بأن ليس فى جعبتى أى تفسـير ، وكل ما استطيعه هو أن أخمن سببا من الاسباب . لقد كان نابليون اعظم ممثل ، وكانت قارة اوربا بأسرها مسرحا له . كان يعرف فى جميع الاوقات وفى كل الملابسات الوضع الصحيح الذى يؤثر فى النظارة أعظم التأثير ، كما كان يعرف الكلمات التى تؤثر فى النفوس أشد الاثر ، فكان يستوى عنده أن يتحدث فى صحراء مصر فى ظل الجلال المنبعث من الاهرام وأبى الهول العظيم ، او يخاطب جنوده المقرورين فى سهول ايطاليا المبللة بالندى . ذلك انه كان يملك ناصية الموقف فى كل الظروف ، بل كان قطب المسرح حتى فى آخر ايامه عند ما كان منفيا فى تلك الصخرة الصـغيرة بجزيرة سانت هيلانه وسط المحيط الأطلسى ، عليلا يعيش تحت رحمة حاكم بريطانى بليـد الحس لا تأخذه هوادة ولا سماحة .

لم ير احد قط الامبراطور العظيم بعد وقعة واترلو الا نفر من اصـدقائه المخلصين . كان أهـل اوربا قد عرفوا ان نابليون يعيش فى جزيرة سانت هيلانه ، وان الحامية الانكليزية تقوم على حراسته ليل نهار . وكانوا يعلمون أيضا أن الاسـطول الانكليزى يحمى هـذه الحاميـة التى تحـرس الامبراطور فى مزرعة بلنجوود . على أنه لم يغب قط عن أذهـان أعدائه واصدقائه على السواء ، فلما هده المرض واليـأس آخر الأمر كانت عيناه الساكنتان دائبتين على التحويم فى العالم ، بل لا يزال له الآن شأن فى حياة فرنسا كما كان منذ مائة سنة مضت حينما كان الناس يرتعدون هلعا بمجرد ان تقـع أعينهم على وجه هذا الرجل الشاحب الذى جعل أقدس معابد الكرملين فى الروسيا حظيرة لجياده ، والذى كان يعامل البابا والملوك الصيد معاملة السيد لخدامه .

ويقتضى مجرد الالمـام بحياته مجلدين . ولـو أردت أن أذكر لك قصة اصلاحه السـياسى العظيم للحكومة الفرنسية والقوانين الجديدة التى استنها والتى سارت عليها معظم الدول الاوربية ، وعن نشاطه فى مختلف ميادين الخدمة العامة ... لتطلب ذلك عدة آلاف من الصفحات . ولكنى استطيع ان أفسر لك فى كلمات قليلة لم كان نابليون ناجحا كل هذا النجاح خلال القسم الاول من سيرته ، ولماذا منى بالفشل فى السنوات العشر الأخيرة من حياته ؟ .

كان نابليون فى السنوات ما بين ١٧٨٩ و١٨٠٤ ، قائد الثورة الفرنسية العظيم ، فلم يكن فى حروبه يسعى الى مجده الخاص فحسب ، فقد هزم النمسا وايطاليا وانكلترا والروسيا لانه كان وجنوده رسل العقيـدة الجديدة ، وهى الحرية والاخاء والمساواة ، وكانوا فى الوقت ذاته أعداء الملوك الآخرين وأصدقاء الشعب .

على أن نابليون أقام نفسـه عام ١٨٠٤ امبراطورا على فرنسا ، وجعل العرش وراثيا فى بيته ، وطلب من البابا **بيوس** السابع الحضور لتتويجه ، كما حدث أن توج البابا ليو الثالث فى عام ٨٠٠ ملكا عظيما هو **شارلمان** آخر ملوك الفرنجة الذى كان المثـل الذى يحتـذيه نابليون دائما فى كل فعاله . وما ان اعتلى نابليـون العرش حتى اصبح هذا الزعيم القديم من زعماء الثورة يقلد ملوك آل هابسبورج تقليدا لم يصب فيه نجاحا ، ونسى نادى اليعاقبة السياسى الذى كان مصدر وحيه والهامه . فلم يعد حامى المظلومين ، بل أصبح زعيم الظالمين كافة ، واحتفظ بفرقة من الرماة متأهبة لقتل كل من يجسر على معارضة ارادته الامبراطورية .

لم يذرف أحد دمعة واحدة عام ١٨٠٦ عندما غابت

بقية أطلال الامبراطوية الرومانية المقدسة التي جللها الأسى في ثنايا التاريخ ، وعندما قضى حفيد فلاح ايطالي على ما بقي من المجد الروماني القديم . ولكن عندما اغارت جيوش نابليون على اسبانيا ، واجبرت أهلها على الاعتراف بملك يمقتونه، وذبحت أهل مدريد المساكين الذين ظلوا على ولائهم لحكامهم السابقين — عندئذ انقلب الرأي العام على بطل موقعتي **مارنجو وأوسترلتز** ومئات غيرها من وقائع الثورة. وفي هذا الوقت بعينه لم يصبح نابليون بطل الثورة الفرنسية ، بل اصبحت تتمثل فيه مساوىء العهد القديم .

أقول في هذا الوقت بعينه استطاعت انكلترا أن توجه شعور الكراهية لنابليون الذي كان يتفشى بين الناس بسرعة آنئذ ، والذي جعل جميع المخلصين ينقلبون أعداء لامبراطور فرنسا .

وكان أهل انكلترا يشعرون من أول الامر باشمئزاز شديد عندما يقرأون في صحفهم تفاصيل عهد الأرهاب في فرنسا البشعة. صحيح انهم قاموا بثورتهم الكبرى قبل ذلك بقرن (في عهد الملك شارل الأول) ، ولكن هذه الثورة لا تقاس بحال بفورة أهل باريس . لقد كان اليعقوبي في نظر الانكليزي العادي وحشا على المرء أن يرميه بالرصاص بمجرد رؤيته . أما نابليون فكان في نظره امام الشياطين . لقد حاصر الأسطول البريطاني فرنسا منذ عام ١٧٩٨ ، فأفسد على نابليون خطته لغزو الهند عن طريق مصر، واضطره الى ذلك الارتداد المخزي بعد تلك الانتصارات التي أحرزها على ضفاف النيل . وأخيرا واتت انكلترا عام ١٨٠٥ الفرصة الملائمة التي كانت تنتظرها منذ أمد بعيد .

لقد قضى **نلسون** بالقرب من رأس **ترافلجار** عند الشاطىء الجنوبي الغربي لاسبانيا على أسطول نابليون قضاء مبرما . ومن ذلك الوقت أصبح نابليون في حصار بحري . وكان من المتيسر له مع ذلك أن يظل السيد المعترف به للقارة الاوربية لو انه اتعظ ببوادر تلك الايام وقبل الصلح المشرف الذي عرضته عليه الدول الأخرى . ولكن نابليون أعماه بريق مجده ، فقد كان يحسب أن ليس له ضريب ، ولم يكن ليطيق وجود منافس له. . فتحول بغضه الى الروسيا ، تلك البلاد المحجبة بالأسرار ، ذات السهول المترامية الأطراف والمعين الذي لا ينضب من المقاتلة .

وكان نابليون هو المسيطر على الموقف طيلة العهد الذي كانت فيه روسيا تحت حكم بولس الاول ابن كترين المعتوه . ولكن لوثة بولس ازدادت مع الأيام شدة ، حتى اضطر رعاياه الساخطون الى قتله خشية أن يبعث بهم جميعا الى مناجم الرصاص في سيبيريا .

وكان الاسكندر بن بولس يخالف أباه، فلم يكن هواه مع ذلك الغاصب ، بل كان يعده عدوا للانسانية والمعكر الدائم لصفو السلام .

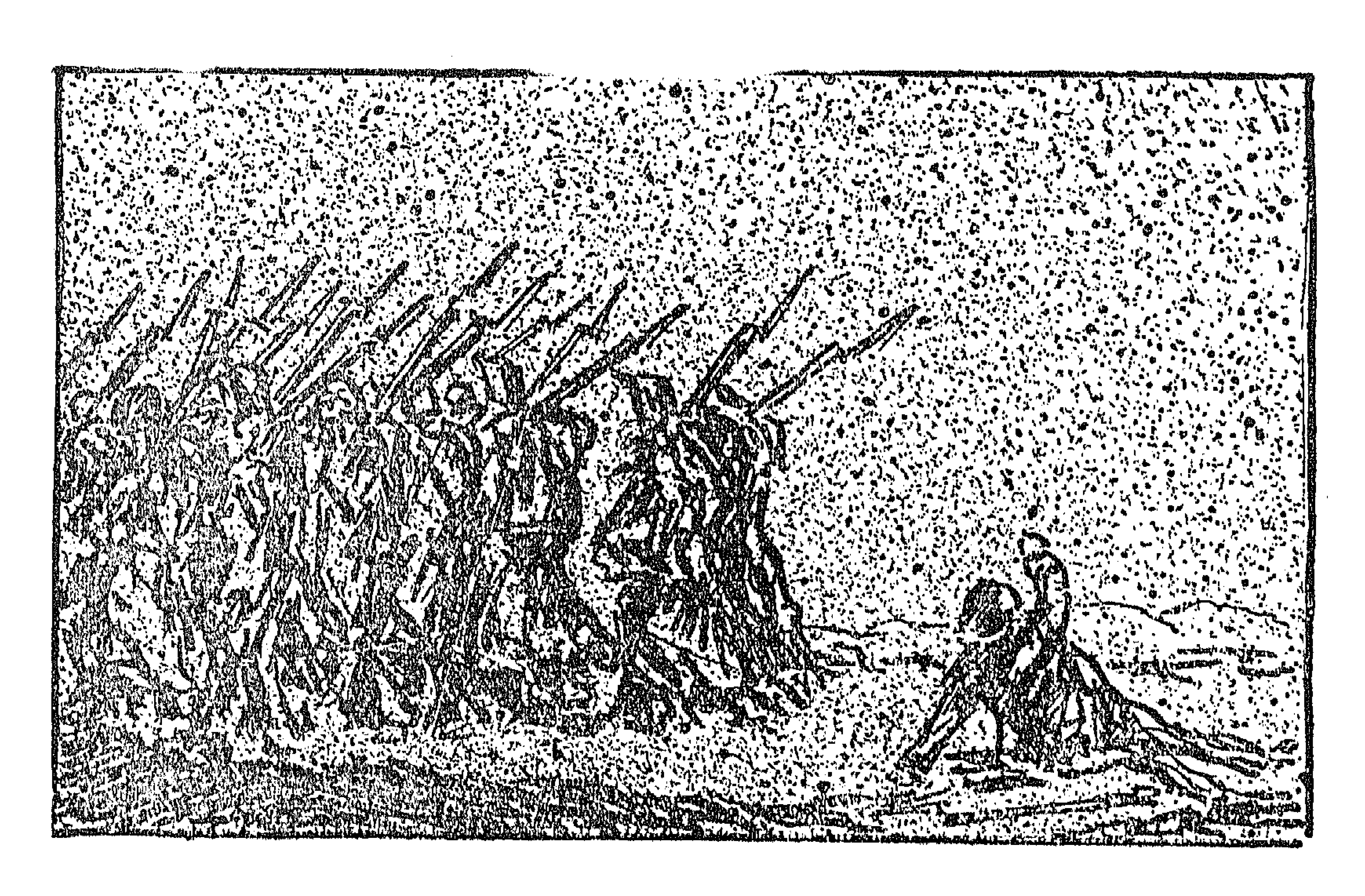
لقد كان الاسكندر رجلا تقيا اعتقد أن العناية الالهية قد اختارته لتخليص العالم من تلك اللعنة القورشقية التي حلت به ، فانضم الى بروسيا والنمسا وانكلترا ، في حربها مع نابليون، ولكنه هزم، وحاول خمس مرات الانتصار عليه ، ولكنه باء بالخيبة .

وتحدى الاسكندر نابليون مرة أخرى عام ١٨١٢ ، فما كان من الامبراطور الفرنسي الا أن أقسم في ثورة من ثورات غضبه بأن يملي عليه شروط الصلح في موسكو . فدفع كتائبه العازفة عن القتال ، والآتية من قاصي أوربا ودانيها : من اسبانيا والمانيا وهولندا وايطاليا والبرتغال ، الى الشمال ارضاء لكبريائه التي جرحت . أما ما حدث بعد ذلك فمعروف مشهور ، ذلك أن نابليون بلغ العاصمة الروسية بعد مسيرة شهرين ، وجعل من الكرملين المقدس مقرا لقيادته .

وفي ليل ١٥ سبتمبر سنة ١٨١٢ اشتعلت النار في موسكو ، وظلت المدينة تحترق أربعة أيام . وفي مساء اليوم الخامس أصدر نابليون أمره بالانسحاب . وبدأ الثلج يتساقط بعد ذلك بأسبوعين ، وأخذ جنده يغوصون في الأوحال والثلوج الى أن بلغوا نهر برزينا في السادس والعشرين من نوفمبر . ثم بدأت هجمات الروس تبلغ عنفوانها ، اذ أخذ القوزاق يضيقون الخناق على هذا الجيش العظيم الذي أصبح قطيعا من الرعاع لا جيشا جديرا بهذا الاسم . وفي منتصف شهر ديسمبر أخذت طلائع من بقي حيا من رجال هذا الجيش تظهر في مدن المانيا الشرقية .

وترامت عند ذلك عدة شائعات بأن الثورة باتت قريبة ، فقد قال أهل اوربا : « أن الوقت قد حان لتحرير انفسنا من هذا النير الذي انقض ظهرنا » . فأخذوا يجمعون البنادق القديمة التي غفلت عنها عيون الجواسيس الفرنسيين الذين كانوا مندسين في كل مكان .

على أن نابليون عاد الى فرنسا بجيش جديد قبل أن يعرفوا ما وقع ، فقد ترك جنده المهزومين ، وهرع الى باريس مباشرة في زحافته ، ووجه الى الفرنسيين دعوته الاخيرة يستفزهم فيها الى امداده بعدد اكبر من الجنود حتى يستطيع أن يحمي أرض فرنسا المقدسة من الغزو الأجنبي . فتبعه شبان أحداث في سن السادسة عشرة



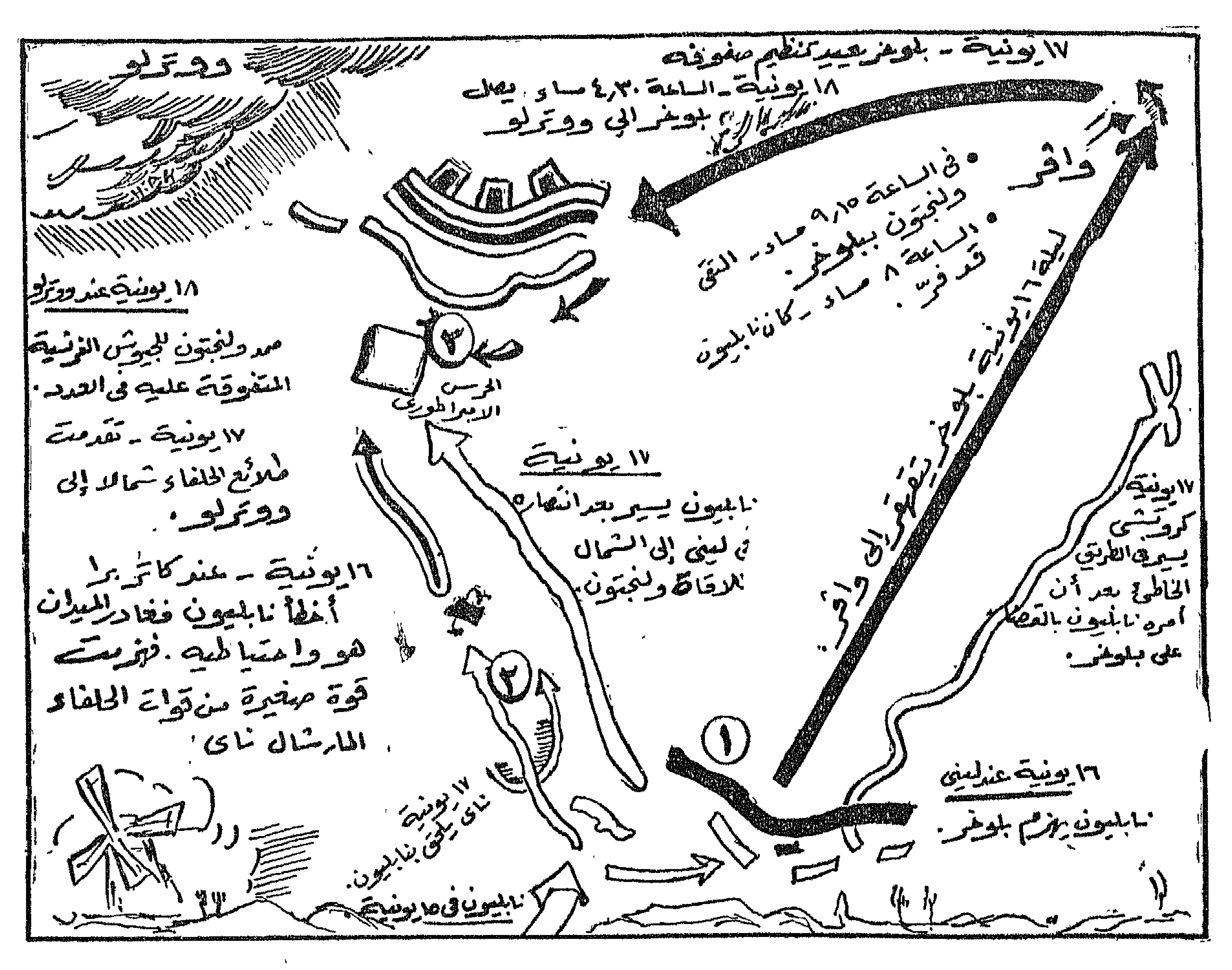
الارتداد عن موسكو

والسابعة عشرة ، وذلك عندما تحرك شرقا لملاقاة الجيوش المتحالفة . وقد حدثت موقعة **ليبسك** الهائلة فى أيام ١٦ و ١٨ و ١٩ من أكتوبر سنة ١٨١٣، وظل الفريقان ، فريق الزرق وفريق الخضر ، يقتتلان ثلاثة أيام حتى تخضبت مياه نهر ألستر بالدماء . وفى عصر يوم ١٧ أكتوبر اخترقت الجموع الحاشدة من مشاة الروس صفوف الفرنسيين .. ففر نابليون ، وعاد نابليون أدراجه الى باريس ، وتنازل عن العرش لولده الصغير ، ولكن القوات المتحالفة أصرت على أن يعتلى العرش الفرنسى لويس الثامن عشر ، أخو لويس السادس عشر . وقد دخل هذا الأمير البربونى البليد النظرات مدينة باريس ، دخول الظافر المنتصر يحيط به القوزاق والأوهلان .

أما نابليون فقد جعله الحلفاء الحاكم المطلق لجزيرة **ألبا** الصغيرة فى البحر المتوسط ، حيث نظم سياسه فجعلهم جيشا صغيرا ، وأخذ يقاتل على رقعة الشطرنج . وما ان غادر نابليون فرنسا حتى بدأ الناس يدركون أى رجل أضاعوا ، فان السنوات العشرين الأخيرة ، وان كانت قد كلفتهم غاليا ، الا أنها كانت سنوات مجد عظيم، اذ غدت فيها باريس عاصمة العالم . أما الملك البوربونى المترهل الذى لم يتعلم شيئا ، ولم ينس شيئا طوال أيام منفاه ، فقد أغضب الجميع بكسله وخموله .

وفى أول مارس من عام ١٨١٥ ، عندما كان ممثلو الحلفاء يتأهبون لتعديل خريطة اوربا ، نزل نابليون فجأة بالقرب من مدينة **كان** . وفى اقل من أسبوع تخلى رجال الجيش الفرنسى عن آل بوربون ، واندفعوا نحو الجنوب ليضعوا سيوفهم وحرابهم تحت امرة ذلك الجاويش القمىء ، وسار نابليون رأسا الى باريس فبلغها فى العشرين من مارس . وكان فى هذه المرة أكثر حذرا ، فلقد عرض الصلح على الحلفاء ، ولكنهم اصروا على القتال ، فقد كانت اوربا باسرها فى وجه هذا القورشيقى الغدار . وسرعان ما سار الامبراطور شمالا ليستطيع سحق أعدائه ، قبل أن يتمكنوا من توحيد جيوشهم . ولكن نابليون لم يكن كسابق عهده، فقد كان يشعر بالمرض يدب فى أوصاله، وكان يحل به التعب سريعا، وكان ينام فى الوقت الذى كان ينبغى عليه فيه أن يكون مستيقظا يوجه هجوم طلائعه . زد على ذلك أنه كان قد فقد كثيرا من قواده القدماء المخلصين ، وقد عدا عليهم الموت .

ودخلت جيوشه بلاد البلجيك فى بواكير شهر يونيه . وفى السادس عشر من هذا الشهر أوقع الهزيمة بالجيش البروسى تحت قيادة **بلوشر** . ولكن أحد قواده لم ينجح فى القضاء على جيوش بروسيا المرتدة ، كما أمره بذلك نابليون . وبعد ذلك بيومين تلاقى نابليون مع القائد الانكليزى **ولنجتن** بالقرب من **واترلو** ، وكان ذلك فى يوم الاحد الموافق ١٨ يونيه . وفى الساعة الثانية مساء كان يلوح أن الفرنسيين قد



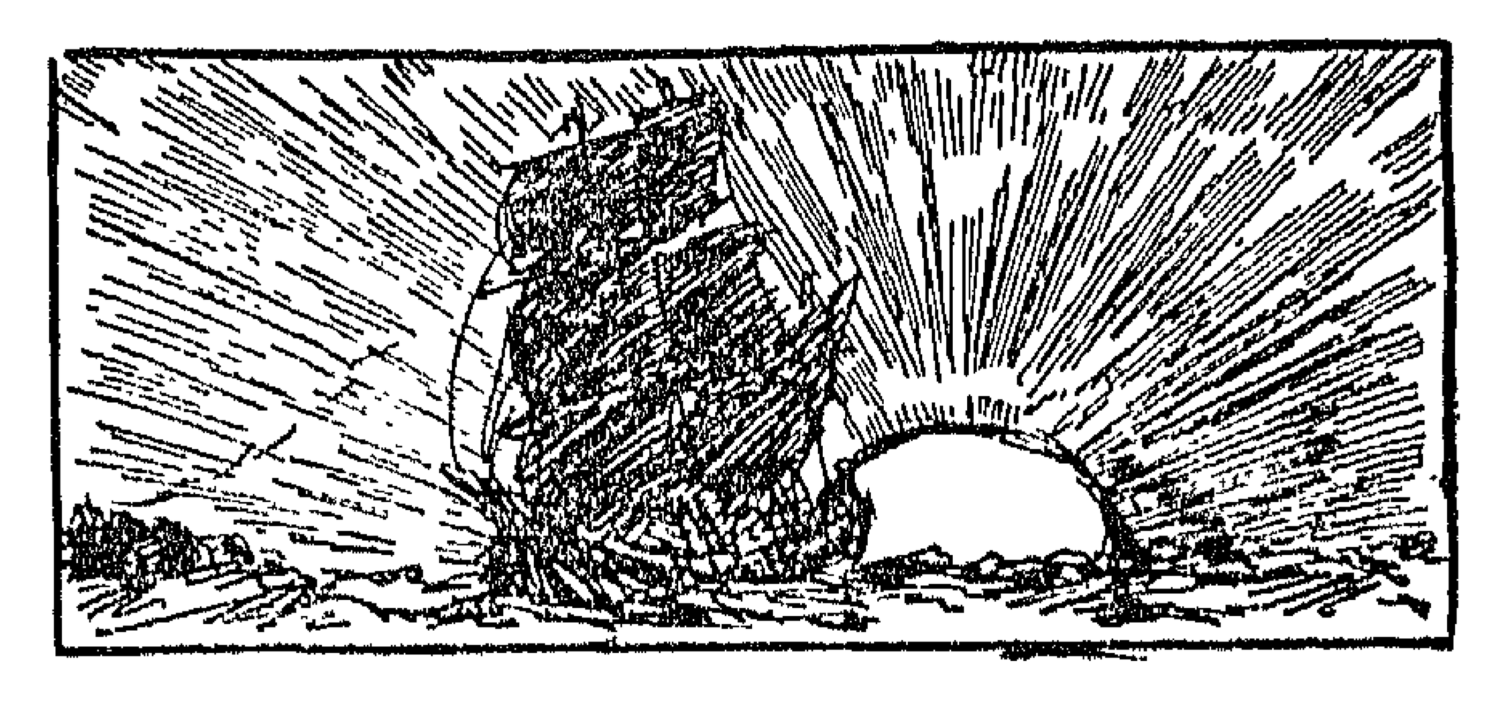
وقعة واترلو

كسبوا المعركة ، وفى الساعة الثالثة لاح لنابليون غبار فى الأفق الشرقى ، وفى الرابعة زادت معرفته بحقيقة هذا الغبار ، ذلك أن بلوخر كان يدفع جنوده المنهوكين الى قلب المعمعة وهو ينذر ويتوعـد . وقد بددت هذه الصدمة شمل صفوف الحراس ، ولم يكن عند نابليون احتياطى آخر ، وأمر جنوده بأن يستنقذوا أنفسهم ما وسعهم ... وركن هو الى الفرار .

وتنازل نابليون مرة أخرى عن العرش لولده ، وكان يمم شطر الساحل ، ولما ينقض على فراره من جزيرة البا مائة يوم ، وعـول على الذهاب الى أمريكا . وكان نابليون قد باع عام ١٨٠٣ مستعمرة **لويزيانا** الفرنسية التى كانت مهددة بخطر عظيم من جانب الانكليز ، الى الجمهورية الامريكية الفتية بأتفه الأثمان ، متعللا بأن « الامريكيين سيعرفون لى هذه اليد ويمنحونى قطعة من الارض وبيتا أقضى فيه آخر أيام حياتى فى أمن وسلام » . ولكن الاسـطول الانكليزى كان يرقب جميع الثغور الفرنسية ، فوقع نابليون بين جيوش الدول المتحالفة وبين الاسطول الانكليزى . وكان البروسيون قد صح عزمهم على رميه بالرصاص ، أما الانكليز فلعـلهم كانوا أكثر سماحة . وظل نابليون ينتظر عند **روشفور** ، معللا النفس بوقوع شىء يغير مجرى الحوادث . وما ان مر شـهر على وقعة واترلو حتى تلقى نابليـون من الحكومة الفرنسية الجديدة أمرا بمغادرة فرنسا فى مدى أربع وعشرين ساعة . وكان نابليون يؤثر دائما الحركات المسرحية ، فكتب الى الوصى على عـرش انكلترا (لان الملك جورج الثالث كان فى احـد مستشفيات الامراض العقلية) خطابا ينبىء فيـه سموه بأنه قد عزم على أن يضع نفسه تحت رحمة أعدائه ، وانه يطمح مثل **تموستكليس** فى أن يجـد فى رحاب أعدائه مقاما كريما .

وفى ١٥ يوليه انتقل نابليون الى انكلترا على ظهـر السفينة **بلرفون** والقى سلاحه للأميرال **هوثام** . وكان من أمره بعد ذلك أن نقل على ظهـر السـفينة

نورثمبرلاند ، من ميناء پليموث ، الى جزيرة **سانت هيلانه** ، وهناك أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته .



نابليون يذهب الى المنفى

وحاول نابليون أن يكتب مذكراته ، وتشاجر هناك مع حراسه ، وكان يحلم بأيام مجده الغابر . ومن عجب أنه عاد فى الخيال على الاقل الى مطلع سعده ، فقد تذكر الايام التى كان يقود فيها معارك الثورة . وحاول أن يقنع نفسه انه كان على الدوام نصيرا مخلصا للمبادىء العظمى : الحرية والاخاء والمساواة ، وهى المبادىء التى حملها جنود المؤتمر الوطنى المشعثون الى أطراف الارض . وكان يميل دائما أبدا الى التحدث عن سيرته ايام أن كان قائدا اعلى وقنصلا ، وقلما كان يتحدث عن الامبراطورية . وكان يفكر أحيانا فى ولده دوق **ريخشتات** النسر الصغير الذى كان يعيش فى ڤينا حيث كان أبناء عمومته من آل هابسبورج يعاملونه معاملة الغريب المسكين ، وهم الذين كان آباؤهم يرتعدون فرقا بمجرد ذكر اسم نابليون ، وكان يقود جنوده الى النصر عندما وافته منيته ، حتى لقد أمر القائد **ناى** أن يهجم على رأس جنود الحرس ، ثم رقد رقدته الاخيرة .

على انك اذا شئت تفسيرا لهذه السيرة العجيبة ، أو أردت حقا ان تعرف كيف تيسر لرجل واحد أن يحكم مثل هذا العدد الكبير من الشعوب تلك السنين الطوال بفضل قوة ارادته وحدها ، فخل عنك الكتب التى تحدثت عنه ، لأن المؤلفين الذين كتبوا عنه كانوا فريقين : فريق يكره هذا الامبراطور وفريق يحبه . صحيح انك سوف تعرف من هذه الكتب كثيرا من الحقائق ، ولكن ثمة شيئا أجل من ذلك هو أن تحس التاريخ أكثر من أن تعرفه . فانصرف عن القراءة ، وانتظر الى ان تواتيك الفرصة لسماع فنان بارع يغنى اغنية « الجنديان » من حملة البنادق . وقد نظم هذه الاغنية الشاعر الالمانى العظيم **هاينى** الذى عاش فى وقت نابليون ، اما موسيقاها فمن لحن **شومان** ، وهو الموسيقى الالمانى الذى شاهد نابليون عدو بلاده عند ما كان يحضر لزيارة حميه امبراطور النمسا . فالاغنية اذن أثر من آثار رجلين توفرت لهما كل الاسباب لكراهية هذا الطاغية . هلم واسمع هذه الاغنية ، وعند ذلك ترى أنها أفصح بيانا من آلاف من المجلدات .

الحلف المقدس

ما ان أرسل نابليون الى جزيرة سانت هيلانه حتى عمد الحكام الذين أنزل بهم هذا القورشقى المقوت الهزائم مرارا وتكرارا الى الاجتماع فى ڤينا ، وحاولوا أن يقضوا على التغييرات الكبيرة التى أحدثتها الثورة الفرنسية

استأنف أصحاب الجلالة الاباطرة والملوك وأصحاب الفخامة الدوقات والوزراء المفوضون هم وأصحاب السعادة كتاب سرهم وخدامهم ومن يلوذون بهم — استأنف كل هؤلاء ما انقطع من اعمالهم التى كانت قد توقفت توقفا عجيبا بعودة ذلك القورشقى المخيف الذى يموت الآن كمدا فى جزيرة سانت هيلانه . واحتفل بالنصر بما هو أهله من ولائم وأسمار فى الحدائق ، ومراقص دارت فيها تلك الرقصة الجديدة المثيرة المعروفة **بالڤالس** التى استفضح فيها أولئك السيدات والرجال الذين عادوا بذاكرتهم الى تلك الرقصة المحتشمة « المينويت » التى كانت شائعة فى العهد القديم .

لقد عاش هؤلاء فى عزلة قرابة جيل ، ثم زال الخطر اخيرا ، فأخذوا يطنبون اطنابا بالتحدث عن ذلك الذى كان السبب فيما ابتلوا به من شدائد وأهوال ، وكانوا ينتظرون مايعوضهم عن كل ماأضاعوه من مال على يد أولئك اليعاقبة العتاة ، الذين أصروا على قتل مليكهم المبارك ، والغاء الشعور المستعارة ، والاستعاضة عن السراويل القصيرة التى ترتديها الحاشية بفرساى بتلك السراويل المهلهلة التى يرتديها الرعاع فى باريس .

وقد تظن أن من السخافة أن أذكر لك مثل

هذه التفاصيل ، ولكنى أستميحك العذر فأقول أن مؤتمر ڤينـا كان سلسلة طويلة من مثـل هـذه السخافات ، فقد قضى أعضاؤه عدة أشهر يعنون بالموازنة بين السراويل القصيرة والسراويل الطويلة أكثر من عنايتهم بتقرير مستقبل سكسونيا أو ايجاد حل للمسائل الاسبانية .

ولقد بلغ من أمر ملك بروسيا ، أن طلب سروالا قصيرا حتى يكون شاهدا امام الناس على ازدرائه بكل أثـر من آثار الثـورة . وأراد عاهل آخـر الا يدانيه أحد فى مقته العظيم للثورة ، فأصدر مرسوما يقضى بأن جميع الضرائب التى أداها رعاياه للغاصب الفرنسى ، يجب أن تـؤدى ثانيـة للحـاكم الشرعى الذى أحب رعاياه وهو بعيـد عنهم أيام كانوا تحت رحمة هذا الغول القورشقى ! .. وهكذا تخبط هؤلاء القوم من خطأ الى خطأ حتى ان المرء ليفغر فاه دهشة متسائلا « ولكن بحق السماء لم لم يحتج الشـعب على ذلك ؟ » ونحن نتساءل أيضا : لماذا لم يعترضوا حقا ؟ ذلك ان الناس كانوا قد هدهم التعب ، وتملكهم اليأس ، فكانوا لا يأبهون بما يقع ، ولا يعنون بكيفية وقوعه أو مكان حدوثه ،ولا يحفلون بمن يحكمهم مادام السلام يظلهم بجناحيه . كانوا قد ضاقوا بالحـرب والثورة والاصلاح .

لقد رقص الجميع فى العقـد الثامن من القـرن المـاضى حول شجرة الحرية ، وعانق الامراء طهاتهم ، ورقص الدوقات رقصة « الكرمنيول » مع خدامهم ، لانهم اعتقدوا مخلصين بأن العصر الزاهر للمساواة والاخاء قد بزغت شمسه على هذا العالم الشرير . ولكنهم لم يجدوا شيئا من ذلك ، بل وجـدوا أن مبعوث الثورة كان يزورهم ويسكن شرذمة منجنده القذرين فى حجر جلوسهم ، ويسرق أطباق الاسرة عند عودته الى باريس ، ليرفع تقريره الى الحكومة عن الحماسة التى قابلت بها البلاد المتحررة الدسـتور ، ذلك الدسـتور الذى قدمته فرنسـا الى جيرانها الطيبين .

ولما بلغهم كيف أن ضابطا صغيرا يدعى بونابرت قضى على آخر اضطرابات الثـورة فى باريس ، وانه صوب مدافعه نحو الدهماء ... تنفسوا الصعداء . وكان القوم فيما يظهر فى مسيس الحاجة الى قدر من الحرية والاخاء والمساواة أقل مما منحوا ، على أن الضابط الشاب بونابرت أصبح بعد قليل أحـد القناصل الثـلاثة للجمهورية الفرنسية ، ثم تفرد بالقنصلية ، ثم أصبح امبراطورا . وكان نابليون أقدر من جميع الحكام الذين سبقوه ، ومن ثم كان شديد الوطأة على رعاياه الضعفاء ، فـلم تأخـذه بهم أيـة رحمة . وقد دفع بأبنائهم الى زمرة جيوشه ، وزوج بناتهم من قواده ، واستولى على صورهم وتماثيلهم ليزين بها متاحفه الخاصة ، وأحال أوربا بأجمعهـا الى معسـكر ، وقتل مايقرب من جيـل بأكمله من الرجال .

والآن ، وقد ولى نابليون ، فلم يكن للناس — مع استثناء طبقة قليلة من أهل الحرب المحترفين — الا رغبة واحدة . فقد كانوا يحبون أن يتركوا وشأنهم . لقد سمح لهم مـدة من الزمن بأن يحكموا أنفسـهم بأنفسهم ، وأن ينتخبوا عمدهم وولاتهم وقضاتهم ، ولكن هذا النظام أخفق اخفاقا فظيعا ، ذلك ان الحكام الجدد كانوا قليلى الخبرة مشتطين ، فدفعهم اليأس دون سواه الى الارتداد بأبصارهم الى ممثلى النظام القديم قائلين « فلتحكمونا كما كنتم من قبل ، وانبئونا بما يجب أن نؤديه لكم من ضرائب ، واتركونا وشأننا فنحن مشغولون باصلاح ماخربه عهد الحرية » .

ولا شك فى أن أولئك الرجال الذين أعدوا المسرح لمؤتمر ڤينا المشهور قد بذلوا ما فى وسعهم لأشـباع رغبة هؤلاء فى الراحة والطمأنينة . ولقد جعل الحلف



الشبح الذى روع الحلف المقدس

المقدس ، الذى كان ابرز آثار هذا المؤتمر ، الشرطةاهم اعيان الدولة ، ورتبوا أشد العقوبات هولا لاولئك الذين يجسرون على انتقاد أى عمل تقوم به الدولة .
لقد ساد أوربا السلام ، ولكنه كان سلام القبور !

كان أبرز رجال مؤتمر ڤينا ثلاثة ، هم : **اسكندر** أمبراطور روسيا ، **ومترنيخ** الذى كان يدافع عن مصالح الفرع النمسوى من آل هبسبورج ، ثم **تاليران** ، وقد كان أسقفا لأوتون فترة من من الزمن ، وهو الرجل الذى حاول أن يعيش وسط التغيرات المختلفة التى طرات على الحكومة الفرنسية غير معتمد على شىء ، الا على قوة دهائه وذكائه ، وكان فى ذلك الوقت قد رحل الى العاصمة النمسوية لكى يستخلص لبلاده مايمكن استخلاصه من الانقاض التى خلفها نابليون . وكان شأنه شأن الشاب المرح فى قصة من قصص المجون والهذر ، لايعرف قط متى ينتهى دوره ، ذلك أن هذا الضيف الطفيلى اقبل على هذه الجماعة ، وأخذ يأكل بشهية كأنه واحد من المدعوين حقا .

والحق انه لم يمض عليه فى ذلك وقت طويل حتى جلس على راس المائدة ، واخذيروح عن المدعوين جميعا بحكاياته المسلية ، واستولى على قلوبهم بساحر أسلوبه . وقد علم تاليران قبل رحيله الى ڤينا بأربع وعشرين ساعة ، ان الحلفاء منقسمون الى معسكرين متعاديين : الاول مكون من الروسيا التى كانت تريد الاستيلاء على بولندا ، وبروسيا التى كانت ترغب فى ضم سكسونيا . والثانى مكون من النمسا وانكلترا اللتين كانتا تسعيان الى الحيلولة دون ذلك ، لانه لم يكن يتفق مع مصالحهما أن تسود القارة الاوربية الروسيا أو بروسيا . وقد عمد تاليران الى تأليب كل فريق على الآخر بمهارة فائقة ، وكان من نتيجة مجهوداته ان انقذ الشعب الفرنسى خلال السنوات العشر التالية من الجور والاستبداد الذى خيم على أوربا على يد عمال اباطرتها . فقد دفع تاليران امام المؤتمر بأن الشعب الفرنسى لم يكن له الخيار فيما حدث ، فقد ارغمه نابليون على العمل بمقتضى ارادته ، ثم واصل حجته قائلا انه مادام نابليون قد ذهب ، وجلس على عرش فرنسا لويس الثامن عشر « فلتمنحوا الشعب الفرنسى فرصة » .
وقد ابتهج الحلفاء لرؤيتهم الملك الشرعى يجلس على عرش دولة ثائرة ، فأجابوا سؤال تاليران عن طيب خاطر ، وأعطوا للبوربون الفرصة، فاستغلوها استغلالا اودى بهم بعد خمسة عشر عاما .

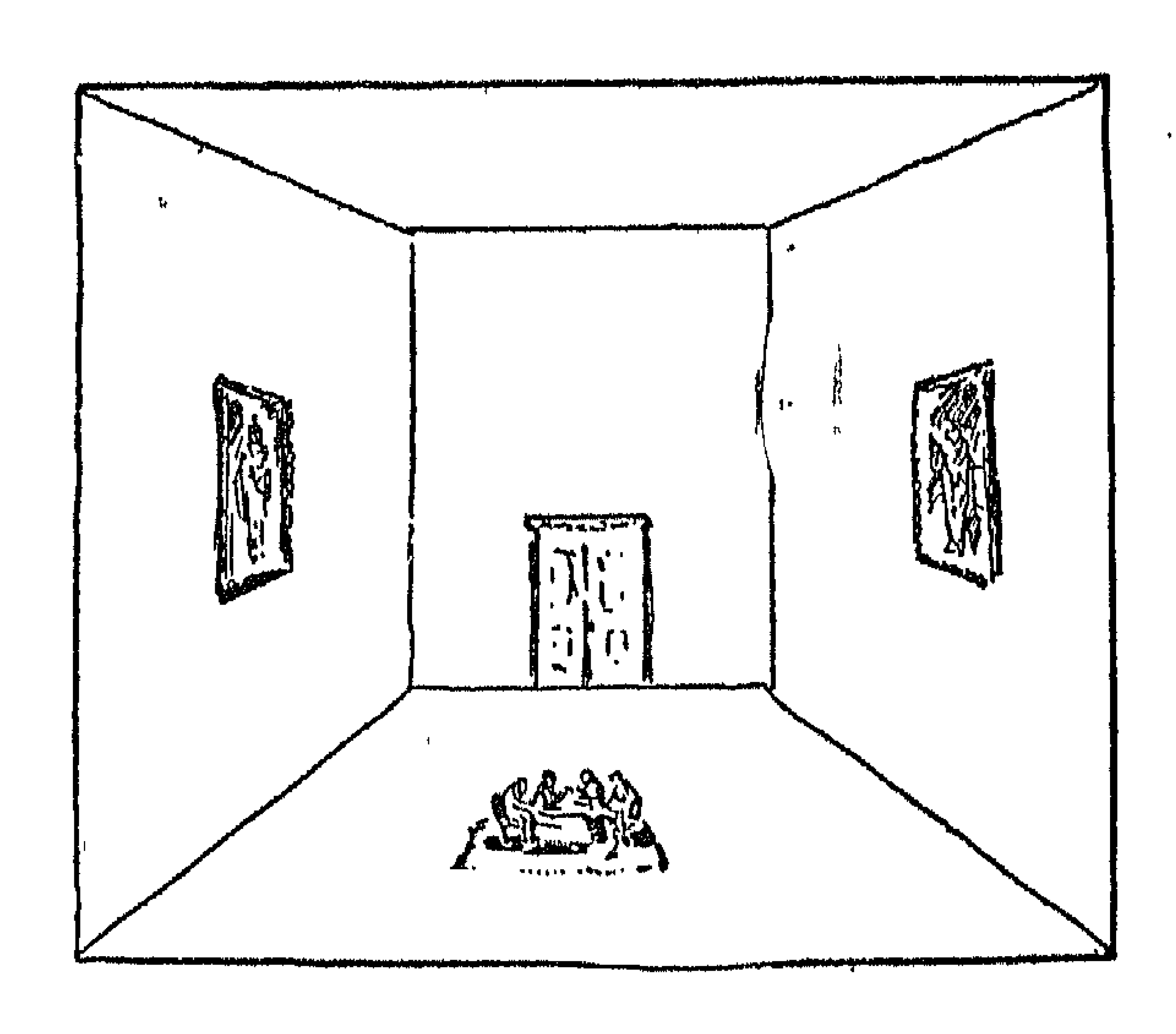
وكان ثانى الثلاثة الذين ائتمروا فى ڤينا ، هو مترنيخ رئيس وزراء النمسا ، ومدير سياسة آل هابسبورج الخارجية . كان **فنتزل لوثر أمير مترنيخ ڤينبرغ** رجلا تطابق صفاته مايوحى به اسمه تمام المطابقة . وكان من أهل الفضل واسع الثراء ، انيقا غاية الاناقة ، حلو الشمائل عظيم الاختبار ، ولكنه كان ربيب مجتمع يعيش بعيدا كل البعد عن جماعات الشعب التى تتكسب بعرق الجبين ، وتكد وتكدح وتستعبد فى المدن والمزارع . كان مترنيخ شابا يدرس بجامعة ستراسبورج عندما شبت الثورة الفرنسية ، وكانت ستراسبورج — وهى المدينة التى انبعث منها نشيد المارسلييز — مركز نشاط اليعاقبة . ولقد تذكر مترنيخ ان حياته الاجتماعية البهيجة قد انقطعت بصورة محزنة ، وأن طائفة من المواطنين غير الاكفاء قد اسندت اليهم فجأة مهام لا يصلحون لها ، وان الرعاع قد احتفلوا بمولد الحرية الجديدة بقتل أناس لاشك فى براءتهم . ولم يستطع أن يلمس حماسة الجماهير المنبعثة من قلوبهم ، وشعاع الامل يلمع فى عيون النساء والاطفال الذين حملوا الخبز والماء الى جند المؤتمر الشعث الغبر ، وهم يسيرون فى شوارع المدينة فى طريقهم الى جبهة القتال ليستشهدوا فى سبيل أمهم فرنسا .

لقد ملأت كل هذه الاشياء قلب الشاب النمسوى بالاشمئزاز والازدراء ، فقد كانت فى نظره لاتمت الى الحضارة بسبب . واذا كان لا مناص من الحرب فان ذلك يتم على يد شباب يندفعون الى المروج الخضر فى حلل أنيقة ، ويصولون فيها ويجولون على صهوة جياد مطهمة . اما ان تنقلب البلاد بأسرها الى معسكر حربى كريه الرائحة، حيث يرقى الافاقون الى مناصب القواد بين يوم وليلة ... فشر وحماقة. ولعل مترنيخ كان يقول لساسة الفرنسيين عندما يجتمع بهم فى مأدبة عشاء من المآدب الهادئة البسيطة التى كان يقيمها غراندوق من الغراندوقات الذين يخطئهم الحصر « انظروا ما الذى آلت اليه افكاركم الجميلة ، لقد أردتم الحرية والاخاء والمساواة فرميتم بنابليون ، لقد كان أجدى عليكم كثيرا أن تقنعوا بالنظام القائم للأمور » ، ثم يفسر لهم نظامه فى الاستقرار ، فيدعو الى ما ألف الاوربيون فى تلك الايام الخالية الطيبة التى سبقت الحرب ، حين كان كل فرد يشعر بانه سعيد ، ولم يكن ثمة احد يهرف بتلك « المساواة فى الخير بين جميع الافراد » .

ولا شك أن مترنيخ كان مخلصا تمام الاخلاص

فى رايه هذا . وكان بفضل كفايته وارادته الغلابة وقدرته الخارقة على الاقناع ، من اخطر أعداء الآراء الثورية . ولم تخترمه المنية الا عام ١٨٥٩ ، فقد امتد اجله حتى راى بعينيه انهيارخططه السياسية جميعا عندما قضت عليها ثورة عام ١٨٤٨ القضاء المبرم ، والفى نفسه ابغض رجل فى أوربا ، وكثيرا ماتعرض لخطر الموت على يد الجماهير الغاضبة من المواطنين الثائرين

على أن مترنيخ ظل الى نهاية أمره مؤمنا ايمانا راسخا بانه قد سلك السبيل القويم . لقدكان دائما أبدا مقتنعا بأن الناس يؤثرون السلام على الحرية ، ومن ثم حاول أن يمنحهم ماهو خير لهم . ويقتضينا واجب الانصاف أن نقول أن جهوده التى بذلها فى سبيل توطيد السلام العالمى نجحت نجاحا لابأس به ، ذلك أن الدول الكبرى ظلت قرابة اربعين عاما لا يأخذ بعضها بخناق بعض ، واستمر هذا شأنها الى أن قامت حرب القريم عام ١٨٥٤ بين الروسيا وانكلترا وفرنسا وايطاليا وتركيا ، وهو امر فذ فى تاريخ قارة أوربا .



مؤتمر فينا على حقيقته

أما ثالث الثلاثة فى هذا المؤتمر المسرحى ، فكان **الامبراطور اسكندر** . فقد شب الاسكندر فى بلاط جدته العظيمة الطائرة الصيت كاترين ، وتشبع بدروس تلك المرأة المسنة الاريبة التى لقنته أن ينظر الى مجد روسيا نظرته الى أهم شىء فى الحياة ، كما تشرب بما لقنه اياه مؤدبه السويسرى الخاص الذى كان من المعجبين بآراء ڤولتير وروسو ، والذى ملأ قلبه بحب الانسانية جمعاء . فشب الاسكندر وقد اجتمعت فيه خلتان عجيبتان : خلة الطاغية الانانى ، والثائر الجياش العاطفة . وقد حلت به اهانات بالغة فى حياة أبيه المعتوه بطرس الأول ، وأجبره على أن يشهد المذابح الكبرى التى كانت تدور فى ساحات المعارك التى خاضها نابليون . ثم انقلبت آلامه ، واحرزت جيوشه النصر للحلفاء ، واصبحت روسيا منقذة أوربا ، وهلل الناس لقيصر هذا الشعب القوى حتى لكأنه اله سوف يبرأ العالم على يديه من آفاته الكثيرة .

على أن الاسكندر لم يؤت حظا كبيرا من المهارة والفطنة ، فهو لم يكن بصيرا بالرجال والنساء بصر كل من تاليران ومترنيخ بهم ، ولم يكن يفهم فنون الدبلوماسية العجيبة . كان رجلا مغرورا لايتمشى مع الظروف ، يستهويه مديح الجماهير ، ومن ثم سرعان ما أصبح الشخصية الجذابة فى المؤتمر ... على حين جلس مترنيخ وتاليران وكاسلراى (ممثل بريطانيا العظيم الاقتدار) حول مائدة المؤتمر يحتسون الخمر ، ويقررون مايجب عمله بالفعل .

كان الحلفاء يودون أن تقف الروسيا الى جانبهم ، لذلك كانوا يعاملون الاسكندر معاملة تنطوى على مزيد من الاحترام ، ولكنه لم يكن له شخصيا ضلع كبير فى أعمال المؤتمر الا بالقدر الذى يروق فى أعين الحلفاء ، بل انهم شجعوا خططه الخاصة باقامة حلف مقدس حتى يشغل نفسه بهذا الأمر ، فى حين انكبوا هم على مابين أيديهم من أعمال .

لقد كان الاسكندر رجلا لطيف المعشر يحب المجتمعات ولقاء الناس ، وكانت تغمره السعادة والهناءة فى مثل تلك المناسبات ، على أنه كانت تشوب خلقه نزعة أخرى تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، ذلك أنه حاول نسيان شىء لم يستطع نسيانه .

ففى مساء اليوم الثالث والعشرين من عام ١٨٠١ كان الاسكندر يجلس فى احدى حجرات قصر سان ميشيل فى بطرسبرج ، مترقبا أخبار نزول أبيه عن العرش ، ولكن بطرس رفض التوقيع على وثيقة التنازل التى قدمها اليه ضباطه السكارى ، فاستشاطوا غضبا ، ووضعوا حول عنقه لفاعا وشنقوه . ثم هبطوا درجات السلم سراعا كى يخبروا الاسكندر بانه أصبح امبراطورا على جميع بلاد الروسيا .

لقد ظلت ذكرى هذه الليلة الرهيبة عالقة بذهن القيصر ، لانه كان رجلا جياش العاطفة ، اذ تربى فى مدرسة الفلاسفة الفرنسيين الكبار ، الذين كانوا ينكرون الله ويؤمنون بالعقل الانسانى ، ولكن العقل وحده لم يكن ليرضى الامبراطور فى مأزقه ، فأخذت

تنتابه الهواجس ، وحاول أن يجد سبيلا للتوفيق بين نفسه وبين ضميره ، فركن الى الورع ، وأخذ يعنى بالتصوف ، ذلك الحب العجيب لكل ما هو غريب مجهول . والتصوف قديم قدم معابد طيبة وبابل .

لقد أثر ذلك الجيشان الهائل الذى أصاب نفوس الناس فى عهد الثورة الكبرى فى طباعهم ، على نحو عجيب . ذلك أن الرجال والنساء الذين عاشوا عشرين عاما فى خوف وقلق قد خرجوا عن حالتهم الطبيعية . كانوا يقفزون فرقا اذا قرع بابهم خشية أن يكون النذير قد جاءهم بما يفيد استشهاد ابنهم الوحيد فى ميدان الشرف . لقد كانت عبارة الحب الاخوى والحرية التى شاعت وقت الثورة كلمات فارغة فى أسماع الفلاحين الذين نالهم الشيء الكثير من الاذى . لقد كانوا يتعلقون بأى شيء قد يتيح لهم السيطرة مرة أخرى على مشاكل الحياة المخيفة . كان من السهل ان يتسلط عليهم — وهم على هذه الحال من الحزن والبؤس — عدد كبير من الادعياء الذين يظهرون بمظهر الانبياء ، ويدعون الى مذاهب جديدة غريبة استخرجوها من الآيات المشرقة فى سفر الرؤيا .

وكان الاسكندر قد استنبأ كثيرا من العرافين ، ثم سمع عام ١٨١٤ بعرافة جديدة كانت تتنبأ بقرب نهاية العالم ، وأخذت تهيب بالناس أن يتوبوا ويندموا قبل فوات الاوان . كانت هذه المرأة تدعى البارونة فون كرودنر ، وهى امرأة روسية مشكوك فى سنها ومسلكها ، وكانت زوجة أحد رجال السلك الدبلوماسى فى عهد القيصر بطرس . وقد بددت هذه المرأة أموال زوجها ، ودنست شرفه بعلاقاتها الغرامية العجيبة . كانت تعيش عيشة فجور وخلاعة ، أضرت بأعصابها حتى انهارت ، واختل عقلها مدة من الزمن ، ثم ثابت الى رشدها عند ما رأت الموت يدرك فجأة صديقا من أصدقائها ، فاحتقرت مسرات الحياة وملاذها جميعا ، واعترفت بخطاياها لصانع أحذيتها ، وكان من الاخوان المورافيين الأتقياء ، وتابعا من اتباع المصلح القديم جون هس الذى أحرق عام ١٤١٥ لمروقه بأمر من مجمع كنستانس ، وامضت هذه البارونة السنوات العشر التالية من حياتها فى المانيا متخصصة فى دعوة الملوك والامراء الى التوبة والهداية .

وكان مطمحها الاسمى فى الحياة أن تقنع الاسكندر ، منقذأوربا ، بخطأ مسلكه . وكان الاسكندر فى بؤسه متهيئا لسماع أى شخص يبعث فى نفسه شعاعا من الامل . ومن ثم رأى أن يدبر أمر لقاء بينها وبينه . وفى مساء اليوم الرابع من شهر يونية سنة ١٨١٥ سمح لها بمقابلة القيصر فى فسطاطه ، فوجدته يقرأ فى الكتاب المقدس . ونحن لا نعرف ما الذى قالته للاسكندر ، ولكنا نعلم أن الدموع كانت تنهمر من عينيه بعد أن غادرته ، وقد صرح بأن روحه قد وجدت السلام والطمأنينة أخيرا . وأصبحت البارونة منذ ذلك الحين صديقته المخلصة وهاديته الى خلاص روحه . وقد تبعته الى باريس ، ثم الى ڤينا ، وكان الاسكندر يحضر الصلوات التى تقيمها فى الاوقات التى لا يذهب فيها الى حلقات الرقص .

ولعلك تتساءل : لم قصصت عليك هذه القصة مفصلة كل هذا التفصيل ؟ أليست التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى القرن التاسع عشر أعظم شأنا من سيرة امرأة مختلة الشعور يجدر بنا نسيانها ؟ لاشك أنها كذلك ، ولكن ثمة عددا من الكتب تستطيع أن تقص عليك هذه التغيرات فى دقة عظيمة وتفصيل واف . وانى لأحب أن تخرج من هذا التاريخ بشيء أكثر من تسلسل الحوادث . أحب أن تتناول حوادث التاريخ جميعا ، بعقل لايأخذ الامور على علاتها ، فلا تقنع بالرواية التى تقتصر على أن هذا الحادث قد وقع هنا أو هناك ، بل حاول أن تستكشف الدوافع الخفية الكامنة وراء كل حادثة ، ولسوف تفهم عندئذ العالم المحيط بك فهما حسنا ، وتتاح لك فرصة أكبر لمساعدة الآخرين . وهذه فى النهاية هى السبيل الوحيد حقا للحياة الراضية .

ولست أحب لك أن تظن أن الحلف المقدس ماهو الا قصاصة من الورق وقعت عام ١٨١٥ ، ثم دفنت وأهملت فى زاوية من سجلات الدولة . قد تكون هذه الوثيقة قد جر عليها النسيان أذياله ، ولكنها ليست ميتة بحال . لقد كان الحلف المقدس هو العامل المباشر فى اعلان مبدأ منرو ، وهو المبدأ القائل بأن أمريكا للامريكيين . وكان هذا المبدأ عاملا هاما فى السياسة العالمية . وذلك هو السبب الذى حملنى على أن أطلب منك أن تعرف على وجه الدقة كيف أتيح لهذه الوثيقة أن تبرز الى عالم الوجود ، وماهى الدوافع الحقيقية التى تنطوى تحت مظاهر الورع واخلاص المسيحيين للواجب .

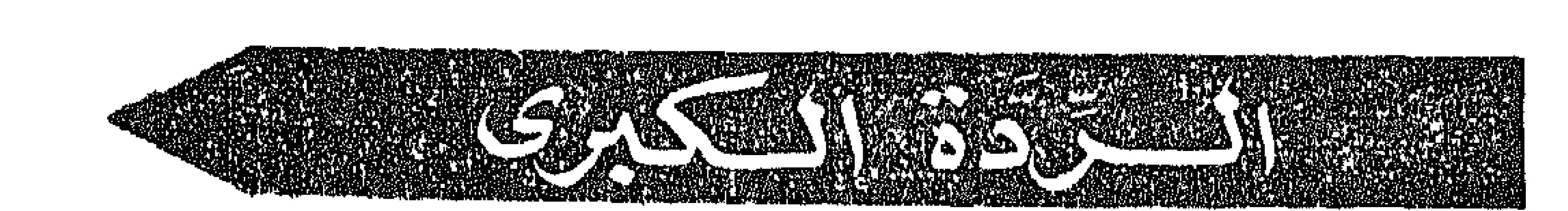
لقد كان الحلف المقـــدس عملا ساهم فيه رجل بائس ، صادف فى حياته صدمة عقلية مريعة ،فحاول ان يبعث السكينة فى نفسه القلقة المضطربة ، وامرأة طموح فقدت جمالها وسحرها بعد أن بددت حياتها فى اللهو ، وارادت أن ترضى غرورها ورغبتهـا فى الشهرة ، فجعلت من نفسها نبية تبشر بعقيدة جديدة عجيبة . ولست أذيع سرا عند ما أقص عليك هذه التفاصيل ، ذلك أن رجالا من ذوى الحصافة والعقل السليم مثل كاسلراى ومترنيخ وتاليران ، كانوا يدركون تمام الادراك أن هذه البارونة الجياشة العاطفة كانت محدودة المواهب ، وكان من السهل على مترنيخ أن يعيدها الى أملاكها فى ألمانيا ، وكان حسبه أن يرسل بضـــع كلمات الى رئيس الشرطة الامبـراطورى ، ذى السلطان الواسع .

على أن فرنسا وانكلترا والنمسا كانت تعتمد على حسن نية روسيا ، فلم تكن ترغب فى الاساءة الى الاسكندر . ومن ثم احتملت هذه الدول حماقة تلك البارونة العجوز ، وعـدوا الحلف المقدس شيئا تافهـا لايساوى الورق الذى كتب عليـه ، الا أنهـم استمعوا فى صبر الى القيصر عندما أخذ يقرأ عليهم مسودة هذا المشروع الذى يرمى الى قيام عهـد من الأخاء بين الناس على أساس الكتب المقدسة .

كان ذلك هو الغرض من الحلف المقدس ،وقد نذر الموقعون على هذا الحلف بأنهم « سيجعلون رائدهم الوحيد فى حكم دولهم ، وفى علاقاتهم السياسية مع الحكومات الاخرى . . . مبادىء هذه العقيدة المقدسة : مبادىء الحق والمحبة والسلام التى أوصت بها المسيحية . وهذه المبادىء التى تنطبق على الشئون الخاصة فحسب ، يجب أن يكون لها سلطان مباشر على مجالس الأمراء ، وان تهديهم فى كل مايفعلون بوصفها الوسيلة الوحيدة لدعم النظم الانسـانية وعـلاج مابها من نقص » . وأخذوا يتعاهدون على أن يظلوا متحدين تربط بينهم أواصر اخاء حق لاتنفصم ، وان تنظر كل دولة الى رعايا الدول الاخرى نظرتها الى رعاياها ، وأن يتبادلوا كافة، وفى جميع الأحوال والظروف، وحيثما كانوا . . . المساعدة والعون ، وكلمات أخرى من هذا القبيل . وأخيرا وقع امبراطور النمسا الحلف المقـدس ، ولم يكن يفهم منه كلمة واحدة ، ووقعه البوربون وكانوا يرغبون فى صداقة أعداء نابليون القدماء ، ووقعـه ملك بروسيا وكان يرغب فى استمالة الاسكندر الى جانبه للنهوض بمشروعاته الخاصة بانشـاء دولة بروسيا الكبرى ، كما وقعته سائر الدول الاوربيـة الصغيرة التى كانت تحت رحمة الروسيا . ولم توقع انـكلترا هـذا الحلف قط ، لأن كاسـلراى رأى أن المسألة كلها لاتعدو أن تكون مظاهرة كلامية ، وكذلك لم يوقعه البابا ، لأنه امتعض من تدخـل أرثوذكسى يونانى وبروتستانتى فى شئونه الخاصة . ولم يوقع سلطان تركيا ، لأنه لم يســمع شيئا قط عن هـــذا الحلف .

على أن جماهير شعوب أوربا سرعان ما اضطرت الى أن تدخل هذا الحلف فى اعتبارها . فقـــد كان وراء نصوص الحلف المقدس الجوفاء جيوش التحالف الخمـاسى الذى كونه مترنيخ من الدول الـكبرى . وكان معنى وجـود هـذه الجيوش أن المسألة جـد لا هزل. فقد نبهت هذه الجيوش الاذهان الى أن سلام أوربا ينبغى الا يعكره أولئك الأحرار الذين ليسـوا فى واقع الأمر سوى يعاقبة مستترين يتطلعون الى العودة الى أيام الثورة . فأخذتحمس الناس لحروب التحرير الكبرى التى شبت فى الاعوام ١٨١٢ و١٨١٣ و١٨١٤ و١٨١٥ . . . يخبو ويخمد . وأعقب ذلك نشوء اعتقاد وثيق بحلول أيام أسـعد من هاتيك الايام . وكان الجنود الذين اكتووا بنـار المعارك يريدون السلام ويجاهرون بذلك .

ولكنهم لم يكونوا يريدون ذلك السلام الذى أفاءه عليهم آنئذ الحلف المقدس ومجلس الدول الاوربية ، وعلت صيحتهم بأنهم خدعوا ، ولكنهم اصطنعوا فى ذلك الحذر خشية أن يسمعهم عين من عيون الشرطة السرية ، وانتصرت الردة ، وكانت من صنع أولئك الذين آمنوا ايمانا راسخا بأن أساليبهم لا معدى عنها لخير البشرية . غير أن اصطناع هذه الاساليب كان أيضا أمرا عسيرا حتى لكأنهم كانوا يهدفون الى شىء أقل شـفقة ورحمة ، وقد اقتضاهم ذلك كثيرا من العذاب بلا موجب ، وأضر الى حـد كبير بالتقـدم السياسى المطرد .



أرادوا أن يحققوا للعالم حقبة من السلام ، لا يعكر صفوه شيء ، وذلك بخنق كل فكرة جديدة . وأقاموا الشرطة عينا على أكبر عمال الدولة فما لبثت سجون الدول أن امتلأت بأولئك الذين نادوا بأن الناس من حقهم أن يحكموا أنفسهم على الوجه الذى يرون فيه صلاحهم .

كان اصلاح الدمار الذى أحدثه الطوفان النابليونى مستحيلا أو أشبه بالمستحيل . فقد أتى هذا الطوفان على الجسور القديمة قدم الزمان ، وتخربت قصور طائفة من الاسر الحاكمة الى حد أن الناس وصموها بأنها عادت لا تصلح للسكنى . واتسعت قصور ملكية أخرى اتساعا عظيما على حساب جيران أقل ثروة وجاها . وخلف انحسار الطوفان عجائب وآثارا من مبادىء الثورة ، لم يكن من اليسير القضاء عليها دون أن يتعرض المجتمع كله للخطر . على ان مهندسى مؤتمر ڤينا من الساسة بذلوا كل مافى وسعهم ، وهاك ماتم على أيديهم :

لقد عكرت فرنسا صفو السلام العالمى سنين عدة ، حتى بات الناس يخشونها خشية جرت مجرى الفطرة أو كادت . ووعد آل بربون على لسان تاليران بأن يسيروا على جادة الصواب ، ولكن الايام المائة قد بصرت أوربا بما تتوقعه من أحداث لو أنه تيسر لنابليون الهرب مرة ثانية ، ومن ثم حولت جمهورية هولندا الى مملكة . أما بلجيكا — التى لم تكن قد اشتركت مع هولندا فى نضالها من أجل الاستقلال فى القرن السادس عشر، وظلت منذ ذلك الوقت جزءا من أملاك آل هابسبورج تحت السيادة الاسبانية أول الامر ثم تحت السيادة النمسوية بعد ذلك — فقد جعلت جزءا من هذه المملكة الجديدة ، وهى مملكة الاراضى المنخفضة . ولم يكن أحد يرغب فى ذلك الاتحاد سواء البروتستانت فى الشمال أو الكاثوليك فى الجنوب ، ولكن لم يثر أحد أية مسألة حول هذا الموضوع . لقد بدا أن فى ذلك خيرا لسلام أوربا ، فكان هو الاعتبار الغالب .

وكانت بولندا تطمح فى أن ينالها خير كثير لان الأمير البولندى آدم زارتوريسكى كان من أصدق أصدقاء القيصر الاسكندر ، وكان مشيره دائما ابان الحرب وفى مؤتمر ڤينا . غير أن بولندا جعلت دولة شبه مستقلة ، وألحقت بالروسيا ، على أن يكون الاسكندر ملكا عليها ، ولم يرض أحد عن هذا الحل ، وأثار فى النفوس مرارة شديدة، ونجمت عنه ثورات ثلاث .

وكان جزاء الدانيمارك العقاب الشديد لانها ظلت حتى النهاية الحليف المخلص لنابليون . وقد حدث قبل ذلك بسبع سنين أن أبحر أسطول انكليزى الى كاتيجات وأطلق نيرانه على كوپنهاجن دون اعلان حرب أو تحذير ، وانتزع الاسطول الدانيماركى حتى لاينتفع به نابليون . وخطا مؤتمر ڤينا خطوة أخرى ، فقد انتزع النرويج من الدانيمارك ، وكانت منذ قيام اتحاد كالمر عام ١٣٩٧ متحدة مع الدانيمارك ، وأعطاها الى شارل الرابع عشر ملك السويد ، مكافأة له على خيانته لنابليون الذى كان قد ولاه هذا المنصب . ومن العجيب أن هذا الملك السويدى — ويدعى **برنادوت** — كان قبل ذلك أحد قواد فرنسا ، ذهب الى السويد قائدا من قواد نابليون ، ثم عرض عليه عرش هذه البلاد الجميلة عندما توفى آخر حكامها من بيت هولشتين — جوتورب دون أن يعقب ولدا . فظل هذا الملك يحكم السويد ، وطنه الثانى الذى لم يعرف لغته قط ، من عام ١٨١٥ الى عام ١٨٤٤ بقدرة فائقة . فلقد كان برنادوت رجلا أريبا يبجله رعاياه السويديون والنرويجيون ، ولكنه لم ينجح فى ادماج دولتين قد عملت الطبيعة والتاريخ على انفصالهما . ولم يفلح قط الاتحاد الذى قام بين هاتين الدولتين الاسكندناويتين . وفى عام ١٩٠٥ استقلت النرويج بأمر نفسها ، على خير مايرجى من سلام ووئام ، فأصبحت مملكة مستقلة ، وتمنى لها السويديون الرقى السريع ، وكانوا فى غاية الحكمة اذ تركوها تمضى فى حال سبيلها .

وكان الايطاليون ، الذين ظلوا منذ أيام النهضة تحت رحمة سلسلة لاتنقطع من غارات المغيرين ، قد رجوا هم أيضا الخير على يد القائد نابليون . غير أن الامبراطور نابليون خيب آمالهم الى حد بعيد ، فلم يحقق رغبة الشعب فى توحيد ايطاليا ، بل قسمها الى عدد من الامارات الصغيرة والدوقيات والجمهوريات علاوة على الدولة البابوية التى كانت بعد نابلى أسوأ اقليم فى شبه الجزيرة بأكملها حكما واشدها بؤسا . وقد ألغى مؤتمر ڤينا عددا قليلا من الامارات القديمة ،

واعطاها لمن هم أهل لها من أفراد بيت هابسبورج ذكورا وأناثا .

أما الاسبان التعساء الذين كانوا أول من قام بثورة قومية كبرى على نابليون ، والذين بذلوا أزكى دمائهم فى سبيل ملكهم ،فقد عوقبوا عقابا صارما عندما سمح المؤتمر للملك بالعودة الى بلاده . لقد أمضى هذا الملك الشرير المعروف بفرديناند السابع ، السنوات الاربع الاخيرة من حياته سجينا فى يد نابليون ، واستعان على قضاء هذه الايام بنسج كسى لتماثيل أوليائه المحببين اليه ، واحتفل بعودته الى بلاده باعادة محاكم التفتيش وغرفة التعذيب اليها ، وكانت الثورة قد قضت عليها . لقد كان فرديناند شخصا كريها ممقوتا سواء من شعبه أو من زوجاته الاربع ، ولكن الحلف المقدس ثبته على عرشه الشرعى ، وانتهت الجهود التى بذلها الاسبان أهل الوفاء والرزانة للخلاص من هذا الكابوس ، وجعل اسبانيا ملكية دستورية بالقتل واراقة الدماء .

وكانت البرتغال لا ملك لها منذ عام ١٨٠٧ ، وهو العام الذى فرت فيه الاسرة المالكة الى المستعمرات فى البرازيل . وكانت هذه البلاد قاعدة لتموين جيوش ولنجتن فى أثناء حرب شبه الجزيرة من عام ١٨٠٨ حتى عام ١٨١٤ ، وظلت البرتغال بعدعام ١٨١٥ أشبه بولاية انكليزية الى أن عاد بيت براجانزا الى العرش مخلفا وراءه أحد أفراد البيت المالك فى ريودى جانيرو امبراطورا على البرازيل ، وهى الامبراطورية الامريكية الوحيدة التى ظلت قائمةً عدة سنوات ، والتى انتهى أجلها عام ١٨٨٩ ، عندما أصبحت البرازيل جمهورية .

أما فى الشرق فلم يفعل شىء لتحسين الظروف المريعة التى كان يعيش فى كنفها الصقالبة واليونانيون الذين كانوا لايزالون من رعايا السلطان . وفى عام ١٨٠٤ قام صربى من رعاة الخنازير يدعى جورج الأسود (مؤسس أسرة قره جورجيفتش) بثورة ضد الترك ، ولكن الترك أوقعوا به الهزيمة ، وقتله أحد أصدقائه المزعومين ، وهو زعيم صربى منافس له يدعى **ميلوش ابرينوفيتش** (الذى أصبح رأس أسرة ابرينوفيتش) ، واستمر الترك أصحاب السلطان المطلق فى البلقان .

أما اليونانيون — الذين كانوا قد أصبحوا ، منذ أن فقدوا استقلالهم قبل ذلك بألفى سنة ، من رعايا المقدونيين ثم الرومان ثم البنادقة ثم الترك — فقد كانوا يأملون أن ينالوا أخيرا على يد مواطنهم **كابو ده استريا** من أهل كورفو ، وعلى يد **تزارتوريسكى** الذى كان من أصدق أصدقاء الاسكندر . على أن مؤتمر ڤينا لم يكن يهتم بأمر اليونان ، ولكن اهتمامه الشديد كان منصرفا الى ابقاء الملوك الشرعيين على عروشهم سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين ، أو على غير هذين الدينين ، ولذلك لم يفعل شيئا من أجل اليونانيين .

على أن آخر الأخطاء التى وقع فيها مؤتمر ڤينا وأعظمها هو معاملته لالمانيا . ذلك أن حركة الاصلاح الدينى وحروب الثلاثين سنة ... لم تقض على رخاء المانيا فحسب ، بل أحالتها أيضا الى انقاض سياسية لا أمل فيها ، اذ انقسمت البلاد الى مملكتين، والى عدد قليل من الدوقيات الكبيرة ، والى كثير من الدوقيات الصغيرة ، ومئات من الامارات والبارونيات والمدن الحرة والقرى الحرة ،يحكمها أعجب خليط من الحكام ظهروا على هذا المسرح الهزلى . وقد غير فردريك الأكبر هذه الحال عندما أنشأ بروسيا القوية ، ولكن هذه الدولة لم تعش بعده الا سنوات قلائل .

لقد رسم نابليون خطة للوفاء بحاجة معظم هذه الدول الصغرة الى الاستقلال ، ولكن لم يعش من هذه الدول بعد عام ١٨٠٦ الا اثنتان وخمسون دولة من مجموعها البالغ أكثر من ثلاثمائة دولة . وفى خلال سنوات الجهاد العظيم فى سبيل الاستقلال كان مطمح كثير من شباب الجيش أن تقوم دولة قوية موحدة . على أن مثل هذا الاتحاد لم يكن ليتم دون زعامة قوية ، فمن عساه يكون هذا الزعيم ؟

كان ثمة خمس ممالك فى البلاد التى تتحدث الالمانية . وكان حاكما مملكتين من هذه الممالك — وهما النمسا وبروسيا — قد اعتليا العرش بفضل الله وارادته . أما ملوك الممالك الثلاث الاخرى : وهى بافاريا وسكسونيا وورتنبرج ، فقد اعتلوا العرش بفضل نابليون . ولما كان هؤلاء الملوك تابعين مخلصين للامبراطور ، فان الالمان الآخرين كانوا يتشككون فى وطنيتهم .

وقد انشأ مؤتمر ڤينا حلفا ألمانيا جديدا ، كان بمثابة عصبة أمم ، يضم ثمانيا وثلاثين دولة المانية ذات سيادة تحت رياسة ملك النمسا ،الذى كان يعرف آنئذ باسم أمبراطور النمسا ، وكان ذلك ضربا من التدابير التى تتخذ لتفادى الازمات لم يرض عنه أحد . والحق أن مجلس النواب الألمانى « ألدايت » الذى كان يعقد جلساته فى فرانكفورت مدينة التتويج القديمة ، كان يبحث المسائل الهامة ذات الصبغة السياسية العامة ،

ولكن هذا المجلس الجديد كان يضم ممثلى ثمان وثلاثين دولة ذات مصالح مختلفة . وكان لايتخذ فيه قرار الا باجماع الاصوات ، (وهى قاعدةبرلمانية قضت على مملكةبولندا القوية البأس فيما سلف من القرون) . ومن ثم سرعان ماغدا الاتحاد الالمانى الشهير موضع سخرية اوربا ، واصبحت سياسة الامبراطورية القديمة اشبه شيء بسياسة الولايات الامريكية الوسطى فى العقدين الرابع والخامس من القرن الماضى .

لقد اذل هذا البرلمان أشد الاذلال أولئك الناس الذين ضحوا بكل شيء فى سبيل تحقيق مثل قومى نزعوا اليه ، ولكن المؤتمر لم يكن يحفل بمشاعر الرعايا الخاصة . . . فانتهى النقاش ، وأسدل الستار .

وانا لنتساءل : هل اعترض أحد على ذلك ؟ نعم لقد حدث اعتراض بلا شك . ذلك انه ما ان انطفأ شعور الكراهية الذى خامر الناس اول الامر نحو نابليون ، وخمدت الحماسة الكبرى فى النفوس ، وتكشفت للناس الجريمة التى اقترفت باسم « السلام والاستقرار » حتى بدأوا يتهامسون بل هددوا بالثورة العلنية . ولكن ما الذى كان فى طوقهم أن يفعلوه ؟ كانوا لاحول لهم ولا قوة ، يعيشون تحت رحمة اقسى وادق نظام للشرطة عرفه العالم .

لقد اعتقد اعضاء مؤتمر ڤينا صادقين مخلصين « ان مبدأ الثورة هو الذى ادى الى اغتصاب نابليون الامبراطور السابق للعرش على هذا النحو الاجرامى » ، وقد ادركوا انهم قد اهيب بهم للتخلص من انصار مايعرف بالآراء الفرنسية ، شأنهم فى ذلك شأن فيليب الثانى الذى استمع لنداء ضميره وحده ، عندما قام باحراق البروتستانت وشنق عرب اسبانيا .

لقد كان الراى فى مستهل القرن السادس عشر ، أن الرجل الذى لا يعتقد فى حق البابا الالهى فى حكم رعاياه بما يرى ان فيه صلاحهم العام مارق زنديق ، وأن من واجب جميع الرعايا المخلصين قتله . وفى بداية القرن التاسع عشر كان أى رجل فى القارة الاوربية لايعتقد فى حق الملوك الالهى فى الحكم حسبما يرى الملك أو رئيس وزرائه . . . مارقا زنديقا ويجب على جميع الرعايا المخلصين ابلاغ امره الى اقرب شرطى ليتحققوا من انه قد نال جزاءه . غير أن الحكام فى عام ١٨١٥ قد تعلموا مافيه الكفاية فى مدرسة نابليون ، وقاموا بالواجبات المنوطة بهم على وجه احسن بكثير من أسلافهم فى عام ١٥١٧ . ولقد كانت الفترة بين عامى ١٨١٥ و ١٨٦٠ هى الحقبة الكبرى للتجسس السياسى . فقد بثت الجواسيس والعيون فى كل مكان ، وكانوا يعيشون فى القصور كما كانوا يوجدون فى أحقر الحانات . لقد كانوا ينظرون من خلال ثقوب الابواب فى مجالس الوزراء ، ويستمعون الى احاديث الناس وهم يروحون عن انفسهم جلوسا فوق المقاعد فى المتنزهات البلدية ، وقاموا بحراسة الحدود حتى لايستطيع احد ان يعبرها من غير تصريح بالعبور معتمد ، كما كانوا يفتشون جميع الحقائب حتى لايتسرب الى البلاد التى يقوم بالحكم فيها سادتهم من الملوك ، اى كتاب يحمل فى طياته الآراء الفرنسية الخطرة . وكانوا يجلسون بين الطلاب فى قاعات الدرس . . والويل كل الويل للاستاذ الذى يتفوه بعبارة يشتم منها العداء للنظام القائم للأمور ، وكانوا يتبعون الأولاد والفتيات الصغار فى ذهابهم الى الكنيسة حتى لايلهوا فى الطريق !

وكان هؤلاء الجواسيس يستعينون على أداء كثير من هذه المهام برجال الدين ، فقد قاست الكنيسة الشيء الكثير ايام الثورة . اذ صودرت املاكها ، وقتل كثير من القساوسة . وكان أبناء الجيل - الذين أخذوا أصول دينهم عن ڤولتير وروسو وغيرهما من الفلاسفة الفرنسيين - يرقصون حول مذبح العقل عندما ألغت لجنة الامن العام عبادة الله فى اكتوبر عام ١٧٩٣ . وقد تبع القساوسة المهاجرين الى منفاهم الطويل ، والآن وقد عادوا فى أعقاب الجيوش المتحالفة ، فقد أخذوا فى العمل تحدوهم الرغبة فى الانتقام ، بل ان اليسوعيين انفسهم قدعادوا عام ١٨١٤ ، واستأنفوا عملهم الاول : الا وهو تثقيف النشء وتعليمهم . ولم تصب طائفتهم الا نجاحا قليلا فى صراعها مع اعداء الكنيسة . فقد انشأت هذه الطائفة مراكز لها فى كل انحاء العالم ليبصروا الاهالى بنعمة المسيحية ، ولكن سرعان ما استحالت هذه المراكز الى شركة تجارية منظمة كانت تتدخل على الدوام فى أعمال السلطات المدنية . وقد أخرج اليسوعيون من بلاد البرتغال خلال عهد المركيز ده بومبال الوزير البرتغالى والمصلح الكبير . وفى عام ١٧٧٣ الغى البابا كليمانت الرابع عشر طائفة اليسوعيين ، نزولا على رغبة معظم دول أوربا الكاثوليكية . وهاهم أولاء قد عادوا الى مهمتهم مرة اخرى ، واخذوا يلقنون مبادىء «الطاعة» و «حب الأسر الشرعية الحاكمة » للأطفال الذين استأجر آباؤهم الشرفات لكى يستطيعوا أن يسخروا من مارى

انطوانيت وهى تساق الى المقصلة التى قدر لها أن تضع حدا لآلامها وبؤسها .

ولم تكن الامور فى الدول البروتستانتية ، مثل بروسيا ، احسن من ذلك فى كثير أو قليل . ذلك أن ائمة الزعماء الوطنيين فى عام ١٨١٢ والشعراءوالكتاب الذين نادوا بشن حرب مقدسةعلى الغاصب ،اصبحوا الآن يوصمون بأنهم زعماء شعبيون خطرون . فقد كانت بيوتهم تفتش وخطاباتهم تقرأ ، وكان عليهم أن يقدموا انفسهم للشرطة فى أوقات معلومة ، وينبئوهم بأخبارهم . واطلق للرياضيين البروسيين العنان فى التشدد مع جيل الشباب ، فاذا ما قام فريق من الطلاب بالاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لحركة الاصلاح فى فريبرج القديمة ... احتفالا فيه صخب، وان خلا من المضرة ، يوجس رجال الحكومةالبروسية من أن يكون ذلك منذرا بثورة محيقة . واذا قتل طالب لاهوت ، ايمانه أكثر من ذكائه،جاسوساللحكومة الروسية يعمل فى المانيا ، فان الجامعات توضع تحت رقابة رجال الشرطة ، ويسجن الاساتذة أو يطردون من مناصبهم دون أن يحاكموا على اية صورة من الصور .

وكانت روسيا بطبيعة الحال أكثر حماقة فى اتخاذ هذه الخطوات المناهضة للثورة . فلقد افاق الاسكندر من نوبة التقى والورع التى انتابته ، وكان يستسلم شيئا فشيئا الى الكآبة والحزن . لقد كان يعلم حق العلم ان كفاياته محدودة ، كما أدرك كيف اتفق لهم فى فينا أن أصبح فريسة لمترنيخ .. فأخذ يولى ظهره الى الغرب شيئا فشيئا ، وأصبح حاكما روسيا بحق ، يحصر اهتمامه فى القسطنطينيةالمدينة المقدسة القديمة التى كانت أول معلم للصقالبة . وكان الاسكندر كلما تقدم به العمر زاد انهماكا فى العمل ، وقلت قدرته على الانتاج . وبينما كان منصرفا الى دراساته وتدابيره أحال وزراؤه جميع الروسيا الى ثكنات عسكرية .

وليست هذه الصورة مشرقة تسر الناظرين ، ولعله كان يجمل بى أن أوجز فى وصف هذه الردة الكبرى ، ولكن من الحق أيضا ان تعرف هذهالحقيقة حق المعرفة . ولم تكن هذه المرة الاولى التى بذلت فيها محاولة ترمى الى الرجوع بالتاريخ الى الوراء ، وكانت عاقبة ذلك هى العاقبة المنتظرة المألوفة .

الاستقلال القومى

على أن حب الاستقلال القومى كان أرسخ من أن يقتلع على هذا النحو . وكان أهل امريكا الجنوبية أول من ثاروا على التدابير الرجعية التى اتخذها مؤتمر فينا . وحذت حذوهم اليونان وبلجيكا واسبانيا وعدد كبير من سائر بلاد القارة الاوربية . وقد حفل القرن التاسع عشر بأخبار حروب كثيرة فى سبيل الاستقلال

ليس من الخير فى شىء أن نقول « لو أن مؤتمر فينا قد فعل كيت وكيت ، بدلا من أن يسلك هذا المسلك أو ذاك ... لتغير تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر » . لقد كان مؤتمر فينا مجتمعا عقده قوم خرجوا لتوهم من ثورة كبرى ، وفترة دامت عشرين عاما ، انقضت فى حروب رهيبة تكاد لا تنقطع . التقى هؤلاء القوم ليفيئوا على أوربا « السلام والاستقرار » اللذين كان الناس ، فى نظرهم ، فى حاجة اليهما . وكان المؤتمرون نفرا من اولئك الذين نسميهم بالرجعيين ، آمنوا ايمانا راسخا بعجز جهود الناس عن أن يحكموا انفسهم . فعاودوا تخطيط خريطة أوربا على نحو كان يبدو انه يبشر بأعظم مايمكن من نجاح وثيق... وخاب سعيهم ، ولكن السببفى ذلكلايعود الى ان القوم كانوا يضمرون من ناحيتهم أى شر ، لقد كان معظم هؤلاء رجالا من المدرسة القديمة ، تذكروا الايام السعيدة التى مروا بها فى شبابهم الهادىء ، فرغبوا رغبة صادقة فى عودة هذه الايام المباركة . ولكنهم لم يستطيعوا ان يدركوا ذلك السلطان العظيم الذى كان للمبادىء الثورية فى نفوس سكان القارة الاوربية . لقد كان ذلك منهم ضربا من سوء التوفيق . بيد انه يتعذر علينا أن نقول أن

عملهم هذا يعد جريمة من الجرائم . على أن ثمة درسا لقنته الثورة الفرنسية لاوروباوامريكا على السواء : الا وهو حق الشعوب فى تحقيق قوميتها .

لقد كان نابليون — وهو ذلك الرجل الذى كان لايحترم شيئا ، ولا يوقر شخصا — لا تأخذه شفقة ولا رحمة فى معالجة الاطماع القومية والوطنية . الا ان قواد الثورة الاولين كانوا قد نادوا بذلك المبدأ الجديد ، وهو « ان القومية لاتقوم بالحدود ولا تقاس بأصحاب الرءوس المستديرة أو الانوف العريضة ، وانما هى مسألة تمس القلوب والنفوس » .

وكانوا اذ يلقنون الاطفال الفرنسيين عظمة الامة الفرنسية ، يشجعون الاسبان والهولنديين والايطاليين على السير على نهجهم . وسرعان ما أخذت هذه الشعوب — التى كانت تؤمن جميعا بعقيدة روسو فى الفضائل السامية التى كان يتحلى بها الانسان الاول — تنقب فى ماضيها ، فوجدت تحت أطلال العهد الاقطاعى عظام الاجناس الجبارة التى حسبت انها سلالتها الضعيفة .

لقد كان النصف الاول من القرن التاسع عشر عهد الكشوف التاريخية العظمى . وكان المؤرخون فى كل مكان مشغولين بنشر وثائق وعهود العصور الوسطى وأخبارها الاولى ، فنشأ عن ذلك ان تملكت النفوس فى كل بلد من البلاد عزة جديدة بالوطن القديم . وكان معظم هذا الشعور يرتكن الى تفسير مخطىء للحقائق التاريخية . ولكن الحقائق لا يعول عليها فى ميدان السياسة العملية ، وانما يقوم كل شىء فى هذا الميدان على ما يعتقد الناس أنه حق . وكان الملوك ورعاياهم فى معظم الممالك يعتقدون اعتقادا راسخا فى مجد اسلافهم وذيوع صيتهم .

لم يجنح مؤتمر ڤينا الى مراعاة الشعور والعواطف ، فقد خطط أصحاب السعادة المؤتمرون خريطة أوربا وفقا لمصالح عدد محدد من الاسر الحاكمة ، ووضعوا الأمانى القومية على الهامش ، أو فى قائمة الكتب المحرمة ، هى وسائر المبادىء الفرنسية الخطرة .

غير ان التاريخ لايقيم وزنا للمعاهدات ، ذلك ان وجود الامم لسبب أو لآخر ... ضرورة ، فيما يظهر ، من ضرورات التطور المطرد للمجتمع الانسانى . ولعل هذه الحقيقة سنة من سنن التاريخ غابت الى الآن عن انظار العلماء . ثم ان محاولة ايقاف تيار هذه الامم باءت بالخذلان التام ، مثلها مثل المحاولة التى بذلها مترنيخ لمنع الناس من التفكير سواء بسواء . ومن عجب ان القلاقل الاولى بدأت فى جهة نائية من جهات العالم ، وهى أمريكا الجنوبية . فقد كانت المستعمرات الاسبانية فى هذه القارة تستمتع فى فترة من الزمن بشىء من الاستقلال خلال السنوات الكثيرة التى استعرت فيها الحروب النابليونية . بل ان هذه المستعمرات ظلت مخلصة لملكها عندما أسره أمبراطور فرنسا ، ورفضت الاعتراف بيوسف بونابرت الذى نصبه أخوه ملكا على اسبانيا عام ١٨٠٨ .

والحق أن الجزء الوحيد من أمريكا الذى أزعجته الثورة اشد الازعاج ، كانت جزيرة هايتى التى عرفت فى رحلة كولومبس الأولى باسم « أسبانيولا » . ففى عام ١٧٩١ منح رجال المؤتمر الوطنى الفرنسى — فى فورة مفاجئة من فورات المحبة والاخاء الانسانى — أخوانهم السود جميع الامتيازات التى كانت الى ذلك الحين وقفا على أسيادهم البيض . ولقد ندم المؤتمر فجأة أيضا على اتخاذه هذه الخطوة . على ان المحاولات التى بذلت لنقض هذا الوعد أدت الى قيام حروب رهيبة دامت عدة سنوات بين الجنرال ليكليرك صهر نابليون والزعيم الزنجى توسانت لو ڤرتير . وفى عام ١٨٠١ طلب من توسانت زيارة الجنرال ليكليرك لبحث شروط الصلح بعد أن بذلت له اغلظ المواثيق بتأمينه على حياته . ووثق توسانت بخصومه البيض ورحل على احدى السفن . وكان من أمره ان توفى بعد ذلك بقليل فى سجن من السجون الفرنسية . غير ان الزنوج نالوا استقلالهم ، وانشأوا لهم جمهورية ، وكانوا آخر الامر خير معين لاول زعيم وطنى فى أمريكا الجنوبية عندما هب لتخليص بلاده من نير الاسبان .

ولد **سيمون بوليڤار** — وهو من مواطنى كركاس من أعمال ڤنزويلا — عام ١٧٨٣ ، وتلقى علومه فى أسبانيا ، وزار باريس ، وشهد حكومة الثورة وهى تقوم بالحكم ، وعاش ردحا من الزمن فى الولايات المتحدة ، ثم عاد الى وطنه حيث أخذ السخط العام على اسبانيا .. الوطن الاصلى ، يتخذ مظهرا معينا . وقد أعلنت ڤنزويلا استقلالها عام ١٨١١ ، واصبح **بوليڤار** أحد قواد الثورة . ولم يمض شهران حتى حلت الهزيمة بالثوار ، وركن بوليڤار الى الفرار .

وكان بوليڤار خلال السنوات الخمس التالية زعيم قضية خاسرة فى الظاهر ، اذ ضحى بثروته كلها ، ولم يكن فى استطاعته الشروع فى حملته الاخيرة الناجحة الا بمعونة رئيس جمهورية هايتى . وقد عمت الثورة بعد ذلك أمريكا الجنوبية بأسرها ، وسرعان ما اتضح أن اسبانيا أصبحت عاجزة عن القضاء على الثوار

دون معونة من الخارج ، لذلك نجدها تطلب هـذه المعونة من الحلف المقدس .

ولقد أزعجت هـذه الخطوة انكلترا ايما ازعاج ، فأصحاب سفن الشحن فى انكلترا كانوا قـد خلفوا الهولنديين عـلى القيـام بحركة الشحن فى العـالم ، وكانوا يتوقعون أرباحا طائلة من اعلان الاستقلال فى جميع أرجاء أمريكا الجنوبيـة ، وكانوا يأملون أن تتدخل الولايات المتحدة الامريكية فى الامر ، ولكن مجلس الشيوخ الامريكى لم تكن لديه أية مشروعات من هذا القبيل ، كذلك ظهرت أصوات كثيرة فى المجلس تعلن أنه يجب أن تطلق يد اسبانيا فى تسوية هذا الأمر .

وحدث ان تغيرت الوزارة البريطانية فى ذلك الوقت نفسه ، اذ ذهبت وزارة الاحرار وحل محلها وزارة المحافظين ، وأصبح جورج كاننج وزيرا للخارجية فأوعز بأن انكلترا ستؤيد عن طيب خاطر الحـكومة الامريكية بكل ما لأسطولها من قوة ، اذا اعلنت هذه الحكومة عدم موافقتها على خطط الحلف المقـدس فيما يتصل بمستعمرات أمريكا الجنوبية الثائرة .

ومن ثم حدث فى الثانى من شهر ديسمبر عام ١٨٣٢ أن قام **الرئيس منرو** خطيبا فى الكونجرس الأمريـكى وأعلن « ان امريكا تعد كل محاولة من جانب الدول المتحالفة ترمى الى بسط نظامها عـلى أية بقعة من نصف العالم الغربى أمرا يهدد أمننا وسلامتنا » ، ثم قال محذرا « وان الحكومة الامريكية سوف تعـد مثل هذا العمل من جانب الحلف المقدس مظـاهرة غير ودية موجهة الى الولايات المتحدة » . وبعد ذلك بأربعة أسابيع نشرت الصحف الانكليزية نص مبـدأ منرو ، فلم يكن أمام الدول المنضمة الى هذا الحلف المقدس الا اختيار أحد الامرين ..

ولقد تردد مترنيخ فى الامر ، ولكنه شخصيا كان راغبا فى المخاطرة باغضاب الولايات المتحدة التى كانت قد أهملت جيشها وأسطولها منذ نهاية الحرب الامريكية الانكليزية عام ١٨١٢ . ولـكن خطة التهـديد التى انتهجها كاننج ، والقلاقل التى ظهرت فى القارة الاوروبية، قد اجبرته على اتخاذ جانب الحذر ، لذلك لم تنفذ هذه الحملة قط ، ونالت امريكا الجنوبية والمكسيك استقلالهما .

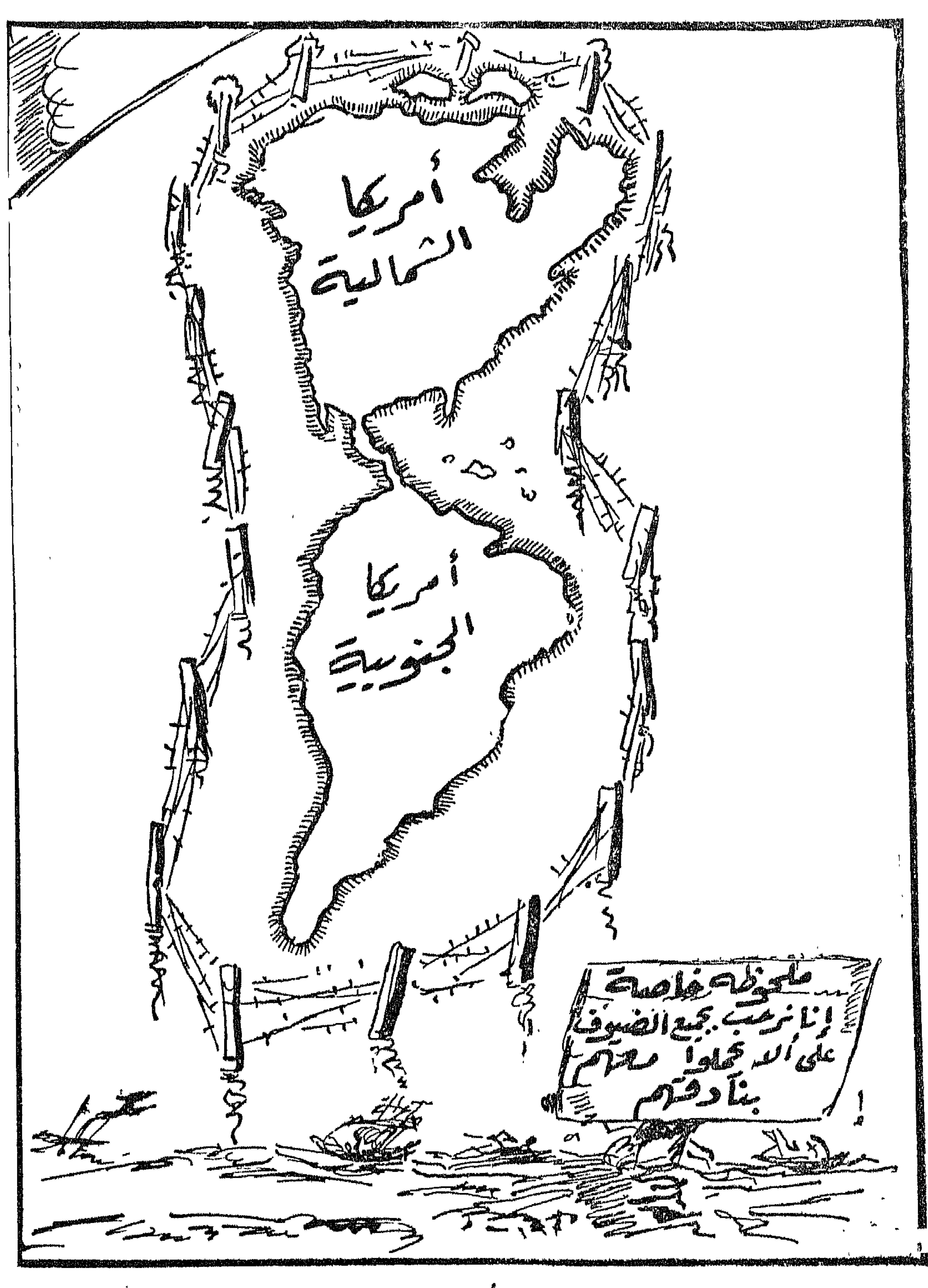
أما من حيث القلاقل فى القارة الاوربية ، فقـد كانت مقبلة سريعة وعنيفة . فقد أنفذ الحلف المقدس الجنود الفرنسيين الى أسبانيـا عام ١٨٢٠ لحفظ السلام فى تلك البلاد : واستخدمت الجنود النمسوية لمثل هـذا الفرض فى ايطاليـا عنـدما كان حزب الكاربونارى ــ وهم تلك الجمعية السرية التى تألفت من صناع الفحم النباتى ــ يبث الدعوة الى توحيد ايطاليا ويثير الفتنة ضد فرديناند ملك نابلى الجبار .

وجاءت من الروسيا أيضا أنباء سيئة ، ذلك أن وفاة الاسكندر كانت نذيرا بقيام الثورة فى سـانت بطرسبرج ، وهى ثورة دموية قصيرة الاجل ، تعرف باسم ثورة **ديكابرست** (لأنها حدثت فى شهر ديسمبر) . وقد انتهت هذه الثورة بشنق عدد كبير من الوطنيين الصالحين الذين نفروا من النزعة الرجعية التى انتهجها الاسكندر فى سنواته الاخيرة ، فحاولوا ان يقيمـوا فى الروسيا حكومة دستورية .

على أن الامور ازدادت سوءا ، فان مترنيخ حاول أن يضمن لنفسه معـونة ملوك أوربا عـلى الدوام ، وذلك بعقد عدة مؤتمرات فى أكس لاشابل وفى تروبو وفى ليبسـاخ ، وأخيرا فى ڤيرونا . ومن ثم شـد ممثلو الدول المختلفة رحالهم الى هذه المدن الجميلة الساحلية، وهى المدن التى اعتـاد أن يقضى فيها رئيس الوزارة النمسوية فصل الصيف . وكان هؤلاء يبذلون دائما الوعد بأنهم سيتخذون كل ما فى وسعهم للقضاء على الثورة ، ولكنهم لم يكونوا بحال واثقين من النجاح . ذلك أن النفوس بدأت تتجهم ، وخاصـة فى فرنسا ، حيث كانت الملكية فى مركز ابعد ما يكون عن الاستقرار . ومهما يكن من شىء فان النزاع قد شب أول ما شب فى البلقان ، وهو ذلك المنفذ الى أوربا الغربية الذى سار فيه جميع غزاة هذه القارة منذ أقدم الازمنة . وقد شبت الثورة الاولى فى البغدان ، وهى اقليم داشيـا الرومانى القديم الذى انسلخ عن جسم الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث . وقد غدا هذا الاقليم منذ ذلك الوقت أرضا ضائعة ، أشبه ما تكون بقـارة اطلانطس ، حيث استمر أهله يتحدثون اللغة الرومانية القديمة . وظلوا يطلقون على انفسهم اسم الرومان وعلى بلادهم اسم رومانيا . قام فى هذا الاقليم عام ١٨٢١ شاب يونانى يدعى الأمير **اسكندر ابسلانتى** ، وبدأ ثورته على الترك ، وقد أخبر أتباعه أنهم يستطيعون الاعتماد على الروسيا . ولكن مترنيخ أرسل رسله على جناح السرعة الى سانت بطرسبرج، فكان أن رفض القيصر تقديم هذه المساعدة بعـد ان اقنعه الوزير النمسوى اقناعا تاما بالمحافظة على السلام والاستقرار! واضطر ابسلانتى الى الفرار الى النمسا حيث أمضى السنوات السبع التالية من حياته فى السجن .

وبدأت القلاقل فى اليونان فى هـذا العام نفسه

(١٨٢١) ... فقد كانت جمعية سرية من الوطنيين اليونانيين تمهد الطريق للثورة منذ عام ١٨١٥ ، وكان من أمرها أن رفعت علم الاستقلال بغتة على أرض المورة (وهى بلاد الپيلوبونيز القديمة) ، وطردت الحاميات التركية منها . ولقد أجاب الترك على ذلك باسلوبهم المعتاد ، اذ أخذوا بطريرك اليونان بالآستانة — وهو بمثابة البابا لكل اليونانيين ولكثير من الروس على السواء — وشنقوه هو وعدد من اساقفته فى يوم عيد



مبدأ مونرو

الفصح من عام ١٨٢١ ، فانتقم اليونانيون بذبح جميع المسلمين فى تريپولتزا عاصمة المورة . وقد ثار الترك لذلك فهاجموا جزيرة خيوس وقتلوا من اهلها ٢٥ الف مسيحى ، وباعوا ٤٥ الف مسيحى آخر بيع العبيد فى آسيا ومصر . وعند ذلك فزع اليونانيون الى ملوك أوربا ، ولكن مترنيخ قال لهم كلاما كثيرا قوامه أن يصطلوا « بالنار التى اشعلوها » — ولست أحاول فى هذا المقام ان اصطنع المجاز ، ولكنى انقل كلام فخامته ... فقد أنبأ القيصر أن هذه النار « نار الثورة يجب أن تحرق نفسها خارج حظيرة المدينة » . وأقفلت حدود البلاد فى وجه المتطوعين الذين رغبوا فى انقاذ اخوانهم الوطنيين ، وبدا أن قضيتهم باءت بالخسران ، ذلك ان جيشا مصريا نزل فى بلاد المورة تلبية لطلب تركيا ، وسرعان ما رفرف العلم التركى مرة ثانية فوق الاكروپول معقل أثينا القديم . ووطد الجيش المصرى السلام فى البلاد على الطريقة التركية . وتتبع مترنيخ هذه الحوادث باهتمام يشوبه الانفعال ، منتظرا اليوم الذى تصبح فيه محاولة تعكير السلم فى أوربا حدثا من احداث الماضى .

وكانت انكلترا هى التى قلبت للمرة الثانية خطط مترنيخ راسا على عقب ، ذلك أن عظمة انكلترا لم تكن تقوم على مستعمراتها المترامية ، ولا على ثروتها أو اسطولها ، وانما كانت تقوم على تلك البطولة الرصينة والاستقلال اللذين عرف بهما أوساط الناس فيها * فالانجليزى يطيع القانون ، لانه يدرك أن احترام حقوق الآخرين هو الفارق بين حظيرة الكلاب وبين الجماعة المتحضرة ، ولكنه لايعترف بحق الآخرين فى التدخل فى تفكيره . فاذا اتت بلاده شيئا اعتقد انه خطأ ، فانه يهب من سكونه ، ويقول لها انها أخطأت ، فتحترمه الحكومة التى يهاجمها ، وتحميه كل الحماية من الرعاع الذين يؤثرون كثيرا — كما كانوا فى أيام سقراط — القضاء على اولئك الذين يفوقونهم شجاعة وفطنة . وما من دعوة سليمة قامت الا وجدت عددا من الانكليز بين أخلص مؤيديها مهما يكن حظها من التأييد وبعد الشقة . وسواد الشعب الانكليزى لايختلفون عن غيرهم فى البلاد الأخرى ، فهم يتمسكون بما بين أيديهم من العمل الميسور لهم ، ولكن ليس لديهم متسع من الوقت ينفقونه فى المغامرات الخيالية . ولكنهم مع ذلك يعجبون بجارهم الغريب الاطوار الذى يترك كل ما فى يده ويذهب للقتال من أجل شعب مغمور فى آسيا أو افريقيا . فاذا لقى هذا الجار حتفه ، فانهم يقيمون له جنازة شعبية كريمة ، ويجعلونه فى نظر أطفالهم مثالا للشجاعة والمروءة .

وقد كانت جواسيس الشرطة الذين بثهم الحلف المقدس لا حول لهم ولا قوة أمام الروح القومية ، فانه فى عام ١٨٢٤ ، نشر اللورد بيرون — وهو ذلكم الشاب الانكليزى الثرى الذى نظم شعرا أبكى أهل أوربا جميعا — شراع يخته ، وأبحر صوب الجنوب لمساعدة اليونانيين . وبعد ذلك بثلاثة أشهر انتشر الخبر فى أوربا بأن بطلهم قد لقى حتفه فى ميسولونجى آخر معقل من معاقل اليونانيين . ولقد اثارت وفاته غريبا وحيدا شجون الناس ، فتألفت الجمعيات فى جميع الدول لتقديم المساعدة لليونانيين . وقام **لافاييت** رجل الثورة الامريكية العجوز العظيم يدافع عن قضية اليونان فى فرنسا ، وأرسل ملك باقاريا مئات من ضباطه لمساعدة الثوار ، وتدفقت الاموال والمؤن على رجال ميسولونجى الذين كانوا يتضورون جوعا .

وفى ذلك الوقت كان جورج كاننج ، الذى أحبط خطط الحلف المقدس فى أمريكا الجنوبية ، قد اعتلى منصب رياسة الوزارة فى انكلترا . وقد وجد أن الفرصة قد سنحت له للاخذ بمخانق مترنيخ مرة اخرى . وكانت أساطيل بريطانيا والروسيا رابضة بالفعل فى البحر المتوسط ، وكانت قد انفذتها الحكومات التى عادت لاتجسر على كبح جماح حماسة الشعوب لنصرة قضية الوطنيين اليونانيين . ولقد ظهر الاسطول الفرنسى فى الميدان ، لان فرنسا كانت قد جعلت نفسها منذ نهاية الحروب الصليبية حامية المسيحية فى البلاد الاسلامية . وفى العشرين من شهر اكتوبر عام ١٨٢٧ ، هاجمت اساطيل الدول الثلاث الأسطول التركى فى خليج ناڤارينو وقضت عليه* . وقلما قوبلت أخبار وقعة من الوقائع بمثل ماقوبلت به أخبار وقعة ناڤارينو من فرح الناس وابتهاجهم . وقد تعزى أهل أوربا الغربية والروسيا الذين كانوا محرومين من الحرية فى أوطانهم بخوض حرب خيالية فى سبيل حرية أهل اليونان المضطهدين . وقد نال اليونانيون جزاءهم عام ١٨٢٩ فأصبحت اليونان

* هنا يتضح انتصار بعض الغربيين لبعض على باطلهم ... اما آن الاوان لانتصار بعض الشرقيين لبعض على حقهم .. ؟
دار الشعب

* ما كان الاسطول تركيا بل كان مصريا . ولم يكن لقاؤه بالاسطول الفرنسى لقاء حرب شريفة بين خصمين ، بل كان غدرا لا يزال حتى اليوم دابهم ...
دار الشعب

أمة مستقلة ، ولقيت سياسة الرجعية والاستقرار هزيمتها الثانية الكبرى .

ولو اننى حاولت فى هذا المجلد الصغير أن أقص عليك بالتفصيل قصة النزاع فى سبيل الاستقلال القومى فى جميع الدول الاخرى لبدا ذلك سخيفا . فهناك عدد كبير من الكتب القيمة اختصت بهذه الموضوعات . ولقد وصفت لك قصة النزاع فى سبيل استقلال اليونان ، لانها كانت أول هجوم ناجح شن على حصن الرجعية الذى أقامه مؤتمر فينا لحفظ الاستقرار فى أوربا . وظل هذا الحصن المنيع من حصون الرجعية متماسكا ، وظل مترنيخ قابضا على ناصيته ، ولكن النهاية كانت قريبة . وأقام آل بوربون فى فرنسا حكما قوامه رجال الشرطة الذين كانوا يحاولون القضاء على آثار الثورة الفرنسية ، متجاهلين تماما قواعد الحرب وقوانينها الجارية على أصول المدنية . فلقد استمتع الشعب الفرنسى عندما توفى لويس الثامن عشر عام ١٨٢٤ بسلام وأمن دام تسع سنوات ، كانت فى حقيقتها أمر من السنوات العشر التى خاضت فيها الامبراطورية حروبها . فقد خلف لويس على العرش أخوه شارل العاشر .

وكان لويس من اسرة بوربون الشهيرة ، تلك الاسرة التى لم تتعلم شيئا قط ولم تنس شيئا ابدا . وقد ظلت ذكرى ذلك الصباح الذى بلغته فيه ، وهو مقيم فى مدينة هام ، الاخبار بقطع رأس أخيه ... نذيرا باقيا لما عساه يحدث للملوك الذين لاينظرون الى علامات الساعة النظرة الصحيحة . أما شارل الذى كان قد أخذ يعقد ديونا خاصة بلغت خمسين مليونا من الفرنكات قبل ان يبلغ العشرين من عمره ، فلم يكن يعرف شيئا أو يذكر شيئا ، وكانت عزيمته قد صحت على أن يعلم شيئا .

فما ان خلف أخاه على العرش حتى أقام حكومة « قساوسة وبالقساوسة ومن أجل القساوسة » . والحق أن الدوق ولنجتون الذى قال هذا القول لايمكن أن يعد من الاحرار الآخذين بأسباب العنف ، ومع ذلك فان شارل حكم البلاد حكما أسخط هذا الدوق نفسه الذى كان نصيرا مخلصا للقانون والنظام . ولما حاول شارل اخماد صوت الصحافة التى اجترأت على نقد حكومته ، وحل البرلمان لانه انتصر للصحافة ... باتت أيامه معدودة .

وفى مساء اليوم السابع والعشرين من شهر يونيه سنة ١٨٣٠ ، شبت الثورة فى باريس . وفى الثلاثين من ذلك الشهر نفسه فر الملك صوب الشاطىء ، وأبحر الى انكلترا . وبهذه الطريقة انتهى أجل هذه المهزلة المشهورة التى دامت خمسة عشر عاما ، وأقصيت آخر الامر أسرة بوربون عن عرش فرنسا . لقد كان ملوك هذه الاسرة تنقصهم الكفاية الى حد بعيد ، وكانت فرنسا خليقة بأن تعود الى الحكم الجمهورى ، ولكن مترنيخ لم يكن ليسمح باتخاذ هذه الخطوة .

لقد كان الموقف جد خطير ، ذلك أن شرارة الثورة قد تطايرت الى ماوراء الحدود الفرنسية ، فالهبت مخزنا آخر للبارود مليئا بالمظالم القومية . فمملكة الاراضى المنخفضة الجديدة لم يصادفها النجاح ، اذ لم يكن هناك من سبب يوحد ما بين البلجيك وأهل هولندا . وكان ملكهم وليم صاحب أورانج ، وهو سليل أحد أعمام وليم الصامت ، ينقصه الكثير من الحنكة والمرونة التى تحفظ السلام بين رعاياه غير المتجانسين . على الرغم من انه كان دءوبا على العمل ، ورجلا من رجال الاعمال القادرين . زد على ذلك أن حشود القساوسة الذين هبطوا أرض فرنسا قد التمسوا من فورهم الطريق الى بلجيكا . وكانت كل محاولة يبذلها وليم البروتستانتى تحيطها زمجرة تصدر من الجموع الفقيرة للمواطنين الثائرين ، ناظرين اليها على أنها سعى للاعتداء على حرية الكنيسة الكاثوليكية .

ففى الخامس والعشرين من شهر أغسطس ، شبت ثورة عامة على السلطات الهولندية فى بروكسل . وبعد ذلك بشهرين أعلن البلجيكيون استقلالهم ، واختاروا **ليوبولد « كوبورج** — عم فيكتوريا ملكة انجلترا — ملكا عليهم . ولقد كان ذلك حلا موفقا لتلك المشكلة ، اذ انفصلت هاتان الدولتان اللتان لم يكن ثمة موجب قط لاتحادهما ، وعاشتا من ثم فى سلام ووئام ، وسلكتا مسلك الجارين الفاضلين الوقورين .

لقد كانت الاخبار فى تلك الايام التى لم يكن فيها سوى قليل من السكك الحديدية القصيرة ، تنتقل ببطء ، ولكن عندما بلغ البولنديين أخبار الانتصارات التى حازها الثوار فى فرنسا وبلجيكا ... حدث اصطدام مباشر بين البولنديين وحكامهم الروس ، أدى الى حروب مريرة دامت سنة من الزمان، وانتهت بانتصار الروس انتصارا تاما ، « ووطد النظام على ضفاف الفستولا » على الطريقة الروسية المعروفة . لقد كان نيقولا الاول الذى خلف أخاه الاسكندر على العرش عام ١٨٢٥ يعتقد اعتقادا جازما بحق أسرته الالهى فى الحكم . وقد كان آلاف البولنديين اللاجئين الذين وجدوا المأوى فى أوربا

الغربية ، شهودا على أن مبادىء الحلف المقدس كانت لاتزال أكثر منمجرد عبارة جوفاء فىروسياالمقدسة.

ومرت ايطاليا ايضا بفترة منالاضطرابات والقلاقل. فان مارى لويز دوقة پارما وزوجة نابليون الامبراطور السابق التى هجرته بعد موقعة واترلو ، كانت قد اقصيت عن بلادها . أما فى الدولة البابوية فقد حاول الشعب المحنق اقامة جمهورية مستقلة . غير أن الجيوش النمسوية سارت الى روما ،وسرعان ماعادت الامور الى ما كانت عليه . وظل مترنيخ يسكن فى « پول پلاتز » مقر وزير خارجية آل هابسبورج ، وعاد جواسيس رجال الشرطة الى عملهم ، واستتب السلام استتبابا . وقد قدر لاوربا أن تظل ثمانية عشر عاما أخرى قبل ان تبذلمحاولة ثانية اكثر نجاحا من الأولى لتخليصها من ارث مؤتمر ڤينا الرهيب .

ثم ان فرنسا ، وهى تلك الدولة التى كانت محك الثورات فى اوربا ، هى التى كتب عليها للمرة الثانية ان تصدر الاشارة الاولى للثورة . فقد ولى العرش بعد شارل العاشر ، لويس فيليب ابن دوق أورليانز الشهير ، الذي اعتنق مذهب اليعاقبة ، وصوت مع المصوتين باعدام ابن عمه الملك ، وكان له شأن فى أيام الثورة الاولى ، وكان آنئذ يسمى « فيليب المساواة »، وقد قتل آخر الامر عندما حاول روبسبيير تطهير الأمة من جميع الخونة (وهو الاسم الذى أطلقه على أولئك الذين لايشاركونه آراءه) واضطر ولدهفيليب الى الفرار من جيش الثورة . وقد أخذ لويس فيليب الشاب يهيم على وجهه فى كل ناحية ، فقد قام بالتدريس فى احدى مدارس سويسرا ، وانفقسنتين فى اكتشاف مجاهل الناحية الغربية البعيدة من امريكا . وقد عاد لويس الى باريس بعد سقوط نابليون ، وكان أكثر فطنة وذكاء من أبناء عمه من أسرة بوربون .

كان لويس فيليب رجلا طيبا ... يتجول فى المتنزهات العامة وتحت ابطه مظلة من قماش القطن الاحمر تتبعه زمرة من الأطفال ، شأنه شأن أربابالأسر الطيبين . غير ان فرنسا كانت قد كبرت على الملكية، ولم يعرف لويس ذلك الا فى صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير من عام ١٨٤٨ ، عندما اقتحم جمهور من الناس قصر التويلرى ، وطردوا الملك منه ، وأعلنوا الجمهورية .

ولما بلغت هذه الأخبار ڤينا ، رأى مترنيخ لأول وهلة ان ذلك ليس الا تكرارا لما حدث عام ١٧٩٣،وانه يجب على الحلفاء ان يسيروا الى باريس مرة اخرى لوضع حد لهذا السباق الديمقراطى المعيبالمنكر. غير أن العاصمة النمسوية قد جاهرت بالثورة بعد ذلك بأسبوعين ، وفر مترنيخ من وجه الغوغاء من الباب الخلفى لقصره ، واضطر الامبراطور فرديناند أن يمنح رعاياه دستورا يتضمن معظم المبادىء الثورية التى حاول رئيس وزرائه القضاءعليهاخلالالسنواتالثلاث والثلاثين الاخيرة .

وفى هذه المرة شعرت اوربا جميعها بهذه الصدمة، واعلنت المجر استقلالها ، ودخلت فى حرب ضد آل هابسبورج تحت قيادة لويس كوسوت ، واستمرت الحرب بينهاتين القوتينغير المتكافئتين أكثرمن سنة. ثم اخمدت هذه الفتنة آخر الامر على يد جيوش القيصر نيقولا التى عبرت جبال الكربات ، وجعلت المجر مرة اخرى موطنا آمنا للحكم الاستبدادى . ومن ثم أقام آل هابسبرج محاكم عسكرية غير عادية حكمت بالاعدام على معظم المجريين الذين عجزوا عن قهرهم فى ساحة القتال .

أما فيما يتصل بايطاليا فقد اعلنت جزيرة صقلية استقلالها عن نابلى ، وطردت ملكها من آل بوربون . وكان القتل من نصيب **روسى** رئيس الوزراء فىالاملاك البابوية ، واضطر البابا نفسه الى الفرار ، ولكنه عاد فى السنة التالية على رأس جيش فرنسى ظل فى روما لحماية قداسته من أفراد شعبه حتى عام ١٨٧٠ . ثم استدعى هذا الجيش الى فرنسا ليحميها من البروسيين . واصبحت روما عاصمة لايطاليا . وثار فى الشمال كل من ميلان والبندقية على حكامها النمسويين ، وكان يشد من أزرهما البرت ملك سردانية . على ان جيشا قويا بقيادة **رادتزكى** المسن، سار الى نهر الپو ، وأوقع الهزيمة بأهل سردانية بالقرب من كستزا ونوڤارا . وأجبر البرت على التخلى عن العرش لابنه ڤيكتور ايمانويل الذى أصبح بعد ذلك بسنوات قلائل أول ملك علىايطالياالموحدة.

أما فى المانيا فقد اتخذت ثورة عام ١٨٤٨ ، صورة مظاهرة وطنية كبرى تطالب بالوحدة السياسية وبحكومة نيابية . وثار فى باڤاريا طلبة الجامعة على الملك الذى أنفق ماله ووقته على سيدة ايرلندية تدعى لولا مونتز تجيد الرقص الاسبانى ، ويثوى جثمانها الآن فى بترفيلد بنيويورك ، وأخرجوه من البلاد. وأجبر ملك بروسيا على الوقوف عارى الرأس أمام توابيت الضحايا الذين قتلوا ابان الاضطرابات التى حدثت فى الشوارع ، وأن يعد بمنح البلاد حكومة دستورية . وفى مارس من عام ١٨٤٩ ، اجتمع البرلمان

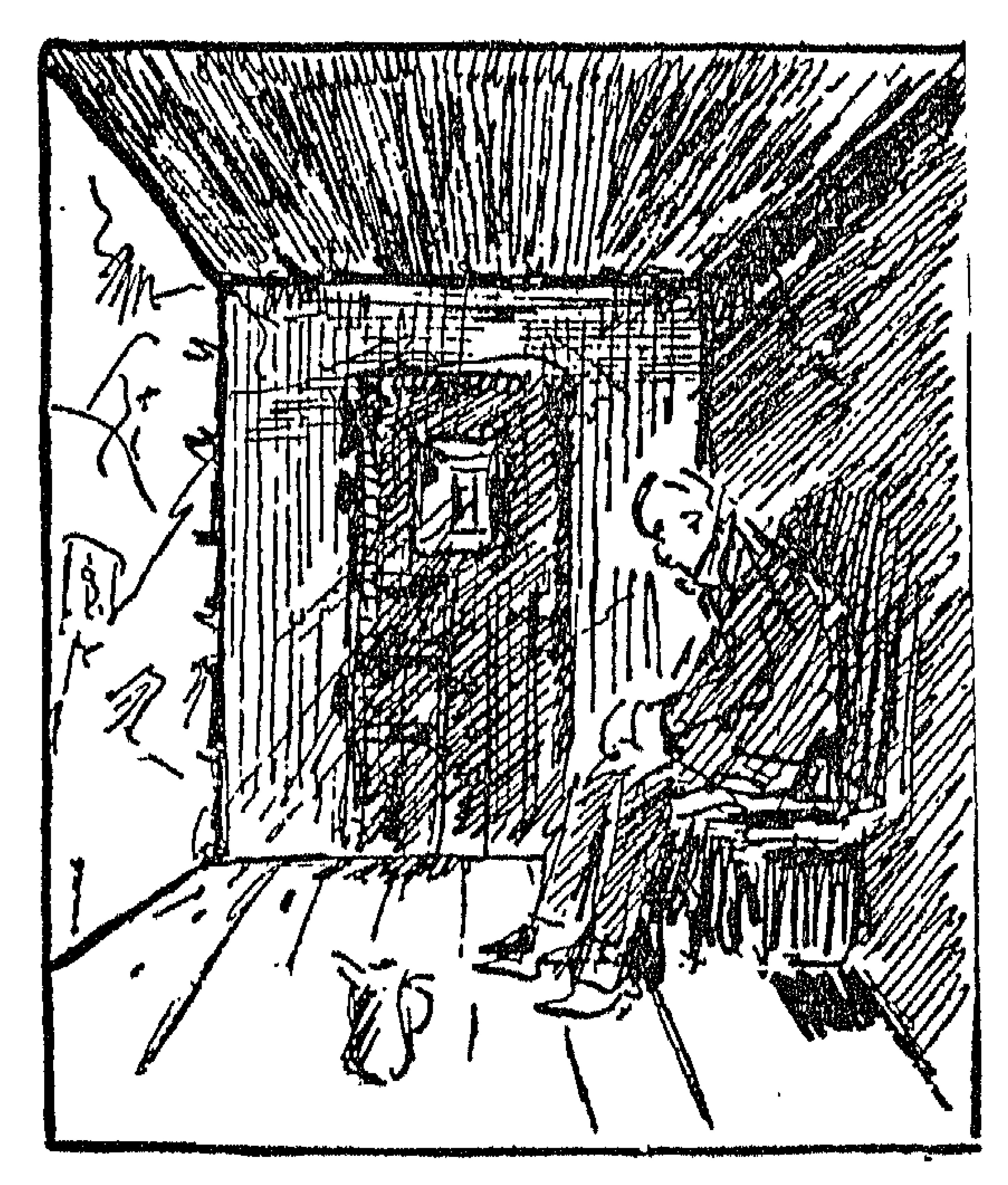
الالمانى المكون من ٥٥٠ نائبا من جميع انحاء البـلاد فى مدينة فرانكفورت ، وقدم اقتراحا بأن يكون الملك فردريك وليم ملك بروسيا امبراطورا عـلى المانيـا الموحدة .

على ان موجة المد هـذه قد أخـذت عنـدئذ فى الانحسار ، فقد تنازل الملك فرديناند الضعيف عن العرش لابن أخيه فرانسيس جوزيف ، وظل الجيش النمسوى المدرب تدريبا حسنا مخلصا لقائده الاعلى، وتكاثرت الضحايا على الجلادين . وجرى آل هابسبورج على فطرتهم العجيبة التى كانت تشبه طبائع القطط ، فمكنوا لانفسهم فى البلاد مرة أخرى ، وعززوا بسرعة سيادتهم على أوربا الشرقية والغربية . ولقد ادوا دورهم فى حلبة السياسة بمنتهى البراعة ، واستغلوا تنافس الولايات الالمانية الاخرى فى منع ملك بروسيا من الارتقاء الى لقب الامبراطور . وقـد تعـلم آل هابسبورج قيمة الصبر ، لانهم قاسوا كثـيرا مرارة الهزيمة ، فعرفوا كيف ينتظرون ، وتحينوا الفرص ، فتركوا الاحرار الذين لم يتمرسوا قط بالسيـاسة يتكلمون ويتكلمون ويتكلمون ، وينتشون بأحاديثهم الشائقة ، فى حين أخذ النمسويون يحشدون جنودهم فى صمت ، ويفضون برلمان فرانكفورت ، ويعـاودون توطيد الحلف الالمانى القديم الميئوس منـــه ، الذى فرضه مؤتمر فينا على عالم لم يكن يتوقع ذلك .

على أنه كان ثمة بين نواب هذا البرلمان العجيب ، المكون من جماعة من المتحمسين الذين لاينظرون الى الامور نظرة عملية ، ســيد من أهل بروسيا يدعى **بسمارك** استغل ماسمعه وما رآه استغلالا حسنا . كان هذا الرجل يزدرى الخطابة من اعمـاق نفســه لانه كان يعرف (وهذا مايعرفه كل رجال العمـل) ان ما من شىء قد تحقق بالكلام . لقد كان **بسمارك** وطنيا مخلصا على طريقتــه ، تمرس فى مدرســـة الدبلوماسية القديمة ، وكان فى استطاعته ان يبـذ خصومه فى الكذب ، كما كان يستطيع ان يبــذهم فى المشى وتناول الشراب والركوب سواء بسواء .

لقد اقتنع بسمارك بأنه يجب احالة هذا الحلف المفكك الذى يضم ولايات صغيرة .. الى دولة موحدة اذا اريد لهذه الدولة أن تقوم لها قائمة بين سائر الدول الاوربية . وقد نشأ بسمـارك فى كنـف آراء العهـد الاقطاعى التى تؤمن بالولاء للحكام ، وكان هـو مـن أخلص خدام أسرة هوهنزلرن ، ومن ثم قرر أن هذه الاسرة يجب أن تحكم الدولة الجديدة لانها أولى بذلك من آل هابسبورج العاجزين ، وكان بلوغ هذه الغـاية يقتضيه أن يتخلص أول الامر من النفوذ النمسوى ، فأخذ يعد العدة لانجاز هذه المهمة الشاقة .

وكانت ايطاليا فى الوقت نفسه قد حلت مشكلتها ، وتخلصت من سيدها النمسوى البغيض . وكانت وحدة ايطاليا من صنيع ثلاثة من الرجال : هم كافور وماتزينى وغاريبالدى . وكان كافور المهندس المدنى القصير النظر ذو العوينات ذات الاطار المصنوع من الصلب ، هو الذى قام بدور الرائد السياسى الحذر . أما ماتزينى الذى قضى معظم أيامه مختبئا فى أقبية المنازل فى شتى أنحاء أوربا ، مختفيا عن أعين رجال الشرطة النمساويين ، فقد كان هو المحرض الشعبى . وأما غاريبالدى وعصابته من ذوى القمصان الحمراء والفرسان الغلاظ ، فقد كان يستثير خيال الجماهير .



ماتزينى

وكان كل من ماتزينى وغاريبالدى يؤمن بالنظام الجمهورى فى الحكم ، على أن كافور كان من أتبـاع الملكية . وقد أقر كل من ماتزينى وغاريبالدى وجهة نظر كافور لعلمهما بتفوقه وكفايته فى مثل هــذه المسائل السياسية العملية ، مضحين بأطماحهم فى سبيل الهدف الاسمى الذى يصبوا اليه وطنهم المحبوب .

وكان هوى كافور مع بيت سردانية ، كما كان هوى بسمارك مع آل هوهنزلرن . ولقد أخذ كافور يعمل بمنتهى الحذر والفطنـــة على التمكين للملك السردانى من ان يتـولى قيـــادة الشعب الايطالى

بأسره ، ولقد ساعدته الظروف المضطربة التى كانت تمر بها سائر البلاد فى أوربا مساعدة كبيرة فى تحقيق خططه . وما من دولة أعانت ايطالياعلى بلوغ استقلالها اكثر من فرنسا جارتها القديمة التى كانت تثق فيها حينا ، وتتوجس منها أحيانا .

وقد حدث أن انتهى فجأة أجل الجمهورية فى فرنسا ، تلك الدولة المضطربة ، فى شهر نوفمبر من عام ١٨٥٢ ، ولكن هذه النتيجة كانت متوقعة . ذلك أن نابليون الثالث ابن لويس بونابرت ملك هولندة السابق ، وابن أخى نابليون العظيم ، عمد الى اعادة الامبراطورية الى فرنسا ، وجعل نفسه امبراطورا بفضل الله وارادة الشعب .

لقد كان هذا الشاب الذى تلقى علومه فى ألمانيا والذى كان يمزج فرنسيته بالحروف الحلقية التيوتونية الغليظة ، شأنه شأن نابليون الاول الذى دأب على التحدث بلغة وطنه الثانى مشوبة بتلك اللكنة الايطالية القوية — كان هذا الشاب يحاول جاهدا أن يستغل التقاليد النابليونية لصالحه . على أن لويس كان له أعداء كثيرون ، ولم يستشعر الاطمئنان كل الاطمئنان من ناحية سيطرته على عرشه الجديد . صحيح انه اكتسب صداقة الملكة ڤيكتوريا ووزرائها ، وهو أمر لاشك أنه كان عظيم الاهمية ، الا أن ملوك الدول الاوربية الاخرى كانوا يعاملون الامبراطور الفرنسى معاملة تنطوى على الغطرسة المهينة ، وكانوا يسهرون الليل فى تدبير وسائل جديدة تمكنهم من اظهار احتقارهم العميق لاخيهم الطيب محدث النعمة .

واضطر نابليون الى التماس وسيلة يحطم بها هذه المعارضة بالوعد أو بالوعيد . وكان يدرك تمام الادراك أن كلمة المجد مازال لها سحر فى نفوس رعاياه . ورأى نابليون أن لا مناص من المقامرة فى سبيل عرشه ، ومن ثم صحت عزيمته على أن يغامر فى سبيل الامبراطورية مغامرة أجل وأخطر ، فاتخذ من هجوم روسيا على تركيا ذريعة لاشعال حرب القريم ، تلك الحرب التى قاتلت فيها فرنسا وانكلترا الروسيا من أجل السلطان . وكانت هذه الحرب مغامرة باهظة التكاليف قليلة الثمرة ، ولم تجن منها فرنسا أو انكلترا أو الروسيا مجدا يذكر .

غير ان حرب القريم قد تمخضت عن خير واحد ، ذلك انها أعطت سردانية فرصة قدمت فيها متطوعيها الى الجانب الرابح . فلما أعلن الصلح واتت كافور الفرصة لمطالبة فرنسا وانكلترا بالاعتراف بفضله ، واستغل هذا الايطالى الماهر الحالة الدولية ليحصل على اعتراف بأن سردانية دولة من أهم الدول الاوربية ، فأثار الحرب بين سردانية والنمسا فى شهر يونيه من عام ١٨٥٩ . ولقد ضمن كافور لنفسه مساعدة نابليون نظير التنازل له عن أقاليم سافوى ومدينة نيس التى كانت فى حقيقة أمرها مدينة ايطالية . ولقد أوقعت الجيوش الفرنسية والايطالية الهزيمة بالنمسا عند ماجنتا وسولفرينو ، وادمجت الاقاليم والدوقيات التى كانت فى يد النمسا من قبل فى مملكة ايطاليا الموحدة . وأصبحت فلورنسا عاصمة ايطاليا الجديدة حتى عام ١٨٧٠ عندما استدعت فرنسا جنودها من روما لرد عادية الألمان . وما ان غادر الفرنسيون ايطاليا حتى دخلت الجيوش الايطالية المدينة الخالدة واتخذت أسرة سردانية مقرها فى قصر الكيرينال القديم الذى شيده أحد البابوات القدامى على أطلال حمامات الامبراطور قسطنطين .

على أن البابا عبر نهر التيبر ، واعتكف وراء أسوار قصر الفاتيكان الذى كان مقر كثير من أسلافه منذ أن عادوا من منفاهم فى أڤنيون عام ١٣٧٧ ، ولقد رفع البابا صوته عاليا محتجا على هذا الاغتصاب الغاشم لاملاكه ، وبعث برسائل يستنجد فيها بأولئك الكاثوليك المخلصين الذين جنحوا الى مشاركته فى ضرائه . على أن عددهم كان قليلا آخذا فى النقصان على الدوام . وما ان تخلص البابا من أعباء الحكم حتى استطاع أن يكرس وقته كله للمسائل الروحية .

ولقد اتخذت البابوية لنفسها مقاما جديدا جليلا بترفعها عن منازعات الساسة الاوربيين الصغيرة ، فأفاد ذلك الكنيسة فائدة كبيرة ، وجعلها قوة دولية ذات شأن فى التقدم الاجتماعى والدينى ، ووقفت من المشاكل الاقتصادية الحديثة موقفا أحصف من معظم الطوائف البروتستانتية . ومن ثم باءت المحاولة التى بذلها مؤتمر ڤينا لحل المسألة الايطالية بجعل شبه الجزيرة الايطالية ولاية نمساوية ، بالخيبة والخذلان .

على ان المسألة الالمانية ظلت حتى ذلك الحين من غير حل ، اذ ثبت أنها أعقد المسائل جميعا . لقد أدى فشل ثورة عام ١٨٤٨ الى هجرة جميع العناصر الحرة النشيطة فى الشعب الالمانى . فقد نزح هؤلاء الشبان الى الولايات المتحدة الامريكية والبرازيل والى المستعمرات الجديدة فى آسيا وأمريكا . وأتم عملهم فى ألمانيا أناس من طراز آخر .

كان يمثل مملكة بروسيا فى مجلس النواب الالمانى الجديد الذى اجتمع فى فرانكفورت ، بعد أن انحل البرلمان الالمانى وفشل الاحرار فى اقامة دولة موحدة ،

أوتو فون بسمارك الذى طرقنا الحديث عنه فى الصفحات القليلة السابقة . وما ان حان الوقت الذى نحن بصدده حتى كان بسمارك قد حاول أن يكتسب ثقة ملك بروسيا التامة ، وكان هذا هو كل مأموله ، اذ لم يكن يعبأ قط برأى البرلمان أو الشعب البروسى ، ذلك أنه شاهد بعينيه هزيمة الاحرار ، وعرف أنه لا يستطيع التخلص من النمسا الا بالحرب ، لذلك بدأ بتقوية الجيش البروسى . وضاق البرلمان البروسى بأساليب بسمارك الاستبدادية ، فرفض أن يوافق على الاعتمادات اللازمة . أما بسمارك فلم يكلف نفسه مؤونة مناقشة الامر ، بل مضى فى عمله وزاد جيشه مستعينا بالاموال التى قدمها مجلس النبلاء البروسى والملك، وأخذ من بعد يبحث عن قضية قومية يتخذها وسيلة لخلق موجة عظيمة من الوطنية بين جميع افراد الشعب الالمانى .

كان يقوم فى شمالى المانيا دوقيتا شلزويج وهولشتين اللتان كانتا منذ العصور الوسطى مصدر متاعب وقلاقل . وكان يسكن هذين الاقليمين طائفة من الدانيماركيين وطائفة من الالمان ، على أن هذين الاقليمين لم يكونا جزءا لا يتجزأ من الدولة الدانيماركية على الرغم من انهما كانا خاضعين لحكم ملك الدانيمارك ، فأدى ذلك الى قيام مصاعب لا حد لها . ولقد شاءت العناية الالهية أن تحملنى على اثارة هذه المسألة المنسية التى حلت الآن فيما يظهر بمقتضى نصوص معاهدة ڤرساى* غير ان الالمان فى هولشتين كانوا يجاهرون بالانتقاص من قدر الدانيماركيين ، وكان الدانيماركيون فى شلزويج يفاخرون كثيرا بدانيماركيتهم . وكانت أوربا بأسرها تناقش هذه المسألة . واصغى أعضاء نوادى المنشدين (Männerchors) ونوادى الرياضيين (Turnvereins) فى ألمانيا للخطب المثيرة عن « اخوانهم المشردين » . واخذ رؤساء الوزراء على اختلافهم يحاولون تبين حقيقة المسألة فى الوقت الذى عبأت فيه بروسيا جيوشها لتخليص الاقليمين المفقودين . ولم تكن النمسا بوصفها على رأس الحلف الالمانى لتسمح لبروسيا بالتصرف فى هذه المسألة الهامة بمفردها ، فحشدت هى أيضا جيوش آل هابسبورج ، وعبرت جيوش الدولتين العظيمتين الحدود الدانيماركية واحتلت الدوقيتين بعد أن أبلى الدانيماركيون فى القتال أحسن البلاء . واستغاثت الدانيمارك بالدول الاوربية ، ولكنها كانت فى شغل شاغل عنها ، وبذلك ترك الدانيماركيون التعساء ليلاقوا مصيرهم .

وبعد ذلك أخذ بسمارك يعد العدة للمنظر الثانى من برنامجه الامبراطورى ، فقد اتخذ من مسألة تقسيم الغنائم والاسلاب مثارا للنزاع بينه وبين النمسا . ووقع آل هابسبورج فى الفخ الذى نصبه لهم ، ذلك أن الجيش البروسى الجديد ، الذى انشأه بسمارك وقواده المخلصون ، غزا بوهيميا . وفى أقل من ستة أسابيع حلت الهزيمة الماحقة بآخر الجيوش النمسوية عند **كونيجراتز وسادوا** ، وأصبح الطريق مفتوحا الى ڤينا . غير أن بسمارك لم يكن يريد أن يدفع الامور الى أكثر من ذلك ، فقد أدرك أنه فى حاجة الى الابقاء على بعض الاصدقاء فى أوربا . ففرض على آل هابسبورج المنهزمين شروطا للصلح معتدلة غاية فى الاعتدال ، على أن يتنازلوا عن رياستهم للحلف الالمانى . وكان بسمارك أقل اعتدالا ورحمة مع الدويلات الالمانية التى انحازت الى النمسا ، اذ ضمها الى بروسيا . وعند ذلك الفت معظم الدول الشمالية فيما بينها هيئة جديدة أطلق عليها اسم الحلف الالمانى الشمالى ، وجعلت بروسيا الظافرة نفسها بصفة غير رسمية زعيمة على الشعب الالمانى .

ولقد وقفت أوربا مشدوهة من السرعة التى تمت بها هذه الوحدة . ولم تحفل انكلترا بذلك أى احتفال ، أما فرنسا فقد أظهرت من الشواهد ما يدل على عدم ارتياحها . وكان سلطان نابليون على الشعب الفرنسى يضمحل اضمحلالا مطردا ، ذلك أن حرب القريم كانت قد كلفت فرنسا كثيرا ، ولم تحقق لها شيئا .

وغامرت فرنسا مغامرتها الثانية عام ١٨٦٣ عندما حاول جيش فرنسى أن يفرض الغراندوق النمسوى مكسمليان امبراطورا على الشعب المكسيكى، الا انه ما ان انتصر أهل الشمال فى الحرب الأمريكية الاهلية ، حتى انتهت هذه الحرب بكارثة ، ذلك أن حكومة واشنطن أجبرت الفرنسيين على سحب جنودهم ، فأتاحت لاهل المكسيك الفرصة لتحرير بلادهم من الاعداء ، واطلاق النار على هذا الامبراطور المقوت .

وقضت الضرورة بأن يضفى على العرش النابليونى ثوب جديد من المجد ، ورأت فرنسا أن الاتحاد الالمانى

* ظهرت الطبعة الانجليزية الاولى من الكتاب عام ١٩٢٢ .
دار الشعب

الشمالى خليق بأن يصبح فى بضع سنوات منافسا خطرا لها . فرأى نابليون أن خوض الحرب مع ألمانيا قد يصلح من شأن أسرته . وأخذ يتلمس الاسباب لاشعال هذه الحرب ، وواتته اسبانيا بسبب ، وهى الدولة التعسة التى كانت فريسة ثورات لاعداد لها.

لقد اتفق أن كان العرش الاسبانى خاليا فى هذا الوقت نفسه ، فعرض على الفرع الكاثوليكى من أسرة هوهنزلرن . وعارضت الحكومة الفرنسية فى هذا العرض ، فما كان من أسرة هوهنزلرن الا ان اعتذرت بأدب عن قبوله ، الا أن نابليون الذى كانت تبدو عليه آنئذ امارات المرض، كان واقعا الى حد كبير تحت نفوذ زوجته الجميلة اوجينى ده مونتيجو ، وهى ابنة شريف اسبانى، وحفيدة وليم كركپاتريك أحد قناصل أمريكا فى مالقة ، وهى البلد التى تصدر الأعناب . وكانت اوجينى عظيمة الحظ من الذكاء ، الا انها كانت سيئة التربية ، شأنها فى ذلك شأن معظم نساء اسبانيا فى ذلك الوقت. كانت واقعة تحت رحمة مشيريها من رجال الدين ، وكان هؤلاء السادة الافاضل لا يضمرون الود لملك بروسيا البروتستانتى . وقد نصحت أوجينى الأمبراطور زوجها ، فقالت له : كن شجاعا ، ولكنها اغفلت الشطر الثانى من هذا المثل الفارسى المشهور الذى يحذر البطل ، فيقول : كن شجاعا ولكن لا تجعل شجاعتك تجاوز الحد . ووثق نابليون بقوة جيشه ، فوجه خطابا الى ملك بروسيا ، وأصر على أن يعطيه الملك المواثيق بأنه « لن يسمح بترشيح اى امير من اسرة هوهنزلرن لتولى عرش اسبانيا » . ولما كان آل هوهنزلرن قد تخلوا وشيكا عن هذا الشرف ، فان هذا الطلب كان فى غير موضعه . وقد رد بسمارك على الحكومة الفرنسية بذلك ، على أن نابليون لم يرض عن هذا الرد .

كان ذلك فى عام ١٨٧٠ ، وكان الملك وليم قد ركب البحر الى امز ، وحدث يوما ان اتصل به الوزير الفرنسى ، وحاول أن يستأنف مناقشة هذه المسألة فأجابه الملك فى لطف بالغ ، بأن اليوم يوم جميل ، وان المسألة الاسبانية قد اسدل عليها الستار ، وليس للحديث فى هذا الموضوع من بعد بقية .

وأرسل تقرير عن هذه المقابلة بالبرق الى بسمارك جريا على الاصول المتبعة فى مثل هذه الاحوال، وكان بسمارك هو الذى يسير دفة الشئون الخارجية جميعا . وصاغ بسمارك هذه البرقية بحيث تفيد منها الصحافة البروسية والفرنسية . وقد لامه كثير من الناس على هذا الفعل ، على أن بسمارك كان فى مقدوره أن يتعلل بأن تحوير الاخبار الرسمية ، كان من حقوق جميع الحكومات المتمدينة منذ أقدم العصور . ولما طبعت هذه البرقية المعدلة شعر أهل برلين الافاضل أن ملكهم الشيخ المبجل ذا الشوارب البيضاء الجميلة قد أهانه فرنسى قمىء متعجرف . كما أن أهل باريس الأفاضل استشاطوا غضبا، لان وزيرهم المهذب الرفيع الخلق قد طرده خادم بروسى من خدام الملك . وهكذا اشتبكت الدولتان فى الحرب ، وفى أقل من شهرين كان الجزء الاكبر من جيش نابليون ، قد وقع فى أسر الالمان . وحلت نهاية الامبراطورية الثانية ، وأخذت الجمهورية الثالثة تتخذ العدة لدفع عادية المغيرين الالمان عن باريس .

وقد ثبتت باريس للهجوم خمسة أشهر طوال ، وحدث قبل استسلامها بعشرة أيام أن نودى بملك بروسيا امبراطورا بالقرب من قصر **فرساى** ، وهو القصر الذى ابتناه الملك لويس الرابع عشر الذى كان عدوا لدودا للالمان . وتمت المناداة بين قصف المدافع مؤذنة اهل باريس الجائعين بأن امبراطورية ألمانية جديدة قد حلت محل الاتحاد القديم المسالم الذى كان يضم الحكومات والدويلات التيوتونية .

وبهذه الطريقة العنيفة حلت آخر الامر المسألة الالمانية . وما ان انقضى عام ١٨٧١ ، حتى كانت جميع أعمال مؤتمر ڤينا قد ذهبت أباديد بعد مضى ست وخمسين سنة على اجتماع المؤتمر المشهود فى ڤينا . لقد حاول كل من مترنيخ والاسكندر وتاليران ، ان يفيئوا على أهل أوربا سلاما دائما ، الا أن الاساليب التى اصطنعوها قد افضت الى قيام حروب وثورات لاعداد لها ، واعقب الشعور الذى ساد القرن الثامن عشر بأن الناس جميعا أخوة ، عصر تفشت فيه القومية المتطرفة تفشيا لم ينته أجله بعد .



على ان العالم الذى عاش فيه أهل أوربا كان يتغير تغيرا تاما فى الوقت الذى كانوا يقاتلون فيه من أجل استقلالهم القومى ، وذلك بفضل سلسلة من المخترعات جعلت الآلة البخارية الساذجة التى استحدثت فى القرن الثامن عشر أعظم وأخلص خادم للانسان

توفى أعظم محسن الى الجنس البشرى منذ نيف ونصف مليون سنة خلت . وكان هذا المحسن مخلوقا مشعرا، منخفض الجبهة، غائر العينين، غليظ الفك ، قوى الاسنان حتى لكأنه نمر . ولعله كان قمينا بأن يبدو قبيح المنظر فى مجتمع من العلماء المحدثين ، ولكنهم أحرياء بأن يبجلوه بوصفه سيدهم، ذلك انه كان يستخدم حجرا يكسر به بندقة وعصا يرفع بها صخرة كبيرة . وهو الذى اخترع المطرقة والرافعة وهما أول أدواتنا ، وفعل مالم يفعله اى انسان آخر من بعده ليهيىء للبشر ذلك الامتياز الهائل الذى رفعهم فوق سائر الحيوانات الاخرى التى تشاركهم العيش على هذا الكوكب .

ومن ثم اخذ الانسان يزيد أسباب حياته يسرا بفضل استخدامه عددا أكبر من الأدوات . وقد أثارت العجلة الاولى (وهى قرص اتخذ من شجرة قديمة) نفوس الجماعات التى عاشت سنة ١٠٠٠٠٠ ق . م بمقدار ما اثارت الطائرة مجتمعنا منذ سنين قلائل فحسب .

وتروى فى واشنطون قصة مدير مكتب تسجيل المخترعات ، الذى اقترح فى مستهل العقد الثالث من القرن الماضى ، أن يلغى هذا المكتب لان « كل ما يمكن اختراعه قد اخترع » . ولا شك ان ثمة شعورا من هذا القبيل قد انتشر فى عالم ما قبل التاريخ عندما رفع اول شراع على طوف ، واصبح القوم قادرين على الانتقال من مكان الى مكان من غير حاجة الى التجديف ، أو دفع الطوف بالقضيب أو جذبه من الشاطىء .

والحق أن من أهم فصول التاريخ ذلك الجهد الذى يبذله الانسان ليجعل شخصا غيره ، أو شيئا من الأشياء، يقوم بعمله ، فى حين يستمتع هو بوقت فراغه يقضيه فى الجلوس فى الشمس، أو فى رسم صور على الصخور أو فى تدريب صغار الذئاب أو أشبال النمور ، على سلوك مسلك الحيوانات المستأنسة الوديعة .

والواقع انه كان من الميسور على الدوام فى الازمنة السحيقة أن يستعبد الانسان جارا له ضعيفا ، ويحمله على القيام بالمهام الحقيرة فى الحياة . ومن الاسباب التى جعلت اليونان والرومان الذين كانوا لايقلون ذكاء عنا ، يعجزون عن استحداث أدوات أهم من ذلك ... انتشار الرق عندهم ، ولذلك لم يكن ثمة مايدعو اماما من ائمة الرياضيات الى تضييع وقته فى الاسلاك والبكر وأسنان الدواليب وملء الجو بالضجيج والدخان ، فى حين كان فى مقدوره أن يذهب الى السوق ويبتاع كل ما يحتاجه من العبيد بأزهد الأثمان .

وكان الرق فى العصور الوسطى قد الغى ولم يبق الا نوع هين هو رقيق الارض ، ومع ذلك فان نقابات أرباب الحرف لم تشجع فكرة استخدام الآلات لانهم راوا أن ذلك يؤدى الى تبطل عدد كبير من اخوانهم . زد على ذلك ان أهل العصور الوسطى لم يكونوا يحفلون اى احتفال بانتاج مقادير كبيرة من البضائع . لقد كان حائكوهم وقصابوهم ونجاروهم يعملون لسد ألزم حاجات المجتمع الصغير الذى يعيشون فى كنفه ، ولم تكن لهم رغبة فى منافسة جيرانهم أو انتاج ما يزيد على حاجتهم الملحة .

اما فى عصر النهضة فقد أصبحت الكنيسة لاتستطيع أن تشتد فى اضطهادها على البحوث العلمية ، كما كان شأنها من قبل ، ولذلك أخذت طائفة كبيرة من الرجال تخصص حياتها للرياضيات والفلك وعلم الطبيعة والكيمياء . وقد نشر رجل اسكتلندى يدعى **جون نابيير** ــ قبل اندلاع حرب الثلاثين سنة بعامين ــ كتيبا يصف ذلك الكشف الجديد للوغاريتمات . وفى خلال هذه الحرب اتم **جوتفريد ليبنتز** الليبسكى طريقة المتسلسلات اللانهائية وبلغ بها مرتبة الكمال . وولد **نيوتن** الفيلسوف الانكليزى العظيم فى الطبيعيات قبل عقد صلح وستفاليا بثمانى سنوات ، وفى السنة نفسها توفى **غاليلو** الفلكى الايطالى . وكانت حرب الثلاثين سنة قد أتت على رخاء أوربا الوسطى فى ذلك الحين ، ونشأ اهتمام مفاجىء ، وان يكن عاما ، بالكيميا ، وهو ذلك العلم الزائف العجيب الذى ظهر فى القرون الوسطى وأطمع الناس فى احالة المعادن الخسيسة الى ذهب . وقد تبين استحالة ذلك ، على

ان أرباب هذه الصناعة وقعوا فى معاملهم على عـدة افكار جديدة ، وساعدوا أعقـابهم من الكيمائيين فى عملهم مساعدة عظيمة .

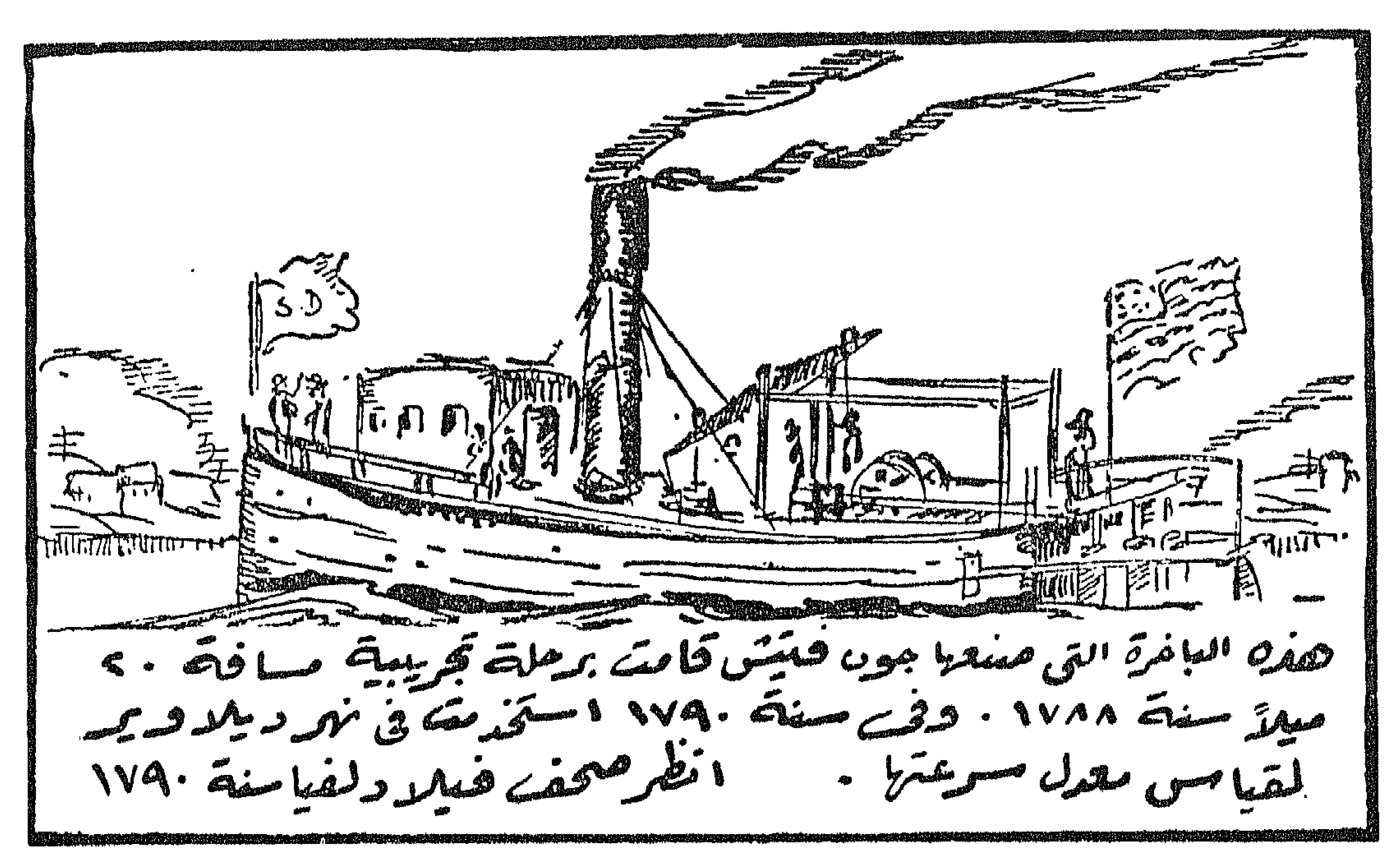
وقد هيأ عمل هؤلاء جميعا للعالم أساسا علميا ركينا استطاعوا بفضله ان ينشئوا أشد الآلات تعقيدا. وقد استغل طائفة من الرجال العمليين هذا الاساس استغلالا طيبا . واستخدمت العصور الوسطى الخشب فى صنع تلك القطع القليلة من الآلات التى كانت لازمة لهم . الا أن الخشب كان يبلى بسهولة ، أما الحديد فكان افضل من الخشب بكثير ، على أن الحديد كان نادرا الا فى انكلترا . ومـن ثم كان صهر الحـديد يتم معظمه فى هذه البلاد ، وكان ذلك يتطلب نارا عظيمة . وكان يتحصل على هذه النار بالخشب ، الا أن خشب الغابات أخذ ينضب شيئا فشيئا . عنـد ذلك استعمـل الفحم الحجرى ، اى الاشجار المتحجرة المتخلفة من الازمان السابقة على التاريخ . ولكن الفحم يتطلب كما تعلمون حفر الارض ثم نقل هذا الفحم الى أفران الصهر ، وكان يتعين أيضـا تجفيف المنـاجم من المياه التى تغزوها باستمرار . وكانت هاتان المشـكلتان تقتضيان الحـل السريع . وكان يسـتطاع فى ذلك الحين جر عـربات الفحـم الحجرى مؤقتا بوساطة الخيل ، ولكن مشكلة نزح المياه كانت تتطلب استخدام آلات خاصة . وانهمك عدد من المخترعين يحاولون ايجاد حل لهذه المشكلة ، وكلهم عالم بأنه لابد من استخدام البخـار فى آلتهم الجديدة هذه . وقد وصف لنا **هيرون** الاسـكندرى الذى عاش فى القرن الاول قبـل الميـلاد كثيرا من الآلات اديرت بالبخار . وكان الناس فى عصر النهضة قد خامرتهم فكرة اقامة مركبات حربية تدار بالبخار. ويحـدثنا المركيز **ورسستر** معاصر **نيوتن** عن آلـة بخارية فى مؤلفه عن المخترعات . وبعد ذلك بقليـل اى فى عام ١٦٩٨ ، قدم **توماس سـيفرى** من اهـالى لندن طلبا لتسجيل مضخة اخترعها . وكان رجـل هولندى يدعى **كريستيان هويجنز** يحاول فى الوقت نفسه تحسين آلة استخدم فيها البارود لاحـداث انفجارات منتظمة ، على نحو يشـبه شبها كبيرا الطريقـة التى نتبعها فى استخدام الغـازولين فى محركاتنا .

وكان الناس فى جميع انحاء أوربا مهتمين بهـذه الفكرة . وكان **دينيس پاپان** الفرنسى صديق **هويجنز** ومساعده ، يجرى تجـاربه على آلة بخارية فى بلاد مختلفة . وقد اخترع هذا الرجل عربة صغيرة تدار بالبخار ، وقاربا مزودا بطارة تجديف تسيره . ولـكن السلطات صادرت قاربه عندما حاول أن يسـير به فى رحلته بسبب شكوى قدمها اتحاد المراكبية خوفا من أن يحرمهم هذا القارب من ارزاقهم .

ومات پاپان آخر الأمـر فى لنـدن ، وقد برح به الفقر ، لانه أنفق كل ماله على مخترعاته . وعند وفاة پاپان كان رجـل آخـر من المتحمسين للآلات يدعى **توماس نيوكومن** يعالج مسألة صنع مضـخة بخارية جديدة . وبعد ذلك بخمسـين سنة حسن **جيمس واط** ــ وكان صانع آلات من مدينة جلاسجو ــ آلة **توماس** . وفى عام ١٧٧٧ زود **واط** العالم بأول آلـة بخارية ثبتت قيمتها العملية بحق .

على ان العالم السياسى كان قد اصابه تغير كبير فى أثناء القرون التى أجريت فيها تجارب الآلة الحرارية. ذلك أن البريطانيين حلوا محل الهولنديين فى تقـل تجارة العالم بصفـة عامة ، وفتحوا مستعمـرات جديدة ، وكانوا يحملون المواد الخام التى تنتجهـا المستعمرات الى انكلترا ، فيحيلونها هناك الى بضائع جاهزة ، ثم يصدرونها الى أركان العالم الاربعـة . وكان أهل جورجيا وكارولينا قد شرعوا خلال القرن السابع عشر يستنبتون شجرة جديدة تغل ضربا عجيبا من مادة صوفية عرفت بصـوف القطن . وكانت هذه المادة ترسل الى انكلترا بعـد جنيهـا فينسج منها أهل لانكشير نسيجا . وكان هذا النسج يتم باليد وفى بيوت العمال . وسرعان ما ادخلت على حرفة النسيج تحسينات عـدة . وفى عام ١٧٣٠ اخترع جون كاى « المكوك » ، وفى عام ١٧٧٠ سجل **جيمس هارجريفز** « دولاب الغزل » الذى اخترعه . واخترع **ايلى هواينتى** الامريكى ، دولاب حلج القطن الذى ينقى القطن من بذرته ، وكان هذا العمل يتم باليد بمعدل رطل فقط من القطن يوميا . وأخـيرا اخترع **ريتشارد آركرايت** وصاحب الفضيلة **ادموند كارترايت** آلات نسـج كبيرة كانت تدار بقوة الماء . ثم حدث فى العقد الثامن من القرن الثامن عشر ، أى فى الوقت نفسه الذى شرع فيه مجلس الطبقات فى فرنسا يعقد اجتماعاته المشهورة التى رمى بهـا الى قلب الاوضاع السياسية فى أوربا .. أن اعدت آلات **واط** بحيث تستطيع تسيير آلات النسج التى اخترعهـا **آركرايت**، وقد أحدث ذلك ثورة اقتصادية واجتماعية غيرت الصلات القائمة بين الناس فى كل ناحية من نواحى العالم تقريبا .

وما أن نجحت الآلة الثابتة حتى وجه **المخترعون**



اول سفينة بخارية

همهم الى مشكلة القوارب والعجلات ذات المحرك مستعينين فى ذلك بالوسائل الآلية . وقد رسم **واط** نفسه الخطط لصنع قاطرة بخارية . على أنه حدث قبل أن يتم **واط** فكرته ، أن قامت قاطرة صنعها **ريتشارد ترفيثك** بنقل حمل عشرين طنا سنة ١٨٠٤ فى « پنى داران » فى منطقة التعدين بويلز .

وكان فى باريس فى ذلك الوقت جوهرى امريكى رسام لصور الاشخاص يدعى **روبرت فولتن** يحاول اقناع نابليون باستخدام قاربه الغواص ، زاعما أن هذه الغواصة « **نوتيلوس** » وقاربه البخارى قمينان بأن يحققا للفرنسيين القضاء على سيطرة انكلترا على البحار ..

على أن فكرة **فولتن** عن صنع قارب بخارى لم تكن مبتكرة . ولا شك فى أنه استقاها من **جون فتش**، وهو رجل عبقرى فى الآلات من أهل كونكتيكت، مخرت سفينته البخارية التى صنعها بمهارة مياه نهر دلاوير فى وقت متقدم يرجع الى عام ١٧٨٧ . على أن نابليون ومشيريه من العلماء لم يؤمنوا بالقيمة العملية لهذا القارب ذى المحرك الذى يسير من تلقاء ذاته . وقد سارت هذه السفينة الصغيرة الاسكتلندية الصنع فى نهر السين ، واخذت تنفث دخانها فى رشاقة وخفر ، ومع ذلك فان الامبراطور العظيم اهمل الافادة من هذا السلاح القتال الذى كان حريا أن يثأر له من وقعة ترفلجار .

أما من ناحية **فولتن** فانا نجده قد عاد الى الولايات المتحدة . وكان هذا الرجل من رجال الاعمال الواقعيين ، ومن ثم انشأ شركة ناجحة للبواخر هو و**روبرت لفنجستون** ، أحد الموقعين على « اعلان الاستقلال » ، وكان روبرت وزير أمريكا المفوض فى فرنسا عندما كان **فولتن** فى باريس يحاول أن يبيع اختراعه . وقد منحت الباخرة الاولى لهذه الشركة حق احتكار جميع مياه ولاية نيويورك ، وكانت هذه السفينة المسماة باسم « كليرمونت » مجهزة بآلة صنعها **بولتون** و **واط** فى برمنجهام بانكلترا ، وقد بدأت رحلاتها المنتظمة بين نيويورك وألبانى عام ١٨٠٧ .

اما **جون فتش** المسكين — وهو ذلكم الرجل الذى استطاع أن يستخدم الزورق البخارى فى الاغراض التجارية ، قبل أن يستطيع أحد ذلك بأمد طويل — فقد مات ميتة كئيبة . ذلك أن صحة ذلك الرجل ساءت وخلا جيبه من المال ، وأدركه الافلاس عندما دمر زورقه الخامس الذى كان يدار بمحرك ذى لولب، وسخر به جيرانه ، كما قدر لهم أن يسخروا بعد ذلك بمائة سنة بالأستاذ **لانجلى** عند ما انشأ طائرته العجيبة . وكان **فتش** يأمل أن يزود بلاده بوسيلة سهلة لركوب متن أنهار الغرب الكبرى ، على أن مواطنيه آثروا الرحيل على زوارق مفلطحة ، أو السفر على الاقدام . وفى عام ١٧٩٨ تملكه اليأس ، وبرح به البؤس فانتحر بالسم . .

على أنه حدث بعد عشرين سنة أن استطاعت الباخرة « **سافناه** » التى بلغت حمولتها ١٨٥٠ طنا



منشأ السفينة

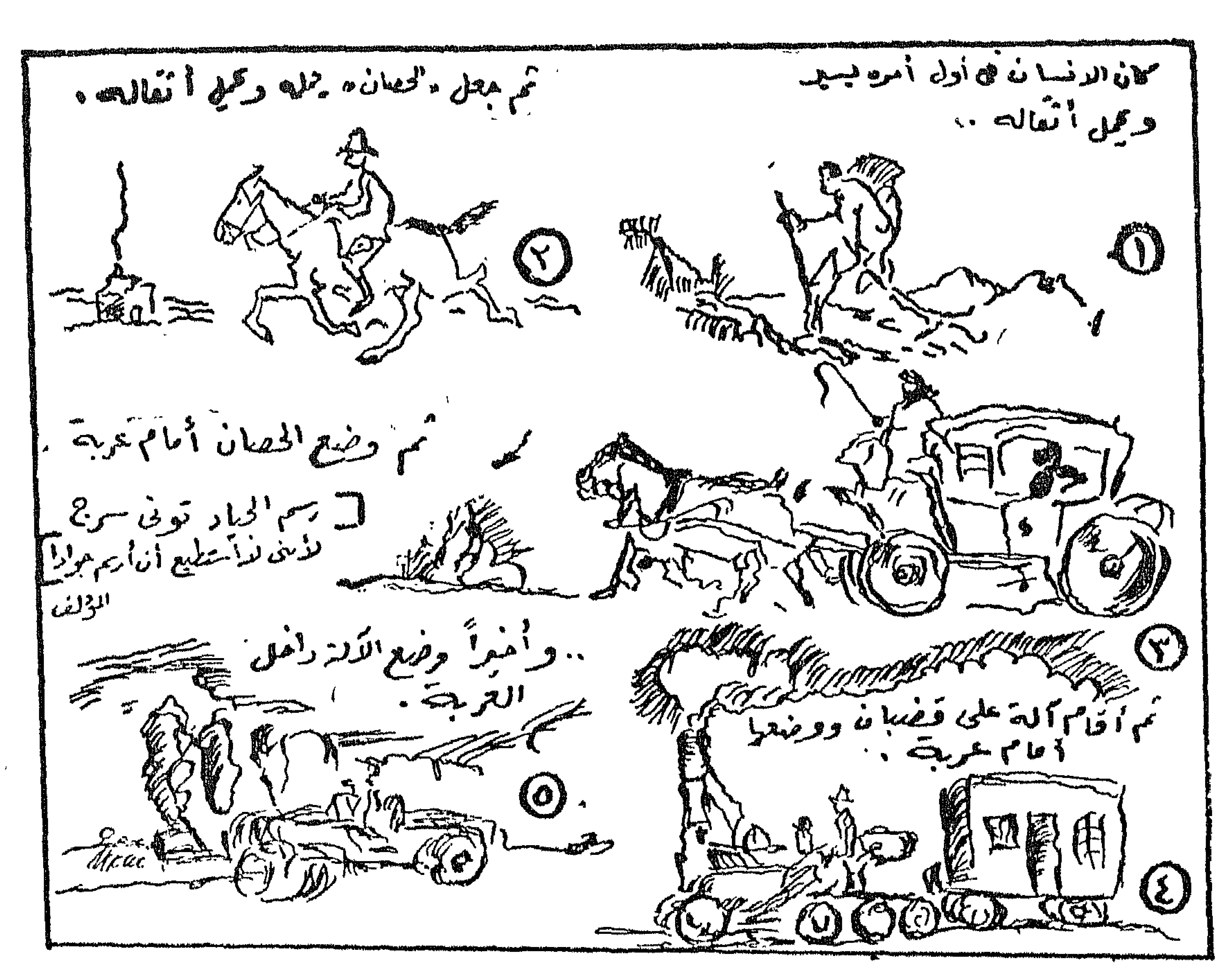
وسرعتها ست عقد فى الساعة (أى ربع سرعة الباخرة « موريتانيا » تقريبا) أن تعبر المحيط من ساقنساه الى ليفربول فى اثنين وعشرين يوما ، وهى سرعة كانت قياسية فى ذلك الوقت . وعندئذ انتهت سخرية الجماهير ، ونسب الناس فى حماستهم فضل هذا الاختراع الى غير صاحبه .

وبعد ذلك بست سنوات صنع **جورج ستيفنسون** ، ذلكم الرجل الاسكتلندى الذى كان قد دأب على صنع قاطرات لنقل الفحم من المنجم الى أفران الصهر ومصانع القطن — قاطرته السفرية التى خفضت استهلاك الفحم بنسبة ٧٠ ٪ تقريبا ، وجعلت من الميسور مد اول خط حديدى منتظم للسفر من مانشستر الى ليفربول . فكان الناس ينتقلون من مدينة الى مدينة بسرعة خمسة عشر ميلا فى الساعة ، وهى سرعة لم يسمع بها من قبل . وزادت هذه السرعة بعد اثنى عشر عاما الى عشرين ميلا فى الساعة . أما فى الوقت الحالى* فان أية سيارة من سيارات فورد — وهى تلك الثمرة المباشرة للآلات الصغيرة ذات المحرك التى صنعها **ديمار وليفاسور** فى العقد الثانى من القرن الماضى — تستطيع ، اذا كانت فى حالة جيدة ، أن تتفوق على « الغلايات النفاخة » الاولى .

وأخذ هؤلاء المهندسون الذين طبعت عقولهم على النظر الى الامور نظرة عملية يحسنون آلاتهم الحرارية المجلجلة ، فى حين كانت طائفة من أرباب العلم البحت — وهم أولئك الناس الذين درجوا على انفاق أربع عشرة ساعة كل يوم فى دراسة الظواهر العلمية النظرية التى لا يرجى أن تتقدم صناعة الآلات بدونها — يتبعون سبيلا جديدا مبشرا بأن يهديهم الى أدق أسرار الطبيعة وخوافيها .

ولقد استطاع عدد من الفلاسفة الاغريق والرومان منذ الفين من السنين (ونخص بالذكر منهم **طاليس المليتوسى وبلينياس** الذى قتل وهو يحاول دراسة ثوران بركان ڤيزوف سنة ٧٩ عندما طمر هذا البركان مدينتى پومپى وهرقلانيوم بحممه) أن يشاهدوا بقايا عجيبة من قش وريش طيور عالقة بالقرب من قطعة من الكهرمان دلكت بخرقة من الصوف . على أن فلاسفة العصور الوسطى لم يكونوا يحفلون بهذه القوة الكهربائية الخفية ، فما ان انقضى عصر النهضة

* الربع الاول من القرن العشرين .



منشأ السيارة

حتى كتب **وليم جلبرت** الطبيب الخاص للملكة اليصابات رسالته المشهورة عن طبيعة المغناطيس وخصائصه . وفى خلال حرب الثلاثين سنة صنع **أوتو فون جوريكه** عمدة ماجدبرج ومخترع المضخة الهوائية ، أول آلة كهربائية .

وانصرفت طائفة كبيرة من العلماء الى دراسة الكهرباء فى أثناء القرن التالى . واخترع ما لايقل عن ثلاثة أساتذة قدر ليدن المشهور عام ١٧٩٥ . وكان **بنيامين فرانكلين** فى الوقت نفسه موليا هذا الموضوع كل اهتمامه ، وبنيامين هو اشهر عباقرة أمريكا العالميين بعد بنيامين طومسون (وهو الذى أصبح يعرف باسم **الكونت رمفورد** بعد فراره من نيوهامپشير بسبب تحيزه للانكليز) . وقد كشف فرانكلين ان وميض البرق والشرارة الكهربائية ظاهرتان من ظواهر هذه القوة الكهربائية ، وظل يتابع دراسته فى الكهرباء حتى انتهت حياته النافعة الحافلة بالعمل . ثم جاء بعده **ڤولتا** صاحب العمود الكهربائى المشهور ، ثم **جالڤانى** و **داى** والأستاذ الدانيمركى **هانز كريستيان أورستيد** ، ثم **أمپير** و **أراجو** و **فاراداى**، وكان كل هؤلاء من الباحثين المثابرين فى الطبيعة الحق للقوى الكهربائية .

وقد زود هؤلاء الباحثون العالم بمستكشفاتهم من غير مقابل . وقد اعتقد **صمويل مورس** ، الذى كان فى طليعة حياته فنانا مثل **فولتن** ، انه يستطيع أن يستخدم هذا التيار الكهربائى الجديد فى نقل الرسائل من بلد الى بلد ، وعزم على أن يصطنع لذلك سلكا من النحاس وآلة صغيرة اخترعها . ولم يجد **مورس** بدا من الانفاق من ماله على التجارب التى يجريها ، وسرعان ما نفد ماله جميعا ، فاشتد فقره ، وزادت سخرية الناس به . وحينئذ طلب من الكونجرس معاونته ، ووعدته لجنة خاصة للتجارة بمد يد المعونة اليه . على أن أعضاء الكونجرس لم يكونوا جميعا مهتمين بهذا الامر ، واضطر مورس الى الانتظار اثنتى عشرة سنة الى أن جاد عليه الكونجرس باعانة صغيرة ، فأقام خطا من خطوط البرق بين بلتيمور وواشنطن . وفى عام ١٨٣٧ عرض فى قاعة محاضرات جامعة نيويورك الآلة البرقية الاولى التى نجح فى صنعها . وانتهى الامر بأن أرسلت فى اليوم الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨٤٤ أول رسالة بين بلدين بعدت الشقة

بينهما ، أى بين واشنطن وبلتيمور . أما الآن فان العالم كله مغطى بشبكة من الخطوط البرقية ، ونحن نستطيع اليوم أن نرسل الانباء من أوربا الى آسيا فى ثوان قلائل .

وبعد ذلك باثنتين وعشرين سنة استخدم **اسكندر جراهام بل** ، التيار الكهربائى فى تشغيل التليفون الذى اخترعه . وحسن **ماركونى** بعد ذلك بنصف قرن هذه الافكار بفضل اختراعه طريقة لارسال الرسائل تخلص بمقتضاها نهائيا من الاسلاك العتيقة .

وكان **ميخائيل فاراداى** من أهل يوركشير ، قد اخترع المولد الكهربائى الأول فى الوقت الذى كان فيه مورس من أهل نيو انجلند يشتغل فى تلغرافه . وأتم فاراداى هذه الآلة الصغيرة الدقيقة عام ١٨٣١ عندما كانت أوربا لا تزال ترتعد فرائصها من جراء ثورات يوليه الكبرى التى قلبت خطط مؤتمر فينا رأسا على عقب . وأخذ المولد الاول ينمو وينمو وينمو حتى أصبح فى مقدوره اليوم أن يزودنا بالحرارة والنور والقوة اللازمة لجميع الآلات على اختلاف أنواعها . (وانت أيها القارىء تعرف المصابيح الصغيرة الوهاجة التى صنعها **اديسون** لأول مرة معتمدا على التجارب التى أجراها الفرنسيون والانكليز فى هذا الصدد فى العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر) .

وأنا زعيم ، لو صحت نظريتى ، بأن الآلة الكهربائية سوف تقضى فى القريب القضاء المبرم على الآلة الحرارية ، كما قضت حيوانات ما قبل التاريخ الراقية التكوين فى العصور الغابرة على جاراتها الاضعف منها تكوينا .

صحيح أننى لا أعرف شيئا عن الآلات ، ولكن غلبة الآلة الكهربائية خليقة بأن تفعم قلبى بالسعادة . ذلك ان الآلة الكهربائية التى تدار بقوة الماء خادم نظيف أنيس للبشر ، فى حين أن الآلة الحرارية ــ معجزة القرن الثامن عشر ــ أداة صاخبة قذرة تملأ رحاب العالم بالدخان المتراكم والغبار والهباب ، وتتغذى بالفحم الذى يتطلب حفر المناجم ، وهو عمل كثير المشقة يعرض آلاف الناس للخطر .

ولو أننى كنت قصاصا ، لامؤرخا يجب عليه التزام الحقائق وقد لايباح له الاستعانة بالخيال ، لوددت أن أصف ذلك اليوم السعيد ، يوم تحمل آخر قاطرة بخارية الى متحف التاريخ الطبيعى ، فتوضع بعد هيكل العظاية المهولة ، والزاحف المجنح ، وغيرهما من المخلوقات البائدة التى عاشت فى العصور الغابرة .

الثورة الاجتماعية

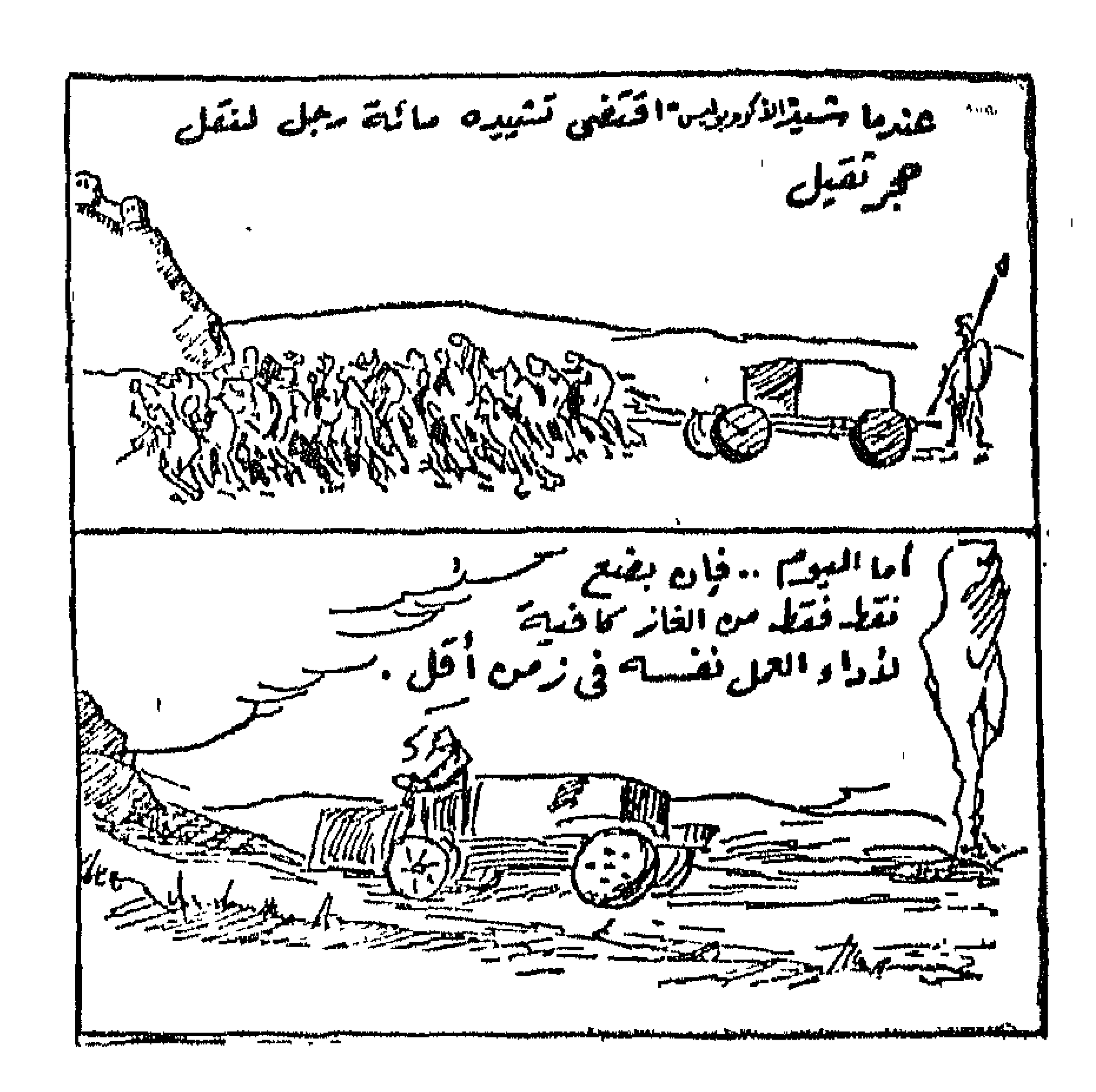
على أن الآلات الجديدة كانت باهظة التكاليف ، لايستطيع اقتناءها الا الموسرون . وقد اضطر النجار القديم أو الاسكاف الذى كان سيد نفسه فى حانوته الصغير ، أن يلتحق بخدمة أصحاب الآلات الكبيرة .. فزاد كسبه ، وفقد فى الوقت نفسه ماكان له من استقلال ، وهو أمر أسخطه وأحنقه

كان العمل فى العالم خلال العصور الخالية ، يتم على يد عمال مستقلين يجلسون فى ورشهم الصغيرة القائمة فى واجهات منازلهم ، ويملكون عدتهم ، ويضربون تلاميذهم فى الصنعة ، ويمارسون حرفهم على هواهم فى الحدود التى رسمتها نقاباتهم . كانوا يعيشون عيشة بسيطة ، ويضطرون الى العمل ساعات طويلة . ولكنهم كانوا سادة أنفسهم ، فاذا استيقظوا من نومهم ، وطلع عليهم النهارمشرقاجميلا يحلو فيه الصيد ... خرجوا للصيد . ولم يكن ثمة من يستطيع أن يمنعهم من ذلك .

بيد أن ادخال الآلات فى الصناعة غير من هذه الحال . ولم تكن الآلة فى واقع الامر الا أداة كبرت وتضخمت . والحق أن القطار الحديدى الذى ينقلك بسرعة ميل فى الدقيقة ليس الا اثنتين من الارجل فائقتى السرعة ، كما أن المطرقة البخارية التى تسوى الواح الحديد الثقيلة ليست الا قبضة يد رهيبة هائلة مصنوعة من الصلب .

ونحن نستطيع أن يكون لنا رجلان سليمتان وقبضة قوية حسنة ، أما القطار الحديدى والمطرقة البخارية ومصنع القطن ... فآلات باهظة التكاليف لايستطيع ان يقتنيها فرد واحد ، وانما جرت العادة بأن تملكها شركة من الناس يساهمون فيها جميعا بمبلغ من المال معلوم ، ثم توزع الارباح التى تدرها السكة الحديدية أو محلج القطن ، بقدر ما أودعه المساهمون فيها من أموال .

فلما تحسنت الآلات ، وأصبحت حقا شيئا نافعا



قوة الانسان وقوة الآلة

من الناحية العملية يدر على النـاس الربح ـ أخذ منشئو هـذه الأدوات الضخمـة ، وصـناع الآلات ، يلتمسون العملاء الذين يستطيعون أن يدفعوا نقدا .

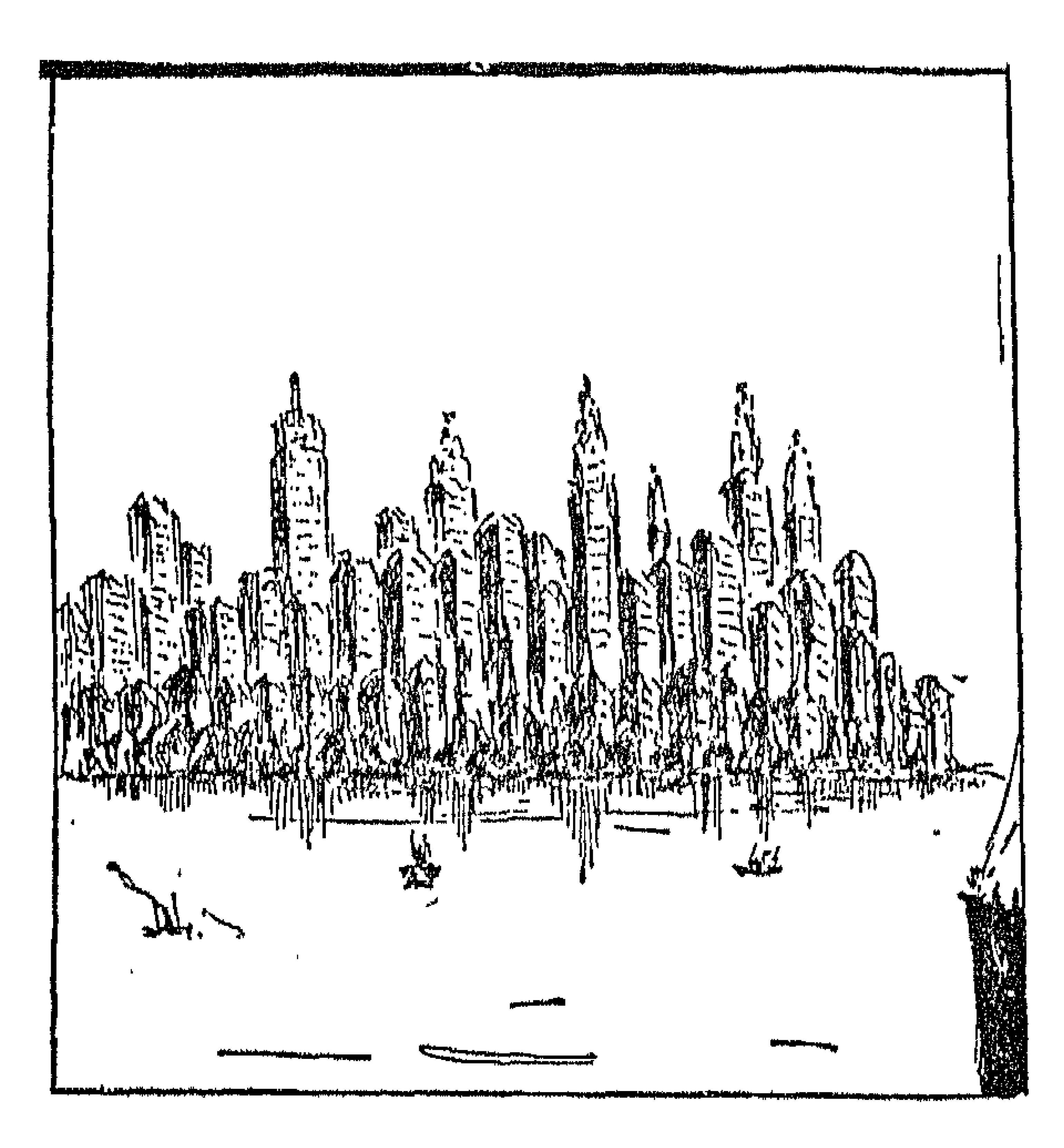
وكانت الارض فى العصور الوسطى هى الصورة الوحيدة من صور الثروة ، ولذلك كان النبلاء دون سواهم هم الذين يعدون من أهل الثراء . ولـكن ما لديهم من الذهب والفضة كان ضئيلا جدا ـ كما سبق أن بينت لكم فى فصل سابق ـ وكانوا يتوسلون بالطريقة القديمة فى المقايضة ، فيقايضون الابقار بالخيل ، والبيض بعسل النحل . وكان فى مقدور اهل المدن فى العصور الوسطى ان يجمعوا الثروة بانعاش التجارة بين الشرق والغرب ، فنـافسوا النبلاء والفرسان منافسة خطيرة .

وقد قضت الثورة الفرنسية قضاء مبرما عـلى ثروة النبلاء ، وزادت ثروة الطبقة المتوسطة زيادة هائلة . وقد اتاحت سنوات القلاقل التى اعقبت الثورة الكبرى للكثيرين من اهل الطبقة الوسطى فرصة الاستزادة من بضائع العالم بما يربى عن نصيبهم . وصادر رجال المؤتمر الفرنسى أملاك الكنيسة وبيعت بالمزاد ، فزاد عدد المدلسين والمبتزين زيادة فظيعة ، وسرق محتكرو الاراضى آلاف الاميال من الاراضى الثمينة ، واستغلوا أموالهم خلال حروب نابليون فى جنى الارباح غير المشروعة من الغلال والبارود ، وأصبحوا حينذاك يملكون من المال ما يزيد عما تستلزمه نفقات بيوتهم بالفعل ، وغدا فى مقدورهم أن ينشـئوا لانفسهم المصانع ، ويستأجروا الرجال والنساء لادارة آلاتهم .

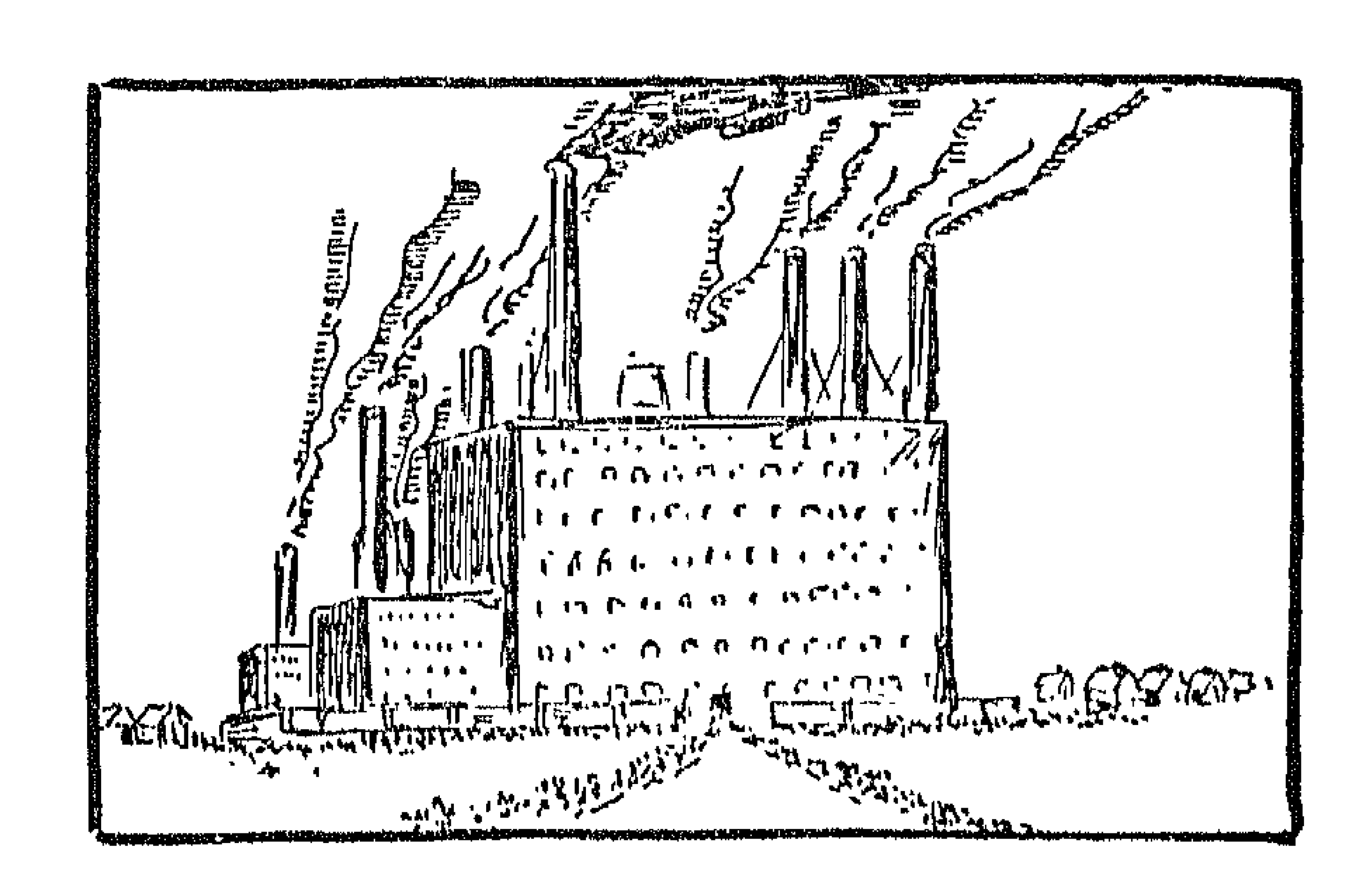
وقد احدث ذلك تغيرا مبـاغتا فى حيـاة مئـات الآلاف من الناس ، فتضاعف سكان عدة مدن فى بضع سنين ، وأصبحت سرة العمران القديمة التى كانت المقام الحقيقى للمواطنين ، محاطة بأرباض كئيبة سيئة العمارة يهجع اليها العمال بعد أن ينفقوا فى المصانع احـدى عشرة سـاعة أو اثنتى عشرة او ثلاث عشرة ساعة ، ثم يئوبون منها الى المصنع اذا ما آذنت صفارته ببدء العمل .

ودار الحديث فى الريف قاصيه ودانيه عن الأموال الطائلة التى يمكن جنيها فى المدن ، فكان الغـلام من أهل الريف الذى درج على المعيشة فى الهـواء الطلق يشخص الى المدن ، فتتبدد عافيتـه وسط الدخان والغبـار المنطلق مـن تلك الورش الاولى التى كانت سيئة التهوية ، ويدركه الموت فى أكثر الاحيان فى مأواه الحقير أو فى المستشفى .

ولم يتم انتقال عدد كبير من الناس من الحقل الى المصنع من غير ان يبدوا شيئا من المعارضة ، ذلك ان قدرة الآلة على أداء مايعمله مائة رجل قد قضت على تسعة وتسعين رجلا آخر بالتبطل . وقد كره هؤلاء ذلك ، وكانوا يهاجمون مبـانى المصـنع فى كثير من الأحيان ، ويضرمون النار فى آلاته . ولـكن شركات



المدينة الحديثة



المصنع

التأمين كانت قد انشئت فى وقت مبكر يرجع الى القرن السابع عشر ، وأصبح ملاك المصانع على الجملة محميين الى حد كبير من هذه الخسارة . وسرعان ما اقيمت آلات أحدث وافضل ، واحيط المصنع بسور مرتفع فقضى بذلك على الشغب . ولم تستطع النقابات القديمة ان تبقى فى هذا العالم الجديد عالم البخار والحديد ، وانتهى اجلها . وحاول العمال أن يقيموا اتحادات منتظمة ، ولكن أصحاب المصانع استطاعوا بفضل ثرائهم ان يؤثروا تأثيرا عظيما على رجال السياسة فى مختلف البلاد ، فالتجأوا الى الهيئات التشريعية ، ومن ثم استصدروا على يدها قوانين تحرم انشاء مثل هذه الاتحادات لانها تدخلت فى حرية العامل فى التصرف .

وانى لأرجو الا يذهب بك الظن الى أن السادة أعضاء البرلمان الذين اجازوا هذه القوانين كانوا طغاة شريرين . فقد كان هؤلاء أبناء عهد الثورة البررة ، وهو العهد الذى كان كل فرد يتحدث فيه عن الحرية ، وكان الناس خلاله يقتلون جيرانهم فى كثير من الاحيان لأن مبلغ حبهم للحرية اقل مما ينبغى . وبما أن الحرية كانت أعظم فضيلة يتحلى بها الانسان ، فلم يكن من الصواب اذن ان تفرض اتحادات العمال على اعضائها ساعات العمل التى يستطيعون ان يقوموا بالعمل فيها ، والاجور التى ينبغى لهم أن يطالبوا بها . اذ يجب ان يكون العامل على الدوام « حرا فى عرض خدماته فى السوق الحرة » . كما أن صاحب العمل يجب ان يكون حرا فى ادارة عمله على الوجه الذى يرى فيه صلاحه . ذلك ان ايام الطريقة التجارية التى نظمت الدولة بمقتضاها الحياة الصناعية للمجتمع كافة ، كانت مؤذنة بالزوال . وكانت الفكرة الجديدة عن الحرية ، تلح فى ألا تتدخل الدولة على الاطلاق فى هذه الامور ، وتترك التجارة تجرى فى مجراها .

ولم يكن النصف الثانى من القرن الثامن عشر عهد شكوك عقلية وسياسية فحسب ، بل كان أيضا عهدا حلت فيه محل الافكار الاقتصادية القديمة ، افكار جديدة تلائم حاجات الناس فى تلك الايام اكثر من الأفكار القديمة . وقد نادى ترجو ، احد وزراء مالية لويس السادس عشر الذين باءوا بالخيبة ، بمبدأ « الحرية الاقتصادية » قبل الثورة الفرنسية بعدة سنين . وكان ترجو يعيش فى بلاد قاست الامرين من كثرة الاجراءات الحكومية العتيقة ، وكثرة الأوامر الرسمية ، وكثرة الموظفين الذين كانوا يحاولون تنفيذ عدد كبير من القوانين . وقد كتب ترجو فى ذلك قائلا « تخلصوا من هذا الاشراف الحكومى ، ودعوا الناس يفعلونما يريدون . فتنصلح جميعالأحوال » . وسرعان ما أصبحت نصيحته بعدم التدخل من جانب الحكومة الصيحة التى جمعت شمل الاقتصاديين فى ذلك الوقت .

وكان آدم سميث فى انكلترا يعمل فى الوقت نفسه فى تأليف مجلداته الضخمة عن « ثروة الأمم » ، وقد اتخذت هذه المجلدات شاهدا آخر على « الحرية » و « حق الناس الطبيعى فى الاتجار » . وحدث بعد ذلك بثلاثين سنة ، اى بعد سقوط نابليون ، ان انتصرت السلطات الرجعية فى مؤتمر ڤينا ، فحمل الناس على الاخذ بهذه الحرية فى حياتهم الاقتصادية وحرمعليهم ذلك فى علاقاتهم السياسية .

وقد ثبت أن شيوع استعمال الآلاتكان له ــ كما سبق أن قلت لكم فى مستهل هذا الفصل ــ فائدة كبرى للدولة ، فازدادت الثروة بسرعة ، واستطاعت بلادواحدة مثلانكلترا أن تتحمل جميع اعباء الحروب النابليونية الكبرىبفضل الآلات . وجنى الرأسماليون ، وهم اولئك القوم الذين دبروا الاموال التى اشتريت بها الآلات ــ ارباحا طائلة ، واصبحت لهم أطماع وأخذوا يهتمون بالسياسة . وحاولوا ان ينافسوا الاشراف أصحاب الضياع ، وكان نفوذ هؤلاء لايزال كبيرا على الحكومات فى معظم الدول الأوربية .

وكان أعضاء البرلمان فى انكلترا لايزالون ينتخبون بمقتضى المرسوم الملكى الصادر عام ١٢٦٥ ، على أن عددا كبيرا من المراكز الصناعية المنشأة حديثا لميكن لها ممثلون فى البرلمان ، ومن ثم عمل أهلها على استصدار مشروع قانون سنة ١٨٣٢ يصلح هذا

النقص . وقد غير هذا القانون نظام الانتخاب ، وزاد من سلطان طبقة أصحاب المصانع على الهيئة التشريعية . على أن ذلك احدث سخطا عظيما بين الملايين من عمال المصانع الذين تركوا ولا صوت لهم فى الحكم . فبداوا هم ايضا يثورون فى سبيل الحصول على حق التصويت ، وسجلوا مطالبهم فى وثيقة عرفت من بعد باسم « وثيقة الشعب » ، وكان كل يوم يمر يزيد فى حدة المناقشات الدائرة حول هذه الوثيقة . ولم يكن هذا الجدل المحتدم قد خمد عندما هبت ثورات عام ١٨٤٨ . وروعت الحكومة الانكليزية من جراء ماكان يلوح فى الافق من خطر اندلاع ثورة بمقوبية جديدة ، وقيام أعمال العنف والشدة ... فوضعت الدوق ولنجتون الذى كان فى ذلك الوقت فى الثمانين من عمره على رأس الجيش ، واستدعت المتطوعين ، وأعلنت فى لندن حالة الحصار ، واتخذت الأهبة لقمع الثورة المؤذنة بالهبوب .

على أن حركة اصحاب هذه الوثيقة قتلت نفسها بنفسها لعدم كفاية القائمين عليها ، ولم يقع الا القليل من حوادث العنف . واخذت الطبقة الجديدة ، طبقة أصحاب المصانع الموسرين (وأنا أكره كلمة البورجوازية التى استمسك بها المبشرون بالنظام الاجتماعى الجديد استمساكا شديدا) تزيد من سلطانها على الحكومة رويدا رويدا . واستمرت ظروف الحياة الصناعية فى المدن الكبيرة تحيل فدادين مترامية الاطراف من المراعي وحقول القمح الى مساكن حقيرة كئيبة تتحكم فى مشارف كل مدينة اوروبية حديثة .



لم يفيء اصطناع الناس للآلات على العالم ذلك العهد من السعادة والرخاء الذى تكهن به الجيل الذى رأى السكة الحديدية تحل محل مركبات السفر العامة . وقد اقترحت عدة اقتراحات لعلاج هذه الحال ولكن لم يفد واحد منها فى حل المشكلة حلا شافيا

فى سنة ١٨٣١ ، وقبيل اقرار مشروع القانون الأول بالاصلاح مباشرة ، كتب **جيرمى بنتام** ، أعظم الباحثين الانكليز فى الاجراءات التشريعية ، وأكبر المصلحين السياسيين الواقعيين فى ذلك العهد الى صديق له يقول « السبيل الى الطمأنينة هو أن تجعل غيرك مطمئنا . والسبيل الى اطمئنان الناس هو أن تبدى لهم انك تحبهم ، والسبيل الى اظهار المحبة لهم هو أن تحبهم حقا » . وقد كان جيرمى رجلا صادقا قال ما اعتقد انه حق . وكان يشاركه آراءه آلاف من بنى قومه شعروا انهم مسئولون عن سعادة جيرانهم البائسين ، وحاولوا ما وسعهم أن يمدوا لهم يد العون . والله يعلم أن الوقت كان قد آذن بأن يفعل هؤلاء شيئا .

والحق انه لم يكن ثمة محيص من الأخذ بمبدأ « الحرية الاقتصادية » (أو مبدأ عدم التدخل الذى قال به ترجو) فى ذلك المجتمع القديم الذى كانت قيود العصور الوسطي تعرقل كل الجهود الاقتصادية التى يبذلها . على أن هذه الحرية فى العمل التى كانت أسس القوانين فى تلك البلاد ، قد أفضت الى قيام حالة رهيبة مخيفة . ذلك أن ساعات العمل فى المصنع كانت لا تقاس الا بقدرة العمال البدنية فحسب . فقد كان من المفروض فى المرأة أن تعمل مادامت تستطيع الجلوس الى نولها من غير أن يصيبها الاغماء من التعب .

وكان الأطفال فى سن الخامسة أو السادسة يؤخذون الى مصانع نسج القطن انقاذا لهم من أخطار الشوارع وحياة البطالة . وقد اعتمد قانون يفرض على أطفال المعدمين أن يعملوا أو يعاقبوا بتقييدهم بالسلاسل الى آلاتهم . وكانوا يجزون على عملهم باعطائهم قدرا من الطعام السيىء يسد رمقهم ، وتخصيص ضرب من الحظائر يهجعون اليها بالليل . وكان يغلبهم التعب فى كثير من الأحيان ، فيأخذهم النوم وهم يعملون . ومن ثم كان يدور عليهم رئيس العمل بالسوط ايقاظا لهم ، ويضربهم على مفاصل أصابعهم لينهضوا الى عملهم . ولا شك أن آلافا من هؤلاء الاطفال الصغار ، قد ادركهم الموت تحت وطأة هذه الظروف . وكان هذا الأمر باعثا على الأسف ، ذلك أن أصحاب العمل كانوا بالرغم من ذلك كله بشرا لم تخل قلوبهم من الرحمة ، وودوا صادقين لو أن فى مقدورهم أن يبطلوا « تشغيل الأطفال » . ولكن الرجل كان حرا ، ومن ثم كان الطفل تبعا لذلك « حرا » أيضا . زد على ذلك

أن زيداً لو حاول ادارة مصنعه من غير أن يستخدم الأطفال من سن الخامسة أو السادسة للجأ منافسه عمرو الى الاستزادة من عدد الأطفال الصغار الذين يشتغلون فى مصنعه ، فكان ذلك قمينا بأن يفضى بزيد الى الافلاس . ولذلك كان يستحيل على زيد أن يستغنى عن تشغيل الاطفال الا حين يصدر قانون من البرلمان يحرم ذلك على جميع أصحاب العمل .

على أن البرلمان عاد لا يسيطر عليه النبلاءالقدامى أصحاب الأرض الذين كانوا يحتقرون أصحاب المصانع محدثى النعمة ، حاملى صرر النقود ، ويجاهرونهم بالازدراء ، وأصبح فى ذلك الوقت خاضعا لنفوذ ممثلى المراكز الصناعية ، فلم تتحسن الحال الا تحسناضئيلا مادام القانون لم يكن يسمح بانخراط العمال فى اتحادات عمالية .

ولا شك ان المعتدلين وأصحاب البصيرة من أهل ذلك العهد كانوا ملمين بهذه الظروف الرهيبة . على انهم كانوا أيضا لاحول لهم ولا قوة . فقد غزت الآلات العالم فجأة ، ولم يكن ثمة مناص من أن تمر سنون طوال ، وأن يبذل آلاف الرجال والنساء من ذوى النفوس النبيلة جهودهم قبل أن يستطاع وضع الآلات فى مكانها الصحيح ، وردها خادما للانسان لا سيدا له .

ومن عجب أن الحملة الأولى التى وجهت الى نظام تشغيل العمال الممقوت الذى كان شائعا آنئذ فى جميع انحاء العالم ، كانت لصالح زنوج افريقيا وامريكا .

وكان الاسبان هم الذين أدخلوا نظام الرق فى القارة الأمريكية . وحاولوا أن يستخدموا الهنود عمالا فى الحقول والمناجم ، ولكن الهنود كانت تخور قواهم ويموتون اذا انتزعوا من المعيشة الخلوية التى ألفوها . وأراد قسيس رحيم أن ينقذهم من الفناء ، فاقترح أن يجلب الزنوج من افريقيا ليقوموا بهذا العمل ، ذلك أن هؤلاء كانوا أقوياء يحتملون المعاملة القاسية . زد على ذلك أن صحبتهم للبيض تتيح لهم فرصة الدخول فى المسيحية ، فيستطيعون بذلك أن يخلصوا نفوسهم بالايمان . وهكذا كان هذا التدبير ، من كل ناحية ، خليقا بأن يعود بالخير على البيض الرحماء وعلى اخوانهم السود الجاهلين . على أن الحاجة الى القطن ازدادت بادخال الآلات فى الصناعة ، وحمل الزنوج على الانكباب على العمل أكثر من ذى قبل ، فبدأوا يموتون تحت وطأة المعاملة التى كان يعاملهم بها المشرفون على العمل ، كما مات الهنود من قبل .

وأخذت أخبار هذه القسوة الفظيعة التى عوملوا بها تتسرب على الدوام الى أوربا ، وبدأت تهيج خواطر الرجال والنساء فى جميع أنحاء أوربا مطالبين بالغاء الرق . والف **وليم ولبرفورس وزخارى ماكولى** (وهو والد المؤرخ العظيم الذى يجب عليك أن تقرأ تاريخه عن انكلترا اذا شئت أن تعرف كيف يمكن أن يبلغ تاريخ من التواريخ مابلغه هذا التاريخ من طرافة معجبة) فى انكلترا جماعة للقضاء على الرق . وكان أول مافعله هؤلاء استصدار قانون يجعل « تجارة الرقيق غير مشروعة » . ولم يبق فى جميع المستعمرات البريطانية عبد واحد بعد عام ١٨٤٠ . وقد وضعت ثورة عام ١٨٤٨ ، حدا للرق فى الاملاك الفرنسية . واستصدر البرتغاليون سنة ١٨٥٨ ، قانونا وعد الرقيق بالتحرر فى مدى عشرين سنة من صدوره ، والغى الهولنديون الرق سنة ١٨٦٣ ، واعاد القيصر اسكندر الثانى الى الرقيق الحرية التى كانت قد انتزعت منهم قبل ذلك بنيف وقرنين . أما فى الولايات المتحدة فقد أثارت هذه المسألة مشاكل خطيرة وأدت الى حرب طويلة الأجل .

وقد كان من المبادىء التى قررتها وثيقة اعلان حقوق الانسان « أن الناس جميعا خلقوا احرارا متساوين » ، الا أنها استثنت من هذا المبدأ أولئك الرجال والنساء ذوى البشرة الداكنة ، وأولئك الذين يعملون فى مزارع الولايات الجنوبية . وزادت كراهية أهل الشمال لنظام الرق بمرور الزمن ، ولم يكتموا شعورهم نحو هذا النظام . على أن أهل الجنوب ادعوا انهم لايستطيعون أن يزرعوا قطنهم من غير أن يستخدموا العبيد ، واحتدم الجدل احتداما شديدا فى مجلسى النواب والشيوخ الأمريكيين قرابة خمسين عاما .

وظل أهل الشمال مستمسكين برأيهم فى هذا الشأن ، ورفض أهل الجنوب ان يسلموا لهم بذلك . وهددت الولايات الجنوبية بالخروج على الاتحاد الأمريكى عندما بدا لها استحالة التوفيق بين الرأيين . وكانت هذه الفترة من الفترات العصيبة فى تاريخ هذا الاتحاد ، كما كانت قمينة بأن تثير كثيرا من الأحداث لولا الجهود التى بذلها رجل عظيم صالح حقا .

فقد حدث فى السادس من نوفمبر سنة ١٨٦٠ ، أن انتخب الجمهوريون الذين كان سلطانهم غالبا فى الولايات المناهضة للرق **ابراهام لنكولن** رئيسا للجمهورية . وكان لنكولن محاميا من أهل الينوى شيد مستقبله فى ميدان الحياة العقلية . وقد عرف

هذا الرجل عن كثب ، مساوىء استعباد الانسان ، واهتدى بثاقب بصره الى أن القارة الأمريكية الشمالية لاتتسع لقيام أمتين متنافستين . فلما انفصل عدد من ولايات الجنوب عن الاتحاد الأمريكى وكون مايسمى بـ « ولايات أمريكا المتحالفة » قبل لنكولن التحدى . وأعلنت الولايات الشمالية حاجتها الى متطوعين ، فلبى النداء مئات الآلاف من الشبان فى حماسة شديدة ، وأعقبت ذلك حرب أهلية مريرة دامت أربع سنوات ، وأوقع أهل الجنوب الذين كانوا أوفر عدة الهزيمة مرارا بجيوش أهل الشمال بفضل قائديهم البارعين **لى وجاكسون** . وعندئذ أخذت القوة الاقتصادية **لنيوانجلند** والغرب تلقى بثقلها فى الميزان . وبرز من غمار الجند ضابط يدعى **جرانت** فأصبح **شارل مارتل** حرب العبيد الكبرى . وأخذ جرانت يكيل الضربات الحاطمة لحصون الجنوب المتداعية دون انقطاع . وفى مستهل عام ١٨٦٣ أصدر الرئيس لنكولن « اعلان التحرير » الذى أعتق جميع العبيد . وفى ابريل سنة ١٨٦٥ سلم **لى** البقية الباقية من جنوده الشجعان عند **أبوماتوكس** . وبعد ذلك بأيام قلائل اغتال رجل مخبول الرئيس لنكولن ، الا أن عمله ظل باقيا ، ذلك أن الرق أبطل فى جميع أنحاء العالم المتمدين ما عدا كوبا التى كانت لاتزال خاضعة لحكم الاسبان .

على أن السود كانوا يتمتعون بقدر من الحرية مطرد الزيادة ، فى حين كان عمال أوربا الأحرار لايعاملون المعاملة الواجبة . والحق ان كثيرا من الكتاب المعاصرين والمراقبين لسير الأمور قد عجبوا لم لم تمت جماهير العمال (الذين يطلق عليهم اسم الطبقة الدنيا أو البروليتاريا) من مجرد البؤس الذى ران عليها . لقد كان هؤلاء يعيشون فى بيوت قذرة قاتمة فى المناطق الحقيرة من أحياء الرعاع ، ويأكلون طعاما سيئا ، ولا يتلقون من التعليم الا مايكاد يكفيهم للقيام بأعمالهم . ولم يكفل لهم مايعول أسرهم اذا أدركهم الموت أو أصيبوا بحادث . ولكن أصحاب معامل الخمور والمشروبات الروحية الذين كانوا يستطيعون أن يؤثروا فى الهيئات التشريعية تأثيرا كبيرا شجعوهم على نسيان أحزانهم ، فكانوا يقدمون لهم مقادير عظيمة من الوسكى والجن بأرخص الأثمان .

أما التحسين الهائل الذى طرأ على أحوال العمال فى العقدين الثالث والرابع من القرن الماضى ، فلا يعود الفضل فيه الى جهود رجل واحد . فقد وقفت خير العقول فى جيلين جهودها على انقاذ العالم من النتائج المفجعة التى تسببت عن ادخال الآلات الصناعية بغتة .

ولم يحاول أرباب هذه العقول القضاء على النظام الرأسمالى . ولو أنهم فعلوا ذلك ، لكانوا قد ارتكبوا حماقة كبرى ، ذلك أن ثروة الآخرين المتجمعة اذا أحسن استغلالها قمينة بأن تعود بالخير العميم على الناس كافة . ولكنهم حاولوا أن يحاربوا الفكرة القائلة بأن المساواة الحق يمكن أن تقوم بين صاحب الثروة الذى يملك المصانع ويستطيع أن يقفل أبوابها دون أن يتعرض للجوع ، وبين العامل الذى لامناص له من أن يقبل مايقدم له من عمل بأى أجر يستطيع الحصول عليه ، أو يجابه خطر الموت جوعا هو وزوجه وعياله .

لقد سعى هؤلاء المصلحون الى استحداث طائفة من القوانين تنظم العلاقة بين أصحاب المصانع وعمالها . وكان نجاحهم فى ذلك مطرد الزيادة فى البلاد كافة . فجمهرة العمال اليوم يلقون الحماية الواجبة . وقد خفضت ساعات عملهم فبلغت معدلا جيدا هو ثمانى ساعات فى اليوم . ويرسل الآن أطفالهم الى المدرسة بدلا من أن يرمى بهم الى اغوار المناجم أو الى غرف الندف فى مصانع القطن .

على أن ثمة فريقا آخر من الناس تأملوا أيضا فى منظر هذا الدخان المتراكم كله ينطلق فى الفضاء ، وسمعوا هدير قطارات السكك الحديدية ، ورأوا المخازن ممتلئة بالفائض من جميع المواد على اختلافها ، وتساءلوا عن الهدف النهائى الذى ينتظر أن يبلغه هذا النشاط الهائل فى السنين المقبلة . وقد تذكر هؤلاء أن الجنس البشرى عاش مئات الألوف من السنين من غير أن يكون له عهد بالمنافسة التجارية والصناعية . فتساءلوا : أليس فى مقدورهم تغيير النظام القائم للأشياء ، والتخلص من طريقة المنافسة التى طالما ضحت بسعادة الانسان فى سبيل الربح ؟

ولم تكن هذه الفترة ، بل هذا الأمل الغامض فى مشرق أيام أسعد واهنأ ، وقفا على بلاد دون غيرها . فقد أقام **روبرت أوين** صاحب كثير من مصانع القطن مايعرف بـ « الجماعة الاشتراكية » فى انكلترا وكتب له النجاح . فلما توفى انتهى عهد الرخاء الذى حل بنيو لانارك ، ولم يكن مصير المحاولة التى بذلها الصحفى الفرنسى **لويس بلان** لاقامة « ورش اجتماعية » خيرا من سابقتها . وسرعان مابدا لذلك العدد المتزايد من الكتاب الاشتراكيين ، أن الجماعات الفردية الصغيرة التى تظل خارج نطاق الحياة الصناعية المنتظمة لن تستطيع أن تفعل شيئا على الاطلاق ، ذلك أن الحال كانت تستوجب دراسة المبادىء الكبرى الكائنة وراء المجتمع الصناعى والرأسمالى

بأسره قبل أن يستطاع اقتراح العلاج الشافى لهذه الأدواء .

وقد جاء بعد أولئك الاشتراكيين العمليين أمثال **روبرت أوين ولويس بلان وفرانسوا فورنييه** طائفة من الباحثين فى الاشتراكية بحثا نظريا مثل **كارل ماركس وفريدرخ انجلز . وماركس** أشهر من صاحبه فى هذا الشأن ، وكان يهوديا نابها جدا عاشت أسرته فى ألمانيا زمنا طويلا . وقد سمع **ماركس** بالتجارب التى أجراها **أوين وبلان** ، وأخذ يهتم بمسائل العمل والأجور والبطالة . ولكن أفكاره الحرة جعلت رجال الشرطة فى ألمانيا يكرهونه كراهية شديدة ، فاضطر الى الفرار الى بروكسل ، ثم الى لندن حيث عاش عيشة رقيقة حقيرة مراسلا لصحيفة نيويورك تريبون .

ولم يكن أحد حتى ذلك الحين قد عنى عناية كبيرة بكتبه عن الموضوعات الاقتصادية . على أنه أنشأ عام ١٨٦٤ ، أول رابطة دولية للعمال ، ونشر بعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٨٦٧ ، المجلد الأول من بحثه المشهور المعروف **برأس المال** . وقد اعتقد ماركس أن التاريخ جميعا نزاع طويل بين أولئك الذين يملكون وأولئك الذين لايملكون . وأن ادخال الآلات فى الصناعة وشيوع استعمالها خلقا طائفة جديدة فى المجتمع : الا وهى طبقة الرأسماليين الذين يستخدمون الفائض من مالهم فى شراء الأدوات التى كان يستعملها العمال آنئذ لانتاج ثروة أكبر ، ثم يستخدمون هذه الثروة مرة أخرى فى بناء مصانع أكثر ، وهكذا تستمر هذه السلسلة الى ماشاء الله . ويقول ماركس أن الطبقة الثالثة (الطبقة البورجوازية أو الوسطى) كانت فى الوقت نفسه تزداد غنى على غنى ، وتزداد الطبقة الرابعة (الطبقة الدنيا أو البروليتاريا) فقرا على فقر ، وتكهن بأنه سيأتى فى النهاية رجل يملك ثروة العالم جميعا ، ويكون سائر الناس خداما له ، يعتمدون على مايجود به عليهم .

وأراد ماركس أن يتفادى حدوث ذلك ، فنصح العمال فى جميع البلاد بالاتحاد ومناهضة طائفة من الاجراءات السياسية والاقتصادية عددها فى اعلان صدر عام ١٨٤٨ ، وهى السنة التى اندلعت فيها آخر الثورات الكبرى فى أيطاليا .

وكانت حكومات أوربا بطبيعة الحال تستنكر هذه الآراء استنكارا شديدا ، واستصدرت بلاد كثيرة ، وخاصة روسيا ، قوانين صارمة لمناهضة الاشتراكيين ، وصدرت الأوامر لرجال الشرطة بفض اجتماعاتهم والقبض على خطبائهم . ولكن هذا النوع من الاضطهاد لايأتى بنتيجة ما . ذلك أن الاستشهاد هو خير وسيلة ممكنة للاعلان عن قضية لم تلق تأييدا من الناس . ومن ثم زاد عدد الاشتراكيين فى أوربا زيادة مطردة ، وسرعان ماتجلى أنهم لم يفكروا فى اشعال نار ثورة عنيفة ، وانما كانوا يستخدمون سلطانهم المتزايد فى البرلمانات المختلفة لتأييد مصالح الطبقات العاملة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استدعى الاشتراكيون لتأليف المجالس الوزارية ، وتعاونوا مع الكاثوليك التقدميين والبروتستانت لاصلاح التلف الذى سببته الثورة الصناعية ، وتوزيع الخيرات العميمة التى نتجت من ادخال الآلات فى الصناعة ، وتزايد الثروة توزيعا أعدل وأدنى الى القسط .

عصر العلم

على أن العالم كله قد طرأ عليه تغير آخر أعظم شأنا من الثورات السياسية والثورات الاقتصادية ، فقد استطاع العلماء آخر الأمر أن يظفروا بالحرية فى العمل بعد أن مرت بهم أجيال من الظلم والاضطهاد ، وأخذوا يحاولون الكشف عن القوانين الانسانية التى تسير الكون

لقد كان للمصريين والبابليين والكلدانيين والاغريق والرومان جميعا شىء من الفضل فى قيام تلك الافكار الغامضة الأولى عن العلم والبحث العلمى . على أن الهجرات الكبرى التى حدثت فى القرن الرابع قضت على عالم البحر المتوسط القديم . ثم ان الكنيسة كانت تهتم بالحياة الروحية اكثر من اهتمامها بحياة الجسد ، فعدت العلم مظهرا من مظاهر تطاول الانسان ، يشاء ان يدس أنفه فى الشئون القدسية الخاصة بملك الله العلى القدير ، ومن ثم كان العلم وثيق الصلة بالكبائر السبع .

لقد حطم عصر النهضة جانبا من تلك الأسوار التى اقامتها أهواء اهل العصور الوسطى ، الا أن مافعلته النهضة فى هذا الشأن كان محدودا ضيق النطاق . على أن عصر الاصلاح الدينى الذى أعقب



الفيلسوف

عصر النهضة فى القرن السادس عشر ، كان يناهض المثل التى هدفت اليها « المدنية الجديدة » . ومن ثم هدد العلماء بالعقاب الصارم مرة أخرى اذا هم تجاوزوا ذلك النطاق المحدود للمعرفة الذى وصفه الكتاب المقدس .

وعالمنا عالم حافل بتماثيل القواد العظام معتلين صهوة جيادهم المتبخترة ، يقودون جنودهم المهللين الى النصر المجيد . ونجد هنا وهنالك شاهدا متواضعا من المرمر منبئا بأن رجلا من رجال العلم قد ثوى فى مقره الاخير . ولعلنا سنفرق فى التنويه برجال السيف ورجال العلم الف سنة أخرى ، وسيعلم اطفال ذلك الجيل السعيد بالشجاعة المجيدة التى تحلى بها أهل العلم ، والاخلاص المنقطع النظير الذى ادى به هؤلاء الرواد الباحثون فى العلم المجرد . . . واجبهم . وهذا العلم المجرد وحده هو الذى جعل عالمنا الحديث حقيقة واقعة .

وقد قاسى كثير من هؤلاء الرواد فى ميدان العلم . . . الفقر ، وتحملوا ما اصابهم من ازدراء ومهانة . فقد عاشوا فى الغرف القائمة على أسطح المنازل ، وماتوا فى السجون ، ولم يجترئوا على طبع اسمائهم فى صدر كتبهم أو نشر ما انتهت اليه بحوثهم فى مسقط رأسهم ، بل هربوا مخطوطات مؤلفاتهم الى بعض المطابع السرية فى **امستردام** أو **هارلم** . وتعرضوا لعداوة الكنيسة المرة ، سواء أكانوا من البروتستانت أم من الكاثوليك .

وكانوا مادة عدد لاحصر له من المواعظ حرضت أتباع الأبرشيات على معاملة هؤلاء المرتدين بالعنف والقسوة .

وكان هؤلاء العلماء يجدون ملاذا هنا وهناك . ذلك ان الشعور بالتسامح كان غالبا فى هولندا ، ومن ثم رفضت السلطات فيها أن تتدخل فى حرية الناس فى التفكير ، مع انها كانت تنظر الى البحوث العلمية نظرة مشوبة بشىء من الاستنكار . واصبحت هولندا ملجأ صغيرا لأحرار الفكر اتخذه الفلاسفة والرياضيون الفرنسيون والانكليز والألمان متنفسا يهجعون اليه حينا قصيرا ، ويستنشقون فيه الهواء الطليق .

وقد ذكرت لكم فى فصل سابق كيف منع روجر باكون ، أحد أئمة العباقرة فى القرن الثالث عشر ، من كتابة كلمة واحدة سنوات خشية ان تضطرب الامور من جديد بينه وبين أولى الامر فى الكنيسة . وبعد ذلك بخمسمائة سنة كان المساهمون فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى تحت اشراف رجال الشرطة الفرنسيين باستمرار .

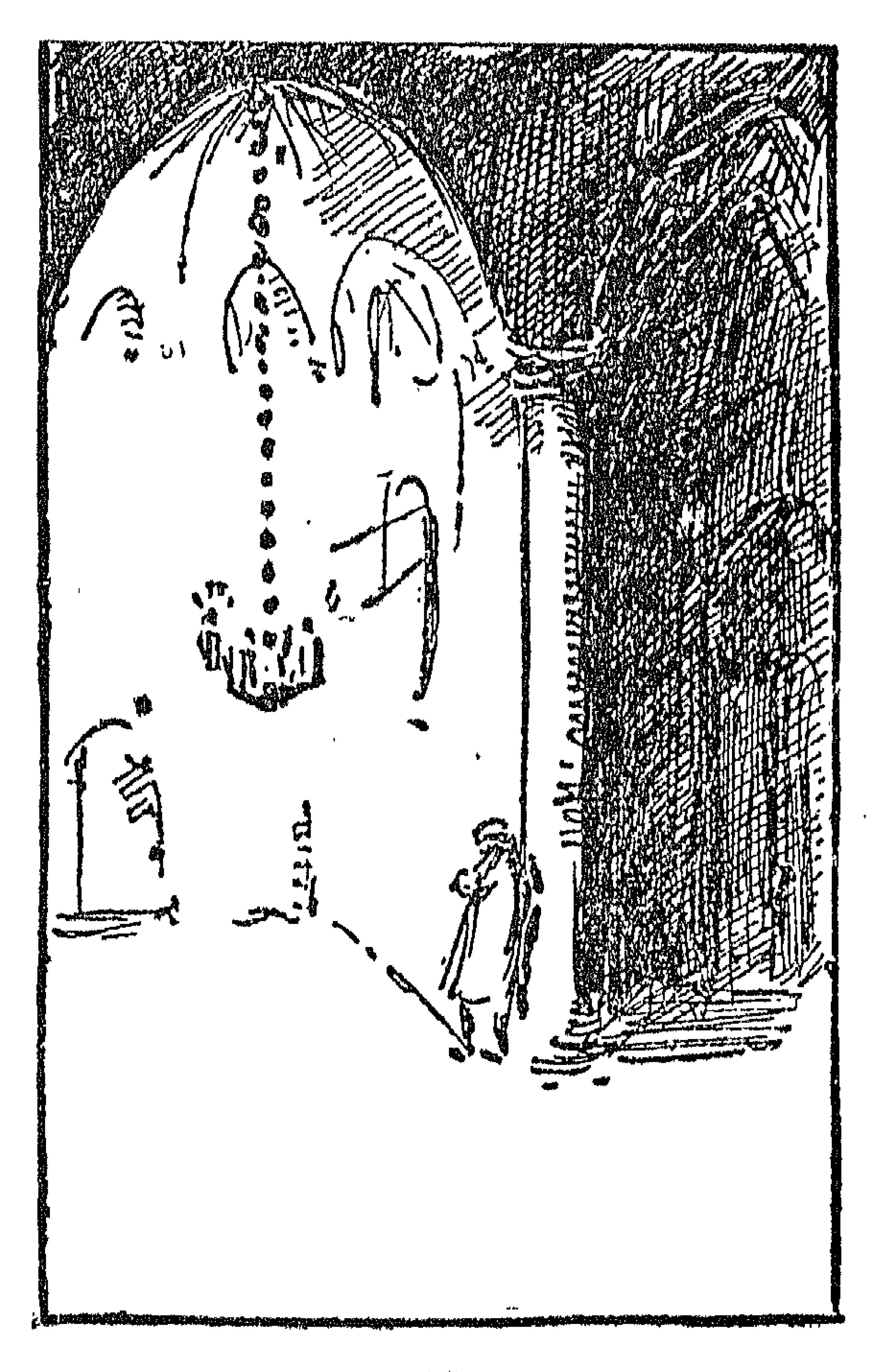
وبعد ذلك بنصف قرن اجترأ **دارون** على مناقشة قصة خلق الانسان كما وردت فى الكتاب المقدس ، فانصبت عليه اللعنات من كل منبر ، رامية اياه بأنه عدو البشرية . بل ان اضطهاد اولئك الذين يجترئون على ميدان العلم المجهول لم ينقض اجله تماما الى اليوم .

وهأنذا اكتب هذا الكتاب فى الوقت الذى يخاطب فيه المستر بريان جمهورا كبيرا من الناس متحدثا عن « خطر الدارونية » ، محذرا مستمعيه من الأخطاء التى وقع فيها العالم الانكليزى الطبيعى الكبير .

على أن كل ماذكرت لايعدو أن يكون تفصيلا لما وقع . ذلك أن العمل الذى قدر له أن يعمل قد تم بلا تغيير ولا تعديل ، كما أن الخير العميم الذى تم على يد الكشوف والمخترعات ، قد أصاب أولئك الناس الذين دابوا على رمى كل رجل من أصحاب النظر بأنه رجل مثالى لايقيس الامور بمقياس الواقع .

وكان اهل القرن السابع عشر لايزالون يؤثرون استقصاء السموات العلى ، ودراسة موقع كوكبنا بالنسبة للمجموعة الشمسية . ولم ترض الكنيسة حتى عن ذلك ، وعدته فضولا غير محمود ، فلم يستطع **كوپرنيكوس** الذى كان أول من أثبت أن الشمس هى مركز الكون ، طبع كتابه الى أن أدركته المنية . وانفق

جاليليو الشطر الأكبر من حياته تحت رقابة سلطات الكنيسة ، ولكنه دأب على استخدام منظاره ، وزود **أسحاق نيوتن** بمجموعة من الملاحظات العملية ساعدت هذا الرياضى الانكليزى مساعدة كبيرة فى الكشف عن تلك السنة الطريفة التى تخضع لها الأجسام الهابطة ، والتى عرفت من بعد باسم قانون الجاذبية .



جاليليو

وقد استنفد ذلك الى حين على الأقل اهتمام الناس بالسموات ، وأخذ الانسان يدرس الأرض . وقد أفضى اختراع المنظار العملى (وهو أداة صغيرة عجيبة كالحة المنظر) على يد **انطونى فان ليونهويك** فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، الى اتاحة الفرصة لدراسة المخلوقات التى لاترى الا بالمنظار ، وهى علة كثير جدا من الامراض . وقد وضع هذا المنظار أساس علم الفطريات الذى خلص العالم فى السنوات الاربعين الأخيرة من طائفة كبيرة من الأمراض ، بفضل الكشف عن المتعضيات الدقيقة التى تسببها ، كما أتاح لعلماء طبقات الأرض أسباب دراسة مختلف الصخور والحفريات التى وجدت مطمورة فى أعماق سطح الأرض دراسة دقيقة . ونقصد بالحفريات تلك النباتات والحيوانات المتحجرة التى ترجع الى ماقبل التاريخ . وقد اقنعت هذه الحفريات هؤلاء العلماء بأن الأرض لابد أن تكون أقدم بكثير مما جاء فى سفر التكوين . وفى عام ١٨٣٠ طبع السير **تشارلس ليال** كتابه « مبادىء علم طبقات الأرض » ، وأنكر فيه قصة الخلق كما وردت فى الكتاب المقدس ، وزودنا بوصف اعجب من ذلك بكثير عن التقدم الوئيد والتطور المطرد الذى أصاب الأرض .

وكان **المركيز ده لاپلاس** فى الوقت نفسه يدرس نظرية جديدة فى الخلق تقول بأنه كان بقعة صغيرة فى المحيط السديمى الذى تكونت منه مجموعة الكواكب . وكان **بنزن وكيرتشهوف** يبحثان بفضل المنظار الطبيعى التكوين الكيميائى للنجوم ولكوكب الشمس جارتنا الصالحة التى كان جاليليو اول من لاحظ ماعليها من بقع عجيبة .

وكان علماء التشريح ووظائف الاعضاء قد حصلوا من الكنيسة فى الوقت نفسه أيضا على اذن بتشريح الاجسام ، بعد أن اقتضاهم ذلك نضالا رهيبا مريرا مع السلطات الكنسية فى البلاد الكاثوليكية والبروتستانتية ، وتخلصوا من دجل القرون الوسطى الذى كان يقوم على التخمين ، وأقاموا بدله علما بأعضائنا وخصائصها يستند الى المعرفة اليقينية .

وفى خلال جيل واحد ، أى مابين عامى ١٨١٠ و ١٨٤٠ ، زاد التقدم فى كل فرع من فروع العلم زيادة لم تعهد فى مئات الآلاف من السنين التى خلت منذ أن نظر الانسان للمرة الأولى الى النجوم ، واحتار فى تعليل وجودها حيثما كانت . ولا شك فى أن ذلك اليوم الذى ازداد فيه تقدم العلم كان يوما كئيبا حزينا بالنسبة لأولئك الناس الذين تلقوا تعليمهم فى ظل النظام القديم . ونحن نستطيع أن ندرك شعور الكراهية الذى احسوا به نحو علماء من قبيل لامارك ودراوين ، لم يذهبوا معهم الى حد القول بأنهم « انحدروا من القرود » (وهى تهمة كانوا يعدونها فيما يظهر اهانة شخصية موجهة اليهم) ، بل زعموا أن الجنس البشرى الفخور قد نشأ من سلسلة طويلة من الاجداد يمكن ان يردوا نسبهم الى السمك الهلامى الصغير الذى كان أول من سكن هذا الكوكب الذى نعيش عليه .

لقد صحت عزيمة اهل الطبقة الوسطى المكرمة التى سادت القرن التاسع عشر على أن تفيد من الغاز او النور الكهربائى ، ومن جميع النتائج العملية المتحصلة

من الاخذ بالكشوف العلمية الكبرى . أما الباحث الصرف صاحب النظريات العلمية الذى لايرجى للعالم تقدم بدونه ، فقد ظل موضع الشك الى عهد جد قريب ، ثم اعترف الناس بخدماته آخر الأمر . فالأغنياء الذين كانوا فيما مضى يهبون ثروتهم فى سبيل بناء كاتدرائية ، ينشئون الآن معامل فسيحة الجنبات تأوى أناسا يقاتلون فى صمت أعداء البشر المستترين ، وكثيرا مايضحون بحياتهم حتى تنعم الأجيال القادمة بسعادة أكبر وعافية أتم .

والحق ان كثيرا من آفات هذا العالم التى كان يعدها أسلافنا من « افعال الله » التى لامهرب منها ولا دافع ، قد حدث أن تناولها العلماء على أنها مظاهر لجهلنا وتهاوننا . وذلك أن كل طفل يعلم الآن أن فى مقدوره أن يتجنب الحمى التيفودية اذا هو عنى عناية يسيرة بتخير الماء الذى يشربه . ولكن اقتناع الناس بهذه الحقيقة استنفد من الأطباء سنوات وسنوات قضوها فى عمل شاق مرهق . وقد تيسر لنا بفضل دراسة الميكروبات التى تعيش فى أفواهنا أن نحمى اسناننا من شر التسوس . واذا كتب علينا ان نخلع سنا من اسناننا فما علينا الا أن نستنشق قليلا من الغاز ، ثم نذهب الى حال سبيلنا راضين مغتبطين .

ولما نقلت صحف عام ١٨٤٦ قصة « الجراحة دون الم » التى أجريت فى أمريكا بالاستعانة بالاثير . . . هز أهل اوربا الطيبون رءوسهم . فقد بدا لهم أن خلاص الانسان من الألم يناقض ارادة الله الذى جعل الألم من نصيب العالم الفانى ، ومضى وقت طويل قبل أن تشيع طريقة استنشاق الاثير أو الكلوروفورم فى الجراحات .

على أن معركة التقدم كانت قد كسبت ، واخذت الثغرة التى احدثت فى جدران الأهواء القديمة تتسع وتتسع . وبمرور الزمن تقوضت أحجار الجهل العتيق ، واخذ الرواد المتحمسون المبشرون بقيام نظام اجتماعى أسعد واهنأ . . . يندفعون فى طريقهم . ثم الفوا انفسهم بغتة أمام عقبة جديدة . ذلك أن أنصار الرجعية أقاموا من انقاض الماضى الغابر حصنا آخر ، ولم يكن بد من أن يبذل ملايين الناس أرواحهم فى سبيل هدم هذا المعقل الاخير من معاقل الرجعية .

الفن

فصل عن الفن

اذا كان الطفل فى تمام عافيته : يأكل كفايته ، وينام كفايته . . . فانه يناغى بنغم قصير يعبر به عن مقدار سعادته ، وهذا النغم لايعنى شيئا فى نظر البالغين . فهو يصل الى الاسماع فى صوت أشبه بـ « جو . . زم ، جو . . زم ، جووو » ولكنه فى نظر الطفل لحن تام كامل ، يعد أول مشاركة له فى عالم الفن .

فاذا كبر الطفل أو الطفلة شيئا ما ، واستطاع الجلوس ، بدأت المرحلة التى يصنع فيها عجائن من الصلصال ، وهذه العجائن الصلصالية لايعنى بها فى خارج محيطه . وذلك أن ثمة ملايين من الاطفال يصنعون ملايين الملايين من العجائن الصلصالية فى وقت واحد . على ان هذه العجائن تمثل عند الطفل الصغير مرحلة اخرى خطاها فى عالم الفن البهيج . فهو قد اصبح حينئذ مثالا .

وتبدأ ايدى الطفل تطاوع عقله فى سن الثالثة او الرابعة فيغدو رساما . وتعطيه امه المتعلقة به صندوقا من الطباشير الملون ، فلا يلبث ان يغطى كل ورقة مهملة بنقوش ملولبة وخطوط مشبجة عجيبة ، تمثل بيوتا وخيلا ووقائع بحرية رهيبة .

على أن هذه السعادة التى يشعر بها الطفل لمجرد قدرته على « صنع اشياء » سرعان ماتنتهى . ذلك أن مرحلة المدرسة تبدأ ، ويستنفد الصبى وقته فى الدرس ، وتصبح « حرفة العيش » أو حرفة « كسب المعاش » قوام حياة كل صبى وصبية . ولا تترك جداول الضرب واسم المفعول من الافعال الفرنسية الشاذة لهما الا متسعا قليلا من الوقت ينفقانه فى ممارسة الفن .

ويشب الصبى ، ويبلغ مبلغ الرجال ، فينسى أنه قضى معظم سنواته الخمس الاولى منصرفا الى الفن مالم تتملكه رغبة قوية تحفزه الى صنع اشياء بعينها لمجرد السرور الذى يغشى نفسه اذا هو ابدعها ، ومن غير

ان يساوره اى امل فى جزاء مادى يعود عليه من صنعها .

والأمم لاتختلف فى ذلك عن الأطفال . فما ان تخلص رجل الكهوف من المخاطر التى كانت تتهدد حياته اثناء فترة الجليد التى هرات بدنه ، حتى بدأ يرتب مأواه ، ويصنع اشياء بذاتها كانت جميلة فى عينه على الرغم من أنها كانت لاتنفعه فى دنياه ، ولا يفيد منها فى قتاله وحوش الغابة . وشرع هذا الرجل يغطى جدران كهفه برسوم الفيلة والايائل التى اصطادها ، ويأخذ القطعة من الصخر فينحتها تماثيل ساذجة للنساء اللائى كن أحب النساء فى عينه .

وما ان اقام المصريون والبابليون والفرس وسائر امم الشرق ممالكهم الصغيرة على النيل والفرات ، حتى اخذوا يقيمون لملوكهم القصور الفخمة ، ويبتدعون لنسائهم الحلى المتلألئة ، ويزرعون البساتين الحافلة بالازاهير تشرق بألوانها اشراقة اللحن السعيد .

وقد صنع اسلافنا البدو الرحل النازحون من فيافى آسيا ، والذين كانوا ينعمون بحياة حرة ميسرة مقاتلين وصيادين ، أناشيد تغنوا فيها بجلائل مافعله قوادهم الصيد ، وابدعوا ضربا من القريض بقى الى يومنا هذا . ولما مكن هؤلاء لانفسهم فى بلاد اليونان الأصلية بعد ذلك بألف سنة ، وأقاموا «دول مدن» . . اخذوا يعبرون عن أفراحهم واتراحهم بالمعابد الفخمة والتماثيل والمسرحيات الفكاهية والمآسى وبكل ماتصور من ضروب الفن . وكان الرومان – شأن منافسيهم القرطاجنيين – منهمكين انهماكا شديدا فى حكم غيرهم من الشعوب وجمع المال، فلم يتسع وقتهم كثيرا لحب المغامرات الروحية التى « لاغناء فيها ولا طائل من ورائها » ، ففتحوا العالم ، وانشأوا الطرق والجسور . ولكنهم استعاروا فنهم كله من اليونان . صحيح انهم ابدعوا بعض طرز عملية من طرز العمارة توائم حاجات عصرهم ، الا أن تماثيلهم وتواريخهم وفيسفساءهم وقصائدهم ، كانت مجرد صور لاتينية قلدوا بها الاصول اليونانية . والحق انه لاقيام للفن بدون ذلك الشيء الغامض المتأبى عن الوصف ، الذى يطلق عليه العالم اسم « الشخصية » . وقد كان الرومان يتشككون فى هذا الضرب المعين من ضروب الشخصية . ذلك أن الامبراطورية الرومانية كانت فى حاجة الى جنود كفاة وتجار مقتدرين . ومن ثم ترك الرومان قرض الشعر ورسم الصور للاجانب .

ثم حلت العصور الوسطى . لقد كان الرجل الهمجى الثور المأثور عن الامثال ، يضرب فى مصنع الخزف فى غربى أوربا . أو هو فى لغة أهل عصرنا ، الرجل الذى يؤثر أغلفة المجلات المحلاة بصور النساء الجميلات ، ويلقى بما ورث من صور رامبرانت المطبوعة فى سلة المهملات . على انه سرعان مازادت معرفته فحاول ان يصلح التلف الذى حدث على يديه قبل ذلك بسنوات قلائل . ولكن سلة المهملات كانت قد ذهبت وذهبت معها الصور .

على انه ماوافى هذا الزمن حتى كان فنه الذى نقله من الشرق، قد نما وتطور وأصبح شيئا غاية فى الجمال ، وعوض ذلك الرجل ما أحدثه اهماله وتهاونه فيما سبق ، بالشيء الذى عرف باسم « فن العصور الوسطى » . وكان هذا الفن فى دائرة أوربا الشمالية ثمرة للقريحة الالمانية ، ولم يستق من اليونان واللاتين الا القليل ، ولم يستعر شيئا قط من صور الفن القديمة فى مصر وأشور ، ولا داعى لذكر الهند والصين فى هذا المقام لا لشيء الا لأنهما كانتا غير موجودتين فى عرف أهل هذا الزمن . والحق ان سلطان شعوب الجنوب على جيرانهم أهل الشمال كان ضئيلا ، ومن ثم كان أهل ايطاليا يجهلون تمام الجهل آثار العمارة التى خلفها هؤلاء ، وكانوا يحتقرونهم احتقارا صريحا لامداراة فيه ولا ابهام .

وأنتم جميعا قد سمعتم كلمة « قوطى » ، ولعلكم تقرنون هذه الكلمة بصورة كاتدرائية قديمة بديعة تضرب أبراجها الرفيعة فى كبد السماء . ولكن ما المدلول الحقيقى لهذه الكلمة ؟ انها تدل على شيء « فظ » و « همجى » ، شيء يتوقعه المرء من « رجل قوطى غير متمدين » ، من رجل خشن قادم من أقاصى المعمورة لايحترم القواعد التى قررها الفن الكلاسيكى ، يشيد « عمائره الحديثة الفظيعة » ليرضى ذوقه هو المنحط من غير توقير لآيات العمارة مثل الفورم والأكروپوليس .

ومع ذلك فقد ظلت العمارة القوطية عدة قرون تعبر أبلغ تعبير من الشعور الصادق نحو الفن ، وهو الشعور الذى كان مصدر الالهام لشمالى القارة بأسره . ولا شك فى أنك ستذكر مما قلناه فى فصل من فصول الكتاب التى سبقت ، كيف كان الناس يعيشون فى العصور الوسطى المتأخرة . فقد كانوا مزارعين يعيشون فى القرى أو متحضرين يعيشون فى مدينة ، أو « كيفيتاس » ، وهو الاسم اللاتينى القديم للقبيلة .

والحق ان هؤلاء المدنيين كانوا فيما وراء أسوارهم العالية وخنادقهم العميقة ، أبناء قبيلة بحق يواجهون

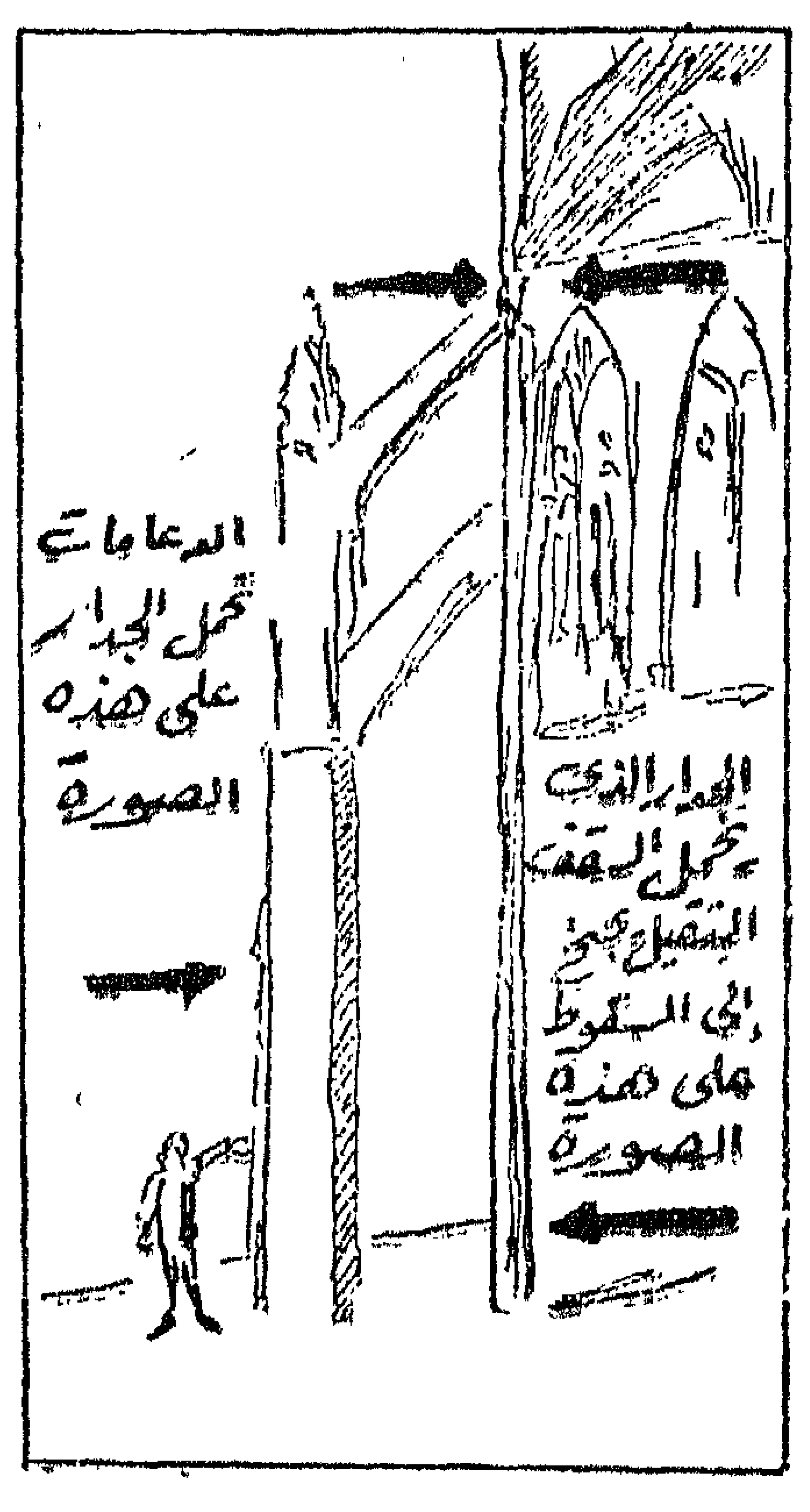
الخطر عصبة ، وينعمون بالأمن والرخاء عصبة بفضل نظامهم الذي كان قائما على نهوض الجميع بحماية ذمارهم .

وقد كان السوق الذي يقوم فيه المعبد محور الحياة الدينية فى المدن اليونانية والرومانية القديمة . اما فى القرون الوسطى فقد أصبحت الكنيسة ، بيت الله ، محور حياة الناس . ونحن معشر البروتستانت المحدثين الذين نذهب الى الكنيسة مرة واحدة كل أسبوع ولا نمكث فيها الا ساعات قلائل ، لانكاد نعرف مقام الكنيسة في نظر الجماعة أيام القرون الوسطى . ثم انك أيها القارىء تحمل الى الكنيسة لتعميدك قبل أن يمضي اسبوع على اكتحال عينيك بنور الحياة . وتذهب اليها وأنت بعد طفل لتسمع قصص القديسين الواردة فى الكتاب المقدس . ثم تغدو ابنا من أبناء الملة ، تبني لنفسك ان كنت واسع الثراء كنيسة صغيرة خاصة ، اجلالا لذكرى الولى الذي يرعى اسرتك . وقد كانت الكنيسة تفتح أبوابها في جميع ساعات النهار وشطرا كبيرا من الليل . وكانت بهذا المعنى تشبه المنتدى الحديث يقام لاهل المدينة جميعا . وانك لجرى وأنت فى الكنيسة بأن يقع بصرك للمرة الأولى على الفتاة التى كتب عليك أن تعقد عليها فى حفل كبير أمام المذبح الأكبر . ثم انك تثوى آخر الأمر حين تنتهي حياتك فى الدنيا تحت أحجار هذا البيت المألوف ، حتى يستطيع اولادك واحفادك أن يمروا بقبرك الى يوم يبعثون .

ولم تكن الكنيسة بيت الله فحسب ، بل كانت أيضا المحور الحقيقى لحياة الناس كافة ، ومن ثم وجب ان تبني على خلاف كل بناء اقامته يد الانسان من قبل . لقد كانت معابد المصريين واليونان والرومان لا تعدو أن تكون مزارا لرب من ارباب ناحية من النواحى . ولم يكن ثمة داع يحمل هؤلاء القوم على افساح رقعة هذه المعابد من الداخل ، بحيث تتسع لحشد من الناس كبير ، ذلك انه لم تكن تلقى عظات امام تماثيل **أوزيريس** أو **زيوس** أو **جوبيتر** . فقد كانت كل المواكب الدينية تقام عند شعوب البحر المتوسط القديمة في العراء . علي أن الجو في الشمال كان فى الغالب قارسا ، ولذلك كان معظم الشعائر الدينية يقام تحت سقف الكنيسة .

وظل المهندسون المعماريون عدة قرون يكافحون في سبيل التغلب على مشكلة تشييد بناء كبير يتسع لهذا العدد . وقد تعلموا من الرومان فى العمارة كيف يقيمون جدرانا من الحجارة الثقيلة لاتتخللها الا منافذ صغيرة جدا ، خشية أن تفقد هذه الجدران متانتها ، ثم أقاموا فوقها سقفا ثقيلا من الحجارة . على أن المهندسين فى القرن الثانى عشر كانوا قد شاهدوا بعد اشتعال نار الحروب الصليبية ، العقود المستدقة الرأس التى جرى عليها المهندسون المسلمون ، فاستحدثوا طرازا جديدا أتاح لهم الفرصة الأولى لاقامة ذلك الضرب من البناء الذي يسد حاجة تلك الايام التي اشتدت فيها غيرة الناس على الدين . ثم مضوا فى هذا الطراز العجيب الذى نعته الايطاليون بذلك الاسم الزري ألا وهو « القوطى » ، اى الهمجى ، فبلغ هؤلاء المهندسون غرضهم باستحداث سقف معقود مقام على دعائم . على أن هذا السقف اذا ثقل وزنه عن الحد فهو خليق أن يخل بالجدران ، مثله مثل الرجل يزن ثلثمائة رطل ويقعد على كرسى طفل ، فيتداعى الكرسى من تحته .

واراد المهندسون المعماريون الفرنسيون أن يتغلبوا علي هذه الصعوبة ، فأخذوا يدعمون الجدران بأعضاد ، وكانت هذه الأعضاد مجرد كتل ثقيلة من الحجر تستند اليها الجدران فى حملها السقف .



العمارة القوطية

وزادوا السقف تمكينا بتعزيز دعائمه بما يعرف بالأعضاد الطائرة ، وهى طريقة من ابسط طرق البناء ستتبينها لأول وهلة عندما ترى الصورة التى رسمتها .

وكانت هذه الطريقة الجديدة فى البناء تسمح باقامة نوافذ ضخمة . وكان الزجاج فى القرن الثانى عشر من البدع الباهظة الثمن ، فلم يستعمل الا فى نوافذ عدد قليل جدا من بيوت الأفراد . بل لقد خلت منه قلاع النبلاء ، وهذا هو السبب فى وجود تيارات الهواء على الدوام ، وفى تدثر أهل تلك الأيام بالفراء فى داخل البيوت وخارجها .

ومن حسن التوفيق أن صناعة الزجاج الملون التى كانت شائعة بين أهل البحر المتوسط القدماء لم تكن قدانقرضت تماما . فقد كان ثمة احياء لصناعةالزجاج المنقوش بالالوان ، وسرعان ما ازدانت نوافذ الكنائس القوطية بقصص من الكتاب المقدس أبرزت على قطع صغيرة من ترابيعالزجاج ، لونت بألوان متألقةوشدت بأطر طويلة من الرصاص .

ولننظر اذن الى بيت الله المجيد الجديد عامرا بجماهير الناس المتشوقين ، يحيونشعائرالدين كما لم يحيها احد من قبلهم ولا من بعدهم ! ذلك أن القوم لم يبخلوا بشىء على هذا البيت ، بيت الله وبيت الانسان ، ولم يستكثروا عليه شيئا مهما بلغ من جودته وغلو ثمنه ونفاسته .

وأخذ المثالون الذين كانوا قد تبطلوا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية يعودون فى تهيب الى ممارسة فنهم الجليل . وزينت جميع الابواب الكبرى والعمد والأعضاد والأطناف بصور منحوتة تمثل الرب والقديسين المباركين . وشمر المطرزون أيضا عن ساعد الجد ، وأخذوا يصنعون القماش المزركش للحوائط . وجاد الجواهرية ببدائع فنهم حتى يتخذ محراب المذبح كامل زينته . بل فعل المصور كل مافى وسعه ، ولكن هذا المسكين كان يلاقى مصاعب جمة ، فقد كانت تعوزه الوسيلة المواتية .

وترتبط بذلك قصته .

فقد كان الرومان والنصارى الأولون يغطون أرض معابدهم وبيوتهم وحوائطها بالفسيفساء ، وهى صور كانت تصنع من قطع الزجاج الملون . ولكن هذا الفن كان عسيرا جدا . فهو لم يكن يتيحللمصور ان يعبر عن كل ما يريد ، وهو أمر يدركه كل الاطفال الذين حاولوا أن يصنعوا اشكالا من مكعباتالخشب الملونة . ومن ثم مات فن التصوير بالفسيفساء فى العصور الوسطى المتأخرة ... الا فى روسيا حيث التجأ مصورو الفسيفساء البوزنطيون بعد سقوط القسطنطينية ، واستمروا يزينون حوائط الكنائس الارثوذكسية حتى أيام البلشفيك الذين أوقفوا بناء الكنائس .

وقد كان فى مقدور المصور فى القرون الوسطى أن يمزج الوانه بماء الجص الندى الذى كانت تطلى به حوائطالكنائس . وظلتهذهالطريقة ، طريقةالتصوير على « الجص الغض » (وقد غلب عليها اسم فريسكو ، اى التصوير الغض) .. شائعةجداعدةقرون . وهى الآن نادرة ندرة فن رسم المنمنماتفىالمخطوطات ، وقلما نجد بين مئات الفنانين الذين يعيشون فى مدننا الحديثة واحدا يستطيع ان يعالج هذه الطريقة بنجاح . على انه لم يكن ثمة طريقة غيرها فى القرون الوسطى . وكانالفنانونلايمارسون الا الصورالجصية لأنهم لم يجدوا طريقة فى التصوير احسن منها . ومع ذلك فقد كان لهذه الطريقة عيوب خطيرة . ذلك أن الحيطان كانت تنفض الجص فى غالب الأحيان ، أو تفسد الرطوبة الألوان افسادها لرسوم الورق الذى نلصقه الآن على حوائطنا . وحاول القوم بكل وسيلة تخطر على البال التحرر من اتخاذ الجص وسيلة الى هذا الفن . حاولوا أن يمزجوا الوانهم بالخمر والخل وعسل النحل وبياض البيض اللزج ، ولكن لم تأت وسيلة من هذه الوسائل بنتيجة مرضية .
واستمرت هذه التجاربأكثر من الف عام . وقد نجح فنانو العصور الوسطى نجاحا باهرا فى نقش الصور على الرق الذى كانت تصنعمنه اوراق المخطوطات ، ولكن نجاحهم كان محدودا عندما تصدوا لنقش مساحات كبيرة من الخشب أو الحجر بطلاء معرض للتشمع .

وقد حلت هذه المشكلةآخر الأمر فى جنوبى هولندا خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر على يد **جان وهوبرت فان ايك** . فقد مزج هذان الأخوان الفلمنكيان المشهوران طلاءهما بنوع من الزيت أعد اعدادا خاصا . وقد مكنهما ذلك من اتخاذ الخشب والخيش أو الحجر أو أى شىء آخر سطوحا خلفية لصورهم .

على أنه ما أن حل هذاالزمن حتى كانت غيرةالناس على الدين التى تجلت فى مستهل العصور الوسطىأثرا من آثار الماضى . وأخذ أهل المدن الموسرون يحلون محل الأساقفة فى رعاية الفنون . ولما كان الفن فى جميع الأحوالينقاد الى أصحاب الثراء ، فقد أخذ

الفنانون عندئذ يعملون لهؤلاء السادة من أهل الدنيا ، ورسموا صورا للملوك والفراندوقات وأرباب المصارف الأغنياء . وانتشرت الطريقة الجديدة ، طريقة الرسم بالزيت ، فى أمد وجيز جدا فى جميع أنحاء أوربا . وكانت فى كل قطر مدرسة خاصة فى الرسم بالزيت تمثل الأذواق المتميزة للقوم الذين كانت ترسم لهم هذه الصور الشخصية أو المناظر الطبيعية .

فقد كان **فلاسكويز** مثلا يصور فى اسبانيا أقزام البلاط والنساجين الذين كانوا ينسجون الأقمشة المطرزة فى المصانع الملكية ، وشتى صنوف الاشخاص والموضوعات التى تتصل بالملك وبلاطه . أمافى هولندا فقدرسم **رامبرانت وفرانز هالس وفرمير** المخازن التى فى بيت التاجر وزوجته بملابسها التى تقرب من ملابس الريفيات وأطفاله الأصحاء المتغطرسين والسفن التى درت عليه الثروة . أما فى ايطاليا التى كان البابا فيها لايزال اكبر راع للفنون ، فقداستمر **ميخائيل انجلو وكورجيو** يرسمان مريم العذراء والقديسين . وكان النبلاء فى انكلترا على جانب عظيم من الثراء والسلطان ، كما كان الملوك فى فرنسا قد غدوا أصحاب الكلمة العليا فى الدولة ، ومن ثم أخذ الرسامون فى هاتين الدولتين يصورون الأعيان المبرزين الذين كانوا يساهمون فى الحكم ، والسيدات الفاتنات اللائى كن صديقات لجلالة الملك .

وتجلى أثر التغير الكبير الذى طرأ على التصوير ، بانصراف الناس عن الكنيسة القديمة ، وظهور طبقة اجتماعية جديدة فى سائر ضروب الفن الاخرى . واتاح اختراع الطباعة للمؤلفين احراز الشهرة والمكانة بتأليف الكتب للجماهير ، ونشأت بفضل ذلك حرفة الروائى والرسام . على أن الناس الذين كان لديهم من المال مايكفى لشراء الكتب الجديدة ، لم يكونوا من أولئك الذين يؤثرون الاخلاد الى بيوتهم بالليل يتأملون فى السقف أو يجلسون فارغى البال . لقد كان هؤلاء يسعون الى التسلية ، وكان عدد المنشدين فى القرون الوسطى قليلا لايكفى للترويح عن الناس . ومن ثم أتيحت للكتاب المسرحيين الفرصة الأولى لممارسة حرفتهم بعد أن انقطعت أمثال هذه الفرص منذ عهد دول المدن اليونانية الأولى لألفين من السنين خلت . وقد عرفت القرون الوسطى المسرح بوصفه جزءا بعينه من أعياد الكنيسة فحسب . فقد كانت مآسى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تروى قصة الآلام التى قاساها الرب . على أن المسرح الدنيوى عاد الى الظهور فى القرن السادس عشر . صحيح أن كاتب المسرحيات المحترف والممثل المحترف لم يكونا من أصحاب المكانة السامية بحال ، فقدكان **شكسبير** ضربا من اللاعبين فى ملاعب الوحوش (سرك) يسلى جيرانه بمآسيه وفكاهياته . الا أنه كان قد بدأ يكسب احترام هؤلاء الجيران عندما أدركته المنية عام ١٦١٦ ، وعاد الممثلون لايوضعون تحت رقابة رجال الشرطة .

وكان معاصر شكسبير ، **لوپه ده ڤيجا** ، ذلكم الاسبانى العجيب الذى كتب ما لا يقل عن الف وثمانمائة مسرحية دنيوية وأربعمائة مسرحية دينية ، رجلا من ذوى المكانة تلقى من البابا مايفيد رضاه عن آثاره . أما **موليير** الذى جاء بعد **لوپه** بقرن من الزمان ، فقد كان أهلا لصحبة الملك لويس الرابع عشر نفسه .

ومن يومئذ أخذ الناس يتعلقون بالمسرح تعلقا يزداد باطراد حتى لقد اصبح المسرح اليوم جزءا من كل مدينة حسنة النظام ، كما تغلغلت « المسرحية الصامتة » التى تبرز على الشاشة البيضاء فى أصغر القرى والدساكر .

على أن ثمة فنا آخر قدر له أن يصبح أشيع الفنون جميعا ، ألا وهو الموسيقى . لقد كانت معظم صور الفن القديمة تتطلب براعة فنية عظيمة ، ودربة تستغرق سنوات وسنوات قبل أن يتهيأ ليدنا الجافية أن تطيع مايشير به المخ ، وتمثل مايتراءى لخيالنا على القماش أو فى المرمر . وتعلم التمثيل أو كتابة رواية جيدة يقتضيان من المرء مكابدة تستغرق حياته كلها ، كما أن الجمهور يحتاج الى دربة عظيمة حتى يتيسر له الحكم على آيات التصوير وروائع الادب وبدائع فن النحت .

أما الموسيقى فكل الناس ، الا من صمت طبيعته عن النغم صما ، يستطيعون أن يتتبعوا لحنا من الالحان ، وكل الناس الا ماندر يستطيعون أن يجدوا المتعة فى ضرب ما من ضروب الموسيقى . ولم يستمع الناس فى القرون الوسطى الا الى القليل من الموسيقى التى كانت مقصورة على موسيقى الكنائس فحسب . وكانت التراتيل الدينية خاضعة لقوانين بالغة الصرامة فيما يختص بالايقاع وتناسق الأنغام ، ومن ثم سرعان ماغدت هذه التراتيل رتيبة مملولة ، كما أنه لم يكن فى استطاعة الناس ترتيلها ترتيلا حسنا فى الشوارع أو فى الأسواق .

وقد غير عصر النهضة من هذه الحال ، وعادت الموسيقى الى شأنها القديم أصدق أصدقاء الانسان فى مسراته وأحزانه .

لقدكان المصريون والبابليون واليهود القدماء جميعا

من عشاق الموسيقى المولعين ، بل بلغ من امرهم أنهم جمعوا آلات مختلفة فى فرق موسيقية منظمة . الا أن اليونان استنكروا هذه الرطانةالهمجية الدخيلة . فقد كانوا يؤثرون أن يسمعواالرجل يترنم بشعر **هوميروس وبندار** الرفيع ، وسمحوا له بأن يقرن هـذا الترتيل بالعزف على القيثارة أفقر الآلات الوترية جميعـا . وكان هذا هو شأن كل فرد منهم اذا شاء ألا يتعرض فى غدوه لخطر استهجان الناس له . أما الرومان فكانوا يحبون أن يستمعوا الى فرق الموسيقى تعـزف فى عشائهم ومآدبهم ، فاخترعوا معظم الآلات التى نعزف عليها اليوم بعد أن عدلناها تعديلا كبيرا . وقد ازدرت الكنيسة القديمةهذا الضرب من الموسيقى لأنه كان يثير الى حد كبير العالم الوثنى الشرير الذى كانت هذه الكنيسة قد قضت عليه وشيكا . ولم يكن جميع أساقفة القرنين الثالث والرابع الميلاديين يسمحون الا بأغنيات قليلة يرتلها أهل الملة جميعا . ولما كان أهل الملة خليقين بأن يشذوا فى غنائهم عن قواعد اللحن شذوذا مستقبحا ، ان لم يسترشدوا بآلة من الآلات الموسيقيـة ، فقـد أجازت الكنيسة فيما بعد استعمال الأرغن . وهـو آلة من مستحدثات القرن الثانى للميلاد حيث جمعت بين المزامير القديمة لرب الرعاة اليونان وزوجين اثنين من المنافيخ .

ثم حل عصر الهجـرات الكبرى ، وقتـل آخـر الموسيقيين من الرومان ، أو غدوا من عازفى الـكمان المتجولين، ينتقلون من بلد الى بلد، ويمارسون حرفتهم فى الطرقات يستعطون القروش ، شأنهم شأن عازفى القيثارة فى المعديات التى تنقل الناس اليـوم مـن شاطىء الى آخر .

على أن ازدهار الحضارة الآخذة بقسط أوفر من الدنيا فى مدن العصـور الوسطى المتأخرة ، جعـل الناس فى حاجة جديدة الى الموسيقيـين . وصنعت آلات موسيقية كالنفير الذى كان لايستعمل الا علامة مؤذنة بالصيد أو القتال . على نحو جديد ، يخرج أنغاما توائم الراقصين فى حلبات الرقص والأضياف فى قاعات المآدب . وصنع القوم قوسا شد عليه شعر الخيل للعزف على القيثارة العتيقة، وتطورت الآلة ذات الأوتار الستة (وهى أقدم الآلات الوترية جميعا ، اذ يرجع تاريخها الى أيام مصر القديمة وأشور) قبـل نهـاية القرون الوسطى الى تلك الكمان الحديثة ذات الأربعة الأوتار التى بلغ بها **ستراديفاريوس** وغيره من صناع



الموسيقى المتجول

الكمان فى القرن الثانى عشر ، أرفع مراتب الكمال .

ثم اخترع آخـر الأمـر البيـان ، أشيـع الآلات الموسيقية جميعا . وقد تبعت هذه الآلة الانسان الى أعماق الغابات الموحشة وأصقاع الجليد فى جرينلنده . وكان الأرغن أول الآلات ذات المفاتيح ، ولكن العازف عليه كان يعتمد دائما على معونة رجل يتولى عنه نفخ منافيخه ، وهو عمل يؤدى الآن بواسطة الـكهرباء . ومن ثم تطلع الموسيقيون الى آلة أقرب تناولا وأكثر مواءمة الظرف ، تعاونهم على تدريب التلاميذ الذين يؤهلون للانخراط فى فرق المرتلين الـكثيرة . وفى خـلال القرن الحادى عشر العظيـم ، زودنا **جويدو** الراهب البندكتى ، من أهل أرتزو مسقط رأس الشاعر بترارك ، بالطريقة الحديثة التى نتبعهـا فى التـدوين الموسيقى . وقد حدث فى خلال هذا القرن حينما كان ثمة اهتمام شديد بالموسيقى أن صنعت أول آلة تجمع بين المفاتيح والأوتار . ولابد أن أنغامها كانت تصلصل صلصلة بيان الاطفال الذى نستطيع ان نشتريه من اى حانوت يبيع لعب الصغار . وتطور المصوات المفرد الوتر الصغير فى فينا ــ وهى البلد التى كان موسيقيوها المتجولون من أهل القرون الوسطى الذين سلكوا ضمن المشعوذين والمحتالين ، قد أقاموا أول نقابة مستقلة للموسيقيين عام ١٢٨٨ ــ تطور الى شىء يمكن أن نعده

الأصل الذى اخذ منه بياننا الحديث . وانتقلت الآلة الوترية ذات الملاوى او المفاتيح (وهو الاسم الذى غلب عليها فى تلك الايام بالنسبة الى ماتزودت به من ملاو أو مفاتيح) من النمسا الى ايطاليا . ثم ارتقوا فى ايطاليا بهذه الآلةوأصبحت تسمى «سپينت» نسبة الى مخترعها **جيوڤانى سپينتى** البندقى . واخيرا استطاع **برتلوميو كريستوفورى** ، خلال القرن الثامن عشر فيما بين سنتى ١٧٠٩ و ١٧٢٠ ، أن يصنع بيانا له لوحة من الملاوى تمكن العازف عليه من أن يرتفع بالنغم أو يخافت به . وقد تطورت هذه الآلة بعد ادخال بعض التعديلاتعليها ففدت مايعرف بالبيان .

ومن ثم اصبح فى متناول العالم لاول مرة آلةسهلة ميسرة ، يستطيع المرء ان يتقن العزف عليها فى بضع سنين من غير حاجة الى مداومة ضبط اوتارها وتنغيمها كما هو الشأن بالنسبة للقيثارة والكمان ، آلة الطف مسمعامن ابواقالقرون الوسطى ومزاميرها على اختلاف انواعها . وكما أن الحاكى قد ادخل فى قلوب المحدثين لأول مرة محبة الموسيقى ، فكذلك نشر البيان الأولالمعرفةبالموسيقى فى دائرة اوسعوأرحب ، واصبحت الموسيقى جزءا من تعليم كل رجل مهذب وكل امرأة مثقفة ، وغدا للأمراء وسراة التجار فرق موسيقية خاصة . وادخلت الموسيقى فى تمثيل الرواياتالمسرحية ، ومن ثمنشأ فنالأوبراتالحديثة . ولم يكن يستطيع تحمل نفقة فرق الأوبرا فى أول الأمر الا عدد قليل جدا من الامراء الاغنياء . على أن تذوق الناس لهذا الضرب من ضروب الترويح عن النفس ازداد ، فأقام كثير من المدن مسارح خاصة حيث كانت تمثل الاوبرات الايطالية ثم الاوبرات الالمانية ، فيستمتع بها المجتمع بأسره الى أقصى حدود الاستمتاع ، اللهم الا عدد قليل من طوائف المسيحيين المتزمتين الذين ظلوا ينظرون الى الموسيقى نظرة فيها شك كثير ، لأنها شيء أفتن من أن يعود على الروح بالخير العميم .

وما ان حل منتصف القرن الثامن عشر حتى كانت حياة الأوربيين الموسيقية فى عنفوانها.ثم حدث أنبرز الى الصفوف الاولى رجل اعظم من سائر الناس ، عازف أرغن بسيط من كنيسة **توما** بليپسك يدعى **يوهان سبستيان باخ** . وقد وضع هذا الرجل اساس موسيقانا الحديثة كلها بفضل الألحان التى صنعها لجميع الآلات المعروفة ، لافرق فى ذلك بين أغنياته الفكاهية ورقصاته الشعبية وأناشيده وتراتيله الدينية التى بلغت الغاية فى الجلال والروعة . فلما توفى **باخ** خلفه **موتسارت** ، الذى أبدع وشيا موسيقيا من موارد الجمال الصافى يذكرنا بغلالات منمنمة نسجها صاحبها ، فكانت هى الانسجام وهى الشعر . ثم أتى من بعده **لودڤج فون بيتهوفن** الذى كانتحياته أفجع حياة يمكن أن تمر برجل ، فزودنا بالفرقة الموسيقية بمعناها الحديث ، الا انه لم يسمع لحنا واحدا من الحانه العظيمة ، فقد حل بأذنه وقر من جراء البرد الذى أصابه فى سنى بؤسه .

وقد عاش بيتهوفن فى زمن الثورة الفرنسية الكبرى ، وامتلأ قلبه بالامل فى حلول عهد جديد مجيد ، فأهدى احدى سيمفونياته الى نابليون ، ولكن قدر له أن يعيش ليشهد مصرع هذا الأمل ، ومات بيتهوفن سنة ١٨٢٧ ، وكان نابليون قد ولى وانقضى عهد الثورة الفرنسية . الا أن الآلة البخارية كانت قد حلت وملأت العالم بصوت لايشبه فى شيء قط ، الأحلام التى عبرت عنها السيمفونية الثالثة .

والحق ان النظام الجديد الذى خلقه الحديد والفحم والمصانع الكبرى ، لم يعد على الفن والتصوير والنحت أو الموسيقىالابفائدة قليلة. ولم يعدثمةوجود للكنيسة والأمراءوتجارالقرونالوسطىوالقرنينالسابع عشر والثامنعشرالذين كانواحماةالفنورعاته . وقدكان ائمة العالم الصناعى الجديد ، أكثر عملا واقل ثقافةمن أن يحفلوا بالصور والمطبوعات والسوناتا واللطائف المنقوشة من العاج ، بصرف النظر عن الفنانين الذين ابدعوا هذه الآيات التى لم يكن لها نفع مادى للمجتمع الذى عاش فيه هؤلاء الفنانون . واخذ العمال فى المصانع يسمعون جلبة آلاتهمحتى فقدوا كلاحساس بعذب انغام الرباب والناى الذى ابدعه أسلافهم الفلاحون . لقد أصبحت الفنون أولادا غير شرعيين للعصر الصناعى الجديد ، وانفصل الفن عن الحياة تمام الانفصال . وكانت آثار المصورين مهما بلغ شأنها تموت موتا وئيدا فى المتاحف . وغدت الموسيقى وقفا على عدد قليل من أرباب التحف الذين نقلوا هذا الفن من البيوت الى المحافل الموسيقية .

على ان الفنون أخذت تستعيد الآن كيانها بخطى وئيدة وان تك مطردة . وبدأ الناس يشعرون بأن **رامبرانت وبيتهوفن وردان** ، هم بحق انبياء الجنس البشرى وقادته ، وأن العالماذا خلا من الفن والسعادة كان أشبه بدار من دور التمريض خلت من أسباب الضحك والسرور .

التوسع الاستعماري والحرب

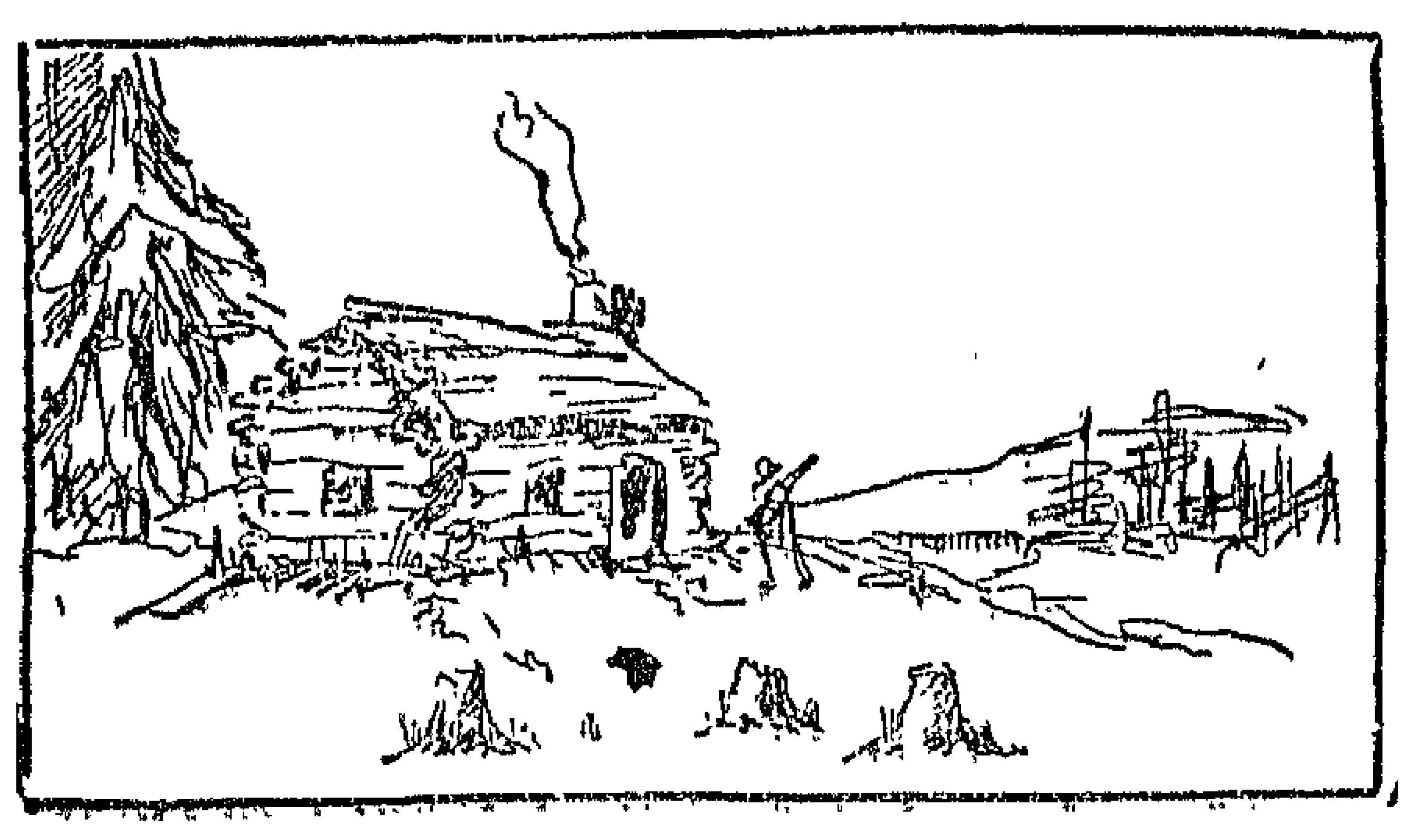
فصل يجب أن يقدم اليك جانبا كبيرا من المعلومات السياسية فى السنوات الخمسين الأخيرة ، على أن هذا الفصل يضم بين دفتيه حقا تغيرات عدة ومبررات قليلة

لو اننى كنت أعلم بالمصاعب الجمة التى تعترض كتابة تاريخ للعالم ، لما اقدمت قط على هذا العمل . ولا شك فى أن أى رجل أوتى من الهمة مايسمح له بنسيان نفسه ست سنوات بين أرفف الكتب الوخمة فى مكتبة من المكتبات ، يستطيع ان يصنف مجلدا ضخما يصف الحوادث فى كل بلد وفى كل قرن . ولكن ليس هذا هو الغرض من هذا الكتاب . فقد أراد الناشرون أن ينشروا تاريخا محكما محبوكا ، أو قل قصة لاتسيرحوادثها سيرا ، وانما تركض ركضا . وانا الآن اذ أوشك أن أختم الكتاب أجد أن فصولا معينة منه تركض ، علىحين تسير فصول أخرى سيرا وئيدا خلال صحراء موحشةمن الأزمان التىجر عليها النسيان أذياله منذ عهد بعيد ، وأن أجزاء قليلة منه لاتتقدم على الاطلاق ، على حين تزخر أخرى بالنشاط والحركة حقا وتجيش بأعاجيب البطولة والفروسية. ولم أكن أحب ان يحصل ذلك ، ومن ثم اقترحت على الناشرين أن نعدم المخطوط بأسره ونعاود كتابته من أوله ، على أنهم لم يرضوا بذلك .

ورأيت أن خير حل يذلل هذه المشاكل التى اعترضتنى بعد رفض هذا الاقتراح ، هو أن أحمل صفحات هذا المؤلف المكتوبة علىالآلة الكاتبة وأعرضها على عدد من أصدقائىالبررة ، لقراءةماكتبت والانتفاع بما يسدونه الى من نصيح . على أن هذه التجربة كانت مخيبة للآمال . لقد كان لكل منهم أهواؤه وهواياته ومفاضلاته . فسألونى جميعا : لماذا فعلت كذا ؟ وأين كيت وكيت ؟ وكيف اجترأت على الاغضاء عن أمتهم الأثيرة لديهم ، واهمال رجل دولتهم المفضل ، بل أحب مجرميهم الى قلوبهم ؟ ورأى بعضهم أن نابليون وجنكيزخان ، كانا حريين بكل فضل ! فقلت لهم مبينا : اننى حاولت بكل ما وسعنى أن أنصف نابليون ، ولكنه كان فى تقديرى اقل شأنا بكثير من غيره من الرجال امثال جورج واشنطون وجوستافوس فاسا ، وأغسطس ، وحمورابى أو لنكولن ونفر آخر سواهم ، ولم أجد بدا من كتابة فقرات قليلة عن كل واحد منهم لا لشىء ، الا أن المقام لم يكن يسمح باطالة الحديث عنهم

أما بخصوص جنكيزخان ، فانى لا أعترف له الا بالقدرة الفائقة على قتل الناس جملة ، ومن ثم صحت نيتى على الا أزيد فى شهرته أكثر مما أطيق .

ووجه الي الناقد الثانى الحديث قائلا « هذا حسن جدا بقدر ما يبلغ اليه من مدى ، ولكن ماشأن المتطهرين ؟ لقد احتفلت أمريكا أخيرا بانقضاءثلثمائة سنة على نزولهم فى أرضها . وكان يجب أن يفرد لهم



الرائد

حيز أكبر فى الكتاب .. فكان جوابى عليه أن المتطهرين كانوا خليقين بأن يخصص لهم نصف فصل من الفصول الاثنى عشر الأولى ، لو أننى كنت أكتب تاريخا لأمريكا ، على أن كتابى هذا تاريخ للانسانية ، وأن الحادث الذى وقع عند صخرة پليموث لم يصبح مسألة من المسائل الدولية البعيدة الأثر الا بعد ذلك بعدة قرون ، وأن الذى أنشأ الولايات المتحدة ثلاث عشرة مستعمرة لا مستعمرة واحدة . وان معظم زعمائها البارزين فى العشرين سنة الأولى من تاريخها ينتمون الى فرجينياوپنسلفانيا وجزيرة نفيس أكثر من انتمائهم الى ماساشوستس ، وأن المتطهرين يجب من ثم أن يقنعوا بصفحة من الكتاب وخريطة واحدة خاصة بهم .

ثم جاء دور المتخصص فى دراسات ماقبل التاريخ فسألنى بحق جبابرة العظايا العظيمة : لم لم أفرد حيزا أكبر لذلك الجنس العجيب ، جنس انسان كرومانيون الذى بلغ مرتبة سامية من الحضارة منذ عشرة آلاف سنة ؟ وهذا صحيح ، ولكن لم لم أفعل

هذا ؟ السبب بسيط . هو أننى لا أعنى بتوفية الكلام عن هذه الاجناس الاولى عناية رجل من رجالنا البارزين فى علم الانسان . فقد خلق روسو وفلاسفة القرن الثامن عشر « الهمجى النبيل » الذى افترضوا انه عاش فى سعادة كاملة فى أول الأزمان . الا أن علماءنا المحدثين أنكروا « الهمجى النبيل » الذى احبه أجدادنا أخلص الحب واستعاضوا عنه ب « الهمجى الجليل »، همجى الوديان الفرنسية الذى قضى منذ خمسة وثلاثين الف سنة على السيطرة التى فرضها على العالم أولئك المتوحشون ذوو الجباه الضيقة والحياة المنحطة : قوم نيندرتال وجيرانهم الالمان الآخرون . واطلعونا على الفيلة التى صورها انسان كرومانيون ، وعلى التماثيل التى نحتها ، وكللوا هامته بكثير من آيات المجد والفخار .

ولست أعنى بذلك انهم على خطأ . وانما الذى اعتقده هو ان ماعرفناه حتى الآن عن هذه الحقبة بأسرها أقل من انيبيح لنا ان نستعيد صورة المجتمع الاول فى غربى اوربا على نحو دقيق مهما بلغ حظهمن التواضع . وأنا أوثر أن أغضى عن أشياء محققة أكثر من ايثارى الانزلاق الى ذكر أشياء لم تتحقق .

ثم ان ثمة نقادا آخرين اتهمونى بالتحيز الصريح . فلماذا اهملتبلادا كايرلندا وبلغاريا وسيام ، واقحمت بلادا أخرى مثل هولندا وايسلندا وسويسرا ؟ فكان جوابى أننى لم أقحم أية بلاد فى كتابى ، ذلك ان الظروف القاهرة هى التى اقحمتها ، وغاية الامر انه لم يكن فى مقدورى أن استبعدمثل هذه البلاد . وانى لأرجو أن تسمحوا لى بأنأذكر تبيانا لمقصودى أساس تقديرى للموضوعات التى رايتانها جديرة بأن يتناولها هذا التاريخ حقا .

لم اجر فى هذا الكتاب على قاعدة واحدة . فقد كنت أتساءل : هل استحدث الشخص أو البلاد التى انا بصددهافكرة جديدة، أو اتى بعمل مبتكر لولاهلتغير تاريخ الجنس البشرى بأسره ؟. فلم تكن المسألة اذن مسألة تقدير شخصى ، وانما كانت مسألة حكم رصين يكاد يقوم على المقاييس الحسابية . فما من قوم كان لهم فى التاريخ صفحة أزهى من صفحة المغول ، كما أن التاريخ لم يعرف قوما أقل منهم فضلا على سائر البشر ، سواء فى فعالهم أو فى ميدان التقدم العقلى .

وسيرة **تجلات بلصر** الاشورى حافلة بالاحداث المثيرة ، ولكن وجودهاوعدم وجوده يستويان بالنسبة للانسانية . وكذلك لاتعود أهمية تاريخ الجمهورية الهولندية الى ماحدث فى وقت من الاوقات من خروج بحارة **ده رويتر** للصيد فى مياه نهر التيمز ، وانما السبب فى اهميته هو ان هذا الجسر الطينى الصغير الذى يساير شواطىء بحر الشمال قد فتحذراعيهلكل جنس من عجائب الناس الذين كانوا يعتنقون الافكار العجيبة فى شتى الموضوعات الشاذة كل الشذوذ عما الف الناس .

والحق كل الحق ان اثينا وفلورنسا فى أوج مجدهما كان يسكنهما عدد من الناس لايتجاوزون عشر سكان مدينة كانساس . على أن تاريخنا كان خليقا أن يختلف عما صار اليه كل الاختلاف لو قدر لهاتين المدينتين الصغيرتين من مدن حوض البحر المتوسط الا تبرزا الى عالم الوجود . ولا يكاد يصدق هذا على القصبة النشيطة الواقعة على نهر مسورى ، مع تقديمالاعتذاراتالواجبة الى اهلمقاطعة وياندوت الصالحين .

ولتسمحوا لى بأن أسوق لكمحقيقةواحدة أخرى ، مادمت قد رميت بأننى انظر للامور نظرة شخصية ضيقة .

فنحن اذا قصدنا زيارة طبيب ، فاننا نتحقق قبل ان نذهب اليه : هل هو جراح أو مشخص للامراض أو معالج الداء بالداء أو مطبب للروح . ذلك اننا نرغب فى معرفة المنحى الذى سينحوهفىعلاج مانشكو منه . ويجب أن نكون حريصين فى اختيار مؤرخينا حرصنا فى اختيار اطبائنا . وانا لنذهب فى التفكير الى القول « حسنا ، التاريخ هو التاريخ » وليكن هذا هو شأنه . على انمؤلف هذا الكتابالذىتربى فى بيت برسبتيرى متشدد فى ناحية من اقاصىاسكتلنده ، سينظر الىكل مسألة من مسائل العلاقات الانسانية نظرة تخالف نظرة جاره الذىكتبعليه ، وهو بعد طفل ، انيستمع الى تلك العظات الاخاذة ، عظات **روبرت انجرسول** عدو جميع الشياطين الذين يتكشفون للانسان . وقد ينسى كل من هذين الرجلينبمرور الزمن تعليمهالاول ولا يعاود قط زيارة الكنيسة او قاعة المحاضرات ... ولكن اثر هذه السنين المكين يظل راسخا فى نفسه لايستطيع منه فكاكا فى كل مايكتب او يقول او يفعل .

وقد ذكرت لكم فى مقدمة هذا الكتاب انه لا ينبغى لى أن أكون من الهداة المعصومين . وانى لأكرر هذا التحرز ونحن موشكون على بلوغ خاتمته . ولدت وتعلمت فى بيئة سادتها تلك السماحة العتيقة التى اعقبت كشوف دارون وغيره من رواد القرن التاسع عشر . وقد اتفق لى وانا طفل أن قضيت معظم

الساعات التى كنت أتريض فيها على قدمى مع عم كان من كبار الجامعين لآثار **مونتانى** صاحب المقالات الفرنسى العظيم الذى عاش فى القرن السادس عشر . وكنت أقع دائما على آثار ارازمس بحكم ولادتى فى **روتردام** وتعلمى فى مدينة **جودا** . ولأمر ما لا أعرفه تملك هذا الداعية الكبير من دعاة التسامح زمام نفسى التى لم تكن تعرف التسامح . ثم كشفت من بعد **اناتول فرانس** . وكان أول عهدى باللغة الانكليزية ان وقعت صدفة على رواية **ثاكرى** « هنرى ازموند » ، وهى رواية كان أثرها فى نفسى أكبر من اثر أى كتاب انكليزى آخر .

ولو اننى ولدت فى مدينة أمريكية من مدن الريف ، فربما كنت أميل بعض الميل الى التراتيل التى سمعتها فى طفولتى . على ان أول ما أذكره من الموسيقى يعود الى امسية من الأمسيات أخذتنى فيها أمى لسماع مقطوعة لعلم من اعلام الموسيقى هو **باخ** . وقد اثر فى نفسى هذا الكمال المحكم الذى سما اليه ذلك الامام العظيم من ائمة البروتستانت الى حد اننى عدت لا اسمع التراتيل المألوفة التى تلقى فى صلواتنا الا وينتابنى شعور من الكرب ممض والم واضح صريح .

ثم اننى لو كنت ولدت فى ايطاليا ، واستدفأت بالشمس الساطعة فى وادى ارنو السعيد .. لكنت خليقا بأن أحب الصور المشرقة الزاهية الالوان التى لا تحرك نفسى الآن ، لأن أول عهدى بالفن كان فى بلد تسطع فيها الشمس النادرة الطلوع فى قسوة تكاد تبلغ حد الوحشية على أرض بللها المطر ، فتحيل كل شىء ظلاما ونورا متباينين أشد التباين .

وانا اذكر هذه الحقائق القليلة عامدا متعمدا حتى ايسر لك معرفة أهواء الرجل الذى كتب هذا التاريخ وتبين منحى تفكيره .

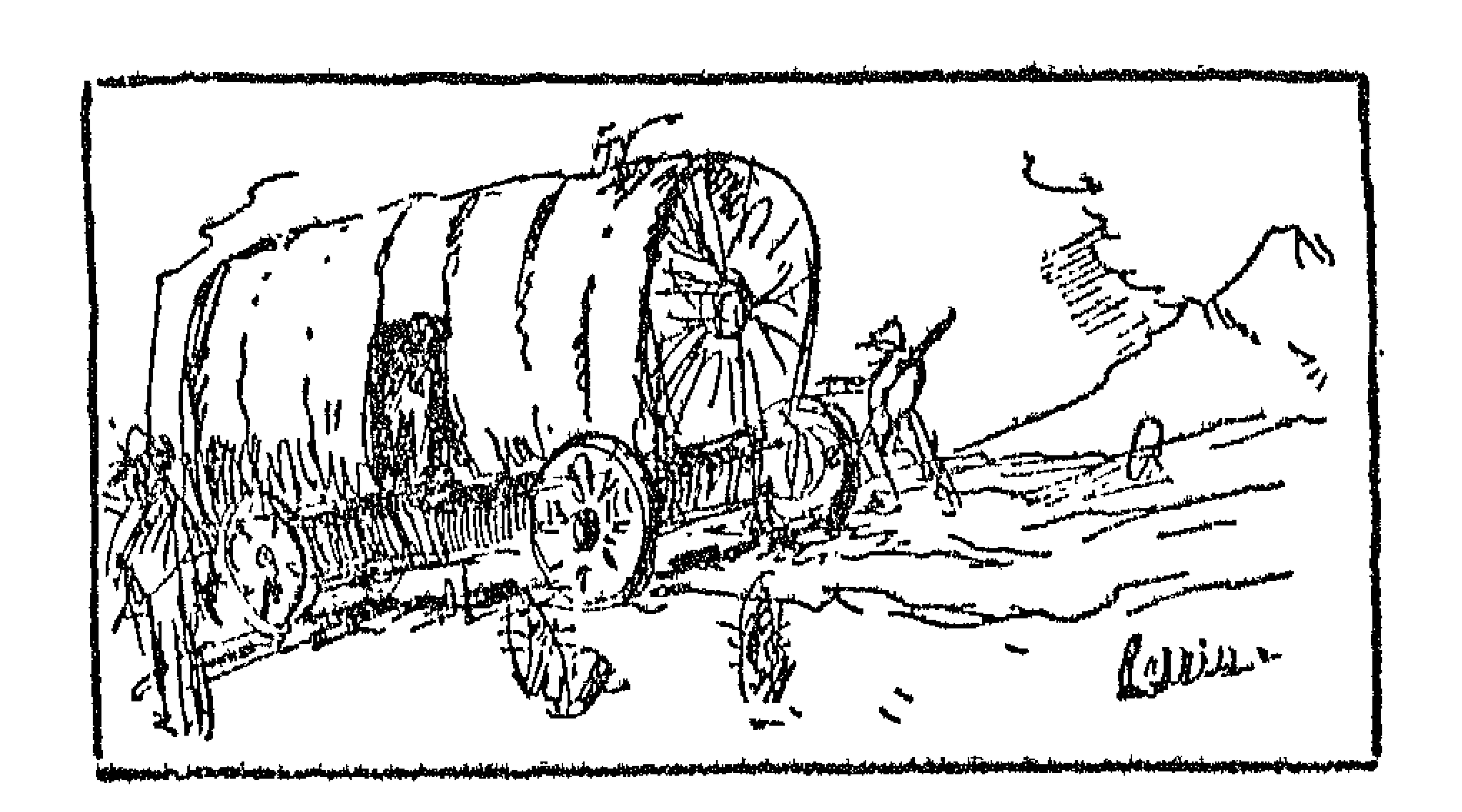
ولنعد الآن الى تاريخ الخمسين سنة الاخيرة بعد هذا الاستطراد الوجيز الذى لم يكن منه بد .

لقد حدثت عدة أمور خلال هذه الفترة ، على أن قليلا جدا مما وقع هو الذى كان يبدو آنئذ عظيم الخطر . فقد انقضى العهد الذى كانت الدول الكبرى فيه مجرد وكالات سياسية ، واصبح معظمها هيئات كبرى لها مشروعاتها التجارية . ذلك أن هذه الدول مدت السكك الحديدية ، وأنشأت خطوطا للبواخر تسير الى أنحاء العالم كافة ، واعانت هذه الخطوط بأموالها ، ووصلت أملاكها بشبكة من الخطوط البرقية ، وأخذت تزيد باطراد من أملاكها فى القارات الأخرى . وشرعت كل دولة من الدول الكبرى المتنافسة تنادى بأحقيتها فى امتلاك كل أرض تتيسر لها فى افريقيا وآسيا . وغدت فرنسا أمة استعمارية لها مصالح فى الجزائر ومدغشقر وآنام وتونكين فى شرقى آسيا . ونادت المانيا باستحقاقها أجزاء من جنوبى افريقيا وشرقيها ، وأنشأت مستعمرات لها فى الكمرون على الساحل الغربى لأفريقيا وفى غينيا الجديدة وفى كثير من جزائر المحيط الهادى . ورحبت بالفرصة التى أتاحها لها مقتل بعض المبشرين ، واتخذتها ذريعة للاستيلاء على ميناء كياوتشاو على البحر الأصفر فى الصين . وأرادت ايطاليا أن تبلو حظها فى الحبشة فالحق بها جنود النجاشى هزيمة منكرة ، وتعزت عن هذه الهزيمة باحتلال أملاك الترك فى طرابلس بشمالى افريقيا . أما روسيا التى كانت قد احتلت أراضى سيبيريا بأسرها ، فقد انتزعت ميناء پورت آرثر من الصين . واحتلت اليابان جزيرة فرموزا بعد أن هزمت الصين فى الحرب التى نشبت بينهما عام ١٨٩٥ ، وبدأت عام ١٩٠٥ تنادى بحقها فى امتلاك أمبراطورية كوريا بأسرها .

أما انكلترا — أكبر أمبراطورية استعمارية عرفها التاريخ — فقد أخذت على عاتقها « حماية ! » مصر عام ١٨٨٣ . وخاضت انكلترا فى الثلاثين سنة التى تلت ذلك عددا من الحروب الاستعمارية فى شتى أنحاء العالم ، وتمكنت عام ١٩٠٢ من غزو جمهوريتى البوير المستقلتين : الترانسفال وولاية **أورانج** الحرة بعد قتال مرير دام ثلاث سنوات . وقد شجعت فى الوقت نفسه سسل رودز على اقامة دعائم دولة افريقية عظمى امتدت من رأس الرجاء الصالح الى قرابة مصب النيل ، والتقطت بعزيمة صادقة ما تركته الدول الأوربية الأخرى من جزائر وأقاليم .

واستغل ليوبولد ملك بلجيكا الأريب كشوف هنرى ستانلى ، فأقام دولة الكنغو الحرة سنة ١٨٨٥ . وكانت هذه الامبراطورية الاستوائية الهائلة فى أول أمرها « ملكية مطلقة » ، على أنها ظلت تحكم عدة سنوات حكما سيئا مخزيا . فما كان من البلجيكيين الا أن ضموها الى أملاكهم ، وجعلوها مستعمرة لهم سنة ١٩٠٨ ، وقضوا على الفظائع التى اقترفها عاهلها الغشوم الذى كان لا يعبأ قط بمصير رعاياه مادام يحصل على نصيبه من العاج والمطاط .

أما الولايات المتحدة فقد كانت أراضيها أكثر من ان تدعوها الى طلب المزيد . على أن الحكم الرهيب



غزو الغرب

الذى كانت كوبا ـ آخر أملاك الاسبان فى نصف الكرة الغربى ـ ترزح تحت أعبائه ، دفع حكومة واشنطن الى العمل بالفعل . فنشبت بينها وبين اسبانيا حرب قصيرة الأمد خالية من الاحداث انتهت بطرد الاسبان من كوبا وبورتوريكو والفلبين . وغدت بورتوريكو والفلبين مستعمرتين من مستعمرات الولايات المتحدة .

وقد كان تطور العالم الاقتصادى طبيعيا للغاية . ذلك أن عدد المصانع المتزايد فى انكلترا وفرنسا والمانيا كان فى حاجة مطردة الى المواد الخام ، كما كان عدد العمال الأوربيين المتزايد فى حاجة دائما الى المزيد من الطعام . وتعالت صيحات الناس فى كل مكان مطالبين بالمزيد وبأسواق أغنى ومناجم فحم وحديد ومزارع مطاط وآبار بترول أيسر منالا ، وموارد حنطة وغلال أوفر وأكبر .

أما الحوادث السياسية البحتة التى كانت تمر بالقارة الاوربية ، فقد انعدم شأنها فى نظر أولئك الذين كانوا يرسمون الخطط لاقامة خطوط للبواخر على ڤيكتوريا نيانزا ، أو مد خطوط حديدية تخترق قلب شانتونج .

لقد كان هؤلاء يعلمون أن ثمة مشاكل أوربية كثيرة تقتضى الحل ، ولكنهم لم يعبأوا بذلك ، وتركوا لأحفادهم بتهاونهم وقلة احتفالهم بالأمور ، ميراثا رهيبا من الحقد والبؤس . فقد ظل الركن الجنوبى الشرقى لأوربا قرونا لاتحصى ميدانا للثورة وسفك الدماء . واخذ أهل الصرب وبلغاريا والجبل الأسود فى العقد السابع من القرن الماضى يحاولون من جديد الحصول على حريتهم ، كما شرع الترك بمعاونة كثير من الدول الأوربية يحاولون أن يمنعوا عنهم هذه الحرية .

ومرت ببلغاريا فى عام ١٨٧٦ فترة سادتها المذابح الوحشية بخاصة ، فعيل صبر الشعب الروسى ، واضطرت حكومته الى التدخل ، فكان شأنها شأن الرئيس **ماكنلى** سواء بسواء ، اذ اضطر هو أيضا الى انفاذ حملة الى كوبا لايقاف فرق الرماة التابعة للجنرال **ويلر** عند حدها فى هافانا . وفى ابريل عام ١٨٧٧ عبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب ، واقتحمت ممر شيپكا ، واستولت على بلونه ، وسارت جنوبا حتى بلغت أبواب الآستانة . وقد استنكر فريق كبير من الانكليز ما أقدمت عليه حكومتهم عندما انحازت الى السلطان .. الا أن **دزرائيلى** عزم على التدخل ، وكان قد فرغ وشيكا من تنصيب الملكة ڤكتوريا امبراطورة على الهند ، كما كان يحب الترك لما كان فيهم من بهاء وحمية ، ويكره الروس لأنهم كانوا يبطشون باليهود الذين يعيشون فى بلادهم . وحمل الروس على عقد صلح **سان ستفانو** سنة ١٨٧٨ ، وترك حل مشكلة البلقان لمؤتمر تقرر عقده فى برلين فى يونية أو يولية من السنة نفسها .

وقد سيطرت شخصية دزرائيلى على هذا المؤتمر سيطرة تامة ، حتى ان **بسمارك** خشى بأس ذلك العجوز الأريب ذى الشعر الجعد المضمخ جيدا بالزيت والغطرسة المتعالية التى كانت تخفف منها فكاهته اللاذعة وقدرته العجيبة على الملق والمداهنة . ولم تغب عن عين رئيس وزراء بريطانيا رعاية مصير أصدقائه الترك فى مؤتمر برلين ، واعترف بالجبل الاسود والصرب ورومانيا ممالك مستقلة . أما امارة بلغاريا فقد جعلت شبه مستقلة تحت حكم الامبراطور اسكندر صاحب باتنبرج ابن أخى القيصر اسكندر الثانى .

على أنه لم تتح لدولة من هذه الدول أن تنمى سلطانها أو مواردها ، مع أنها كانت قمينة أن تبلغ ذلك لو أن انكلترا كانت أقل حرصا على مصير السلطان الذى كانت أملاكه لازمة لأمن الامبراطورية الانكليزية بوصفها حصنا يقيها من شر عدوان آخر يأتى من ناحية روسيا . وزاد مؤتمر برلين الطين بلة ، فسمح للنمسا بانتزاع ولايتى البوسنة والهرسك من تركيا ، وتولى شئونهما بوصفهما جزءا من أملاك هابسبورج . صحيح أن النمسا قد أحسنت فى ذلك فحكمت هاتين الولايتين المهملتين على خير ما تحكم انكلترا مستعمراتها ، وفى هذا القول الكفاية . الا أنه كان يسكنهما كثير من الصربيين . وكان هؤلاء الصربيون فيما مضى من الازمان جزءا من الامبراطورية الصربية العظيمة ، امبراطورية **ستيفان دوشان** الذى استطاع فى مستهل القرن الرابع عشر أن يحمى غربى أوربا من غزوات الترك ، والذى كانت حاضرته **أسكوب** مركزا من مراكز

الحضارة قبل أن يكشف **كولومبس** عن أراضى الغرب الجديدة بمائة وخمسين عاما . وقد تذكر الصربيون مجدهم القديم . . وما كان أحراهم أن يفعلوا ! واستنكروا وجود النمسويين فى ولايتين كان الصربيون يشعرون بأن التقاليد جميعا تجعلهما من نصيبهم .

وقد كانت **سيراجيفو** عاصمة البوسنة هى التى شهدت فى ٢٨ يونية سنة ١٩١٤ مصرع الغراندوق **فرديناند** ولى عهد النمسا . وكان قاتله طالبا صربيا دفعته الى ذلك دوافع وطنية خالصة . ولكن جريرة هذا الحادث الرهيب الذى كان السبب المباشر لاندلاع نيران الحرب العظمى (**الأولى**) ، وأن لم يكن السبب الوحيد ، لاتقع على كاهل ذلك الشاب الصربى المتهوس أو على ضحيته النمسوى .

وانما يجب علينا أن نرجع بهذا السبب الى أيام مؤتمر برلين المشهور حينما كانت أوربا مستغرقة فى اقامة حضارة مادية استغراقا صرفها عن العناية بأطماح وآمال شعب منسى فى ركن موحش من شبه جزيرة البلقان القديمة .

عالم جديد

الحرب العظمى (الأولى) التى كانت فى حقيقة أمرها نضالا فى سبيل اقامة عالم جديد أفضل من العالم الذى كنا نعيش فيه

كان المركيز **كوندورسيه** من أنبل شخصيات ذلك الفريق الصغير من المتحمسين الصادقين الذين كانوا سببا فى اشعال نار الثورة الفرنسية الكبرى . لقد وهب هذا الرجل حياته للفقراء والبائسين ، وكان فردا من الأفراد الذين عاونوا **دالمبير وديدرو** عندما صنفا موسوعتهما المشهورة ، كما كان فى السنوات الاولى للثورة زعيم فريق المعتدلين من رجال المؤتمر الوطنى .

وكان تسامحه ورحمته وعظيم ادراكه للأمور قد أثارت الريب حوله عندما أتاحت خيانة الملك وعصبته لغلاة المتطرفين فرصة الاستيلاء على الحكم وقتل خصومهم ، فندد به « خارجا على القانون » ، أو طريد القانون ، وأصبح من ثم تحت رحمة كل وطنى غيور . وأبدى أصدقاؤه استعدادهم لاخفائه على عهدتهم ، ولكن كوندورسيه أبى عليهم هذه التضحية ، وعمد الى الفرار ، وحاول أن يبلغ قصره لعله يأمن فيه على نفسه ، وقضى ثلاث ليال فى العراء ثم دخل خانا ممزق الثياب ، دامى الاوصال ، وطلب طعاما . وفتشه أولئك الريفيون المتشككون فوجدوا فى جيبه نسخة من ديوان الشاعر اللاتينى هوراس . فدل ذلك على أن سجينهم رجل طيب النشأة لا شأن له بطرق الريف فى زمن كان ينظر فيه الى كل متعلم نظرة العدو لحكومة الثورة .

وحملوا كوندورسيه وقيدوه وكمموه وألقوا به فى سجن القرية ، حتى اذا أقبل الشرطة فى الصباح ليحملوه الى باريس وقطع راسه . . . الفوه ، ويا للعجب ، ميتا !

وقد كان من حق هذا الرجل الذى بذل نفسه جميعا بلا جزاء ولا شكور ، أن ييأس من الجنس البشرى . على أنه كتب كلمات قليلة يتبدى صدقها اليوم كما تبدى منذ مائة وثلاثين سنة . وهأنذا أكرر هذه الكلمات ليفيد منها القراء :

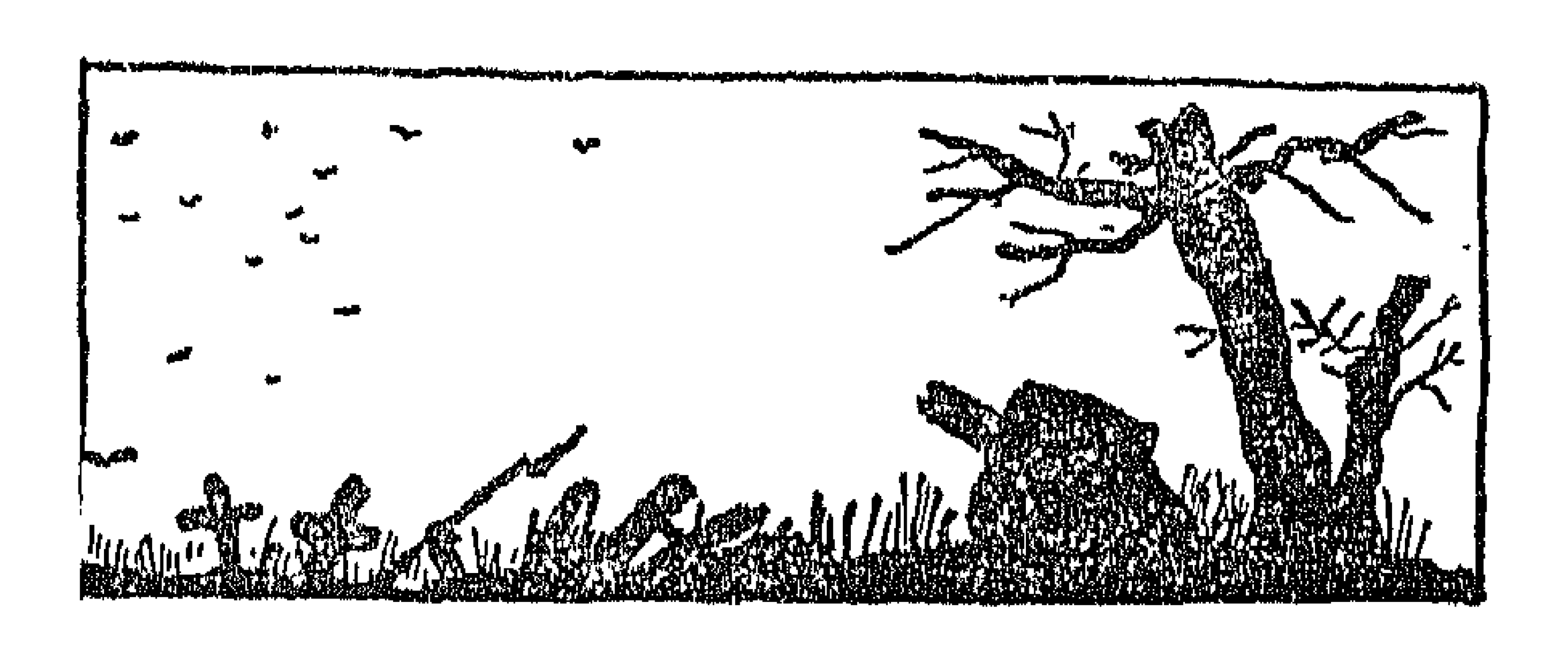
« لم تضع الطبيعة حدا لآمالنا . وان صورة الجنس البشرى الذى تحرر الآن من أغلاله ، وأخذ يسير فى طريق الحق والفضيلة والسعادة بخطى ثابتة ... لتمد الفيلسوف بمشهد يتعزى به عن الأخطاء والآثام والمظالم التى مازالت تدنس هذه الأرض ويسود منها أديمها » .

لقد مر العالم وشيكا بنوبة من الألم اذا قيست به الثورة الفرنسية كانت أشبه بالحادث العابر . وبلغ من هول الصدمة أنها أخمدت آخر بصيص من الأمل فى صدور ملايين من الناس . ولقد كان هؤلاء يتغنون بنشيد التقدم ، وأعقبت صلواتهم فى سبيل السلام أربع سنوات من المذابح ، ومن ثم أخذوا يتساءلون « أيحق لنا أن نعمل وأن نستعبد لخير مخلوقات لم تتجاوز بعد طور انسان الكهوف الأول ؟ » .

وليس ثمة الا رد واحد على هذا السؤال .

وهذا الرد هو « أن نعم » !

صحيح أن الحرب العظمى كانت كارثة فظيعة، ولكنها لاتعنى أن الأمور قد بلغت نهايتها ، بل هى على خلاف ذلك قد آذنت بحلول عهد جديد .



الحرب

ومن اليسير الكتابة عن تاريخ اليونان أو الرومان أو القرون الوسطى ، ذلك أن الممثلين الذين قاموا بأدوارهم على هذا المسرح الذى جر عليه النسيان أذياله منذ عهد بعيد ، قد عدا عليهم الموت جميعا . ونحن نستطيع أن ننقدهم فى هدوء ومن غير انفعال . فقد تبدد شمل النظارة الذين صفقوا استحسانا لما فعلوا ، وليس من الممكن أن تؤذى ملاحظاتنا شعورهم .

أما الحوادث المعاصرة فمن أشق الأمور أن تعرضها عرضا صادقا ، ذلك أن المشاكل التى تشغل عقول الناس الذين نجتاز وإياهم طريق الحياة : هى مشاكلنا نحن ، وهى تسرنا أبلغ السرور أو تؤلمنا أشد الألم ، اذا وصفت وصفا يتحرى الانصاف الواجب عند كتابة التاريخ ، ولا يتعمد قرع طبول الدعاية والاعلان . ومهما يكن من شىء فسأحاول أن أذكر لكم السبب الذى يجعلنى اتفق فى الرأى مع كوندورسيه المسكين فى تعبيره عن عقيدته الراسخة فى قيام مستقبل أسعد واهنأ .

وقد سبق أن حذرتكم كثيرا من تلك الفكرة المخطئة ، التى تولدت من استعمال ماتعارفنا على تسميته بالعهود التاريخية التى تقسم قصة الانسان الى اربعة أطوار : العالم القديم ، والعصور الوسطى ، وعصر النهضة ، وعصر الاصلاح الدينى ، والعصر الحديث ، وآخر هذه العصور هو اخطرها جميعا . فالصفة « حديث » تدل فيما تدل على أننا — أهل القرن العشرين — قد بلغنا غاية مابذله الانسان من جهود . ومنذ خمسين سنة اعتقد الأحرار فى انكلترا بزعامة غلادستون ، أن مشكلة قيام حكومة نيابية ديمقراطية بحق ... قد حلت الى الأبد بفضل مشروع قانون الاصلاح العظيم الثانى الذى جعل نصيب العمال فى الحكم مساويا لأرباب العمل الذين يستخدمونهم . ولما وصف دزرائيلى وأصدقاؤه المحافظون هذا المشروع بأنه « خطوة فى الظلام » رد عليهم الأحرار « أن لا » . ذلك انهم كانوا مؤمنين بقضيتهم ، واثقين بأن جميع طبقات المجتمع ستتعاون من ثم على انجاح حكومة وطنهم المشترك . وقد حدثت منذ ذلك عدة أمور ، وبدأ الأحرار القلائل الذين مازالوا على قيد الحياة يدركون أنهم كانوا على خطأ . وليس ثمة جواب شاف لأية مشكلة تاريخية .

ويجب على كل جيل أن يجاهد حق الجهاد من جديد ، أو يهلك كما هلكت الحيوانات البليدة التى كانت تعيش فى عالم ماقبل التاريخ .

وما ان تعى هذه الحقيقة الكبرى حتى تكتسب نظرة جديدة الى الحياة أوسع وأفسح . وعليك من بعد أن تخطو خطوة أخرى الى الامام ، وتحاول أن تتخيل نفسك فى موضع أحفاد أحفادك الذين سيحلون محلك فى سنة ١٠٠٠٠ م . وهؤلاء سيدرسون أيضا التاريخ . فبأى نظرة سينظرون الى تلك الحقبة القصيرة ، حقبة أربعة من آلاف السنين التى احتفظنا خلالها بسجلات عن فعالنا وأفكارنا ؟ سيحسب هؤلاء أن نابليون كان معاصرا لتجلاث بلصر الفاتح الأشورى . وربما خلطوا بينه وبين جنكيزخان أو الاسكندر المقدونى . وستتجلى لهم الحرب الكبرى التى انتهت وشيكا فى ضوء ذلك الصراع التجارى الطويل الذى قضى فى أمر السيادة على البحر المتوسط حينما قاتلت روما وقرطاجنة مائة وثمانيا وعشرين سنة فى سبيل السيطرة على هذا البحر . وستتبدى لهم اضطرابات البلقان فى القرن التاسع عشر — ونعنى بذلك نضال الصرب واليونان وبلغاريا والجبل الاسود فى سبيل حريتها — حلقة من حلقات القلاقل التى سببتها الهجرات الكبرى . وسينظرون الى صور كاتدرائية ريمس التى اتت عليها مدافع الألمان بالأمس ، نظرتنا الى صورة من صور الاكروبوليس التى تلفت منذ مائتين وخمسين سنة مضت خلال الحرب التى نشبت بين الترك والبنادقة . وسيعدون الخوف من الموت الذى مازال شائعا بين عدد كبير من الناس خرافة من خرافات الأطفال لعلها كانت أمرا مألوفا بالنسبة لقوم ظلوا يحرقون الساحرات حتى

سنة ١٦٩٢ . بل ان مستشفياتنا ومعاملنا وقاعات الجراحة التى نعتز بها غاية الاعتزاز ، سوف تبدو فى نظرهم صورة من صور معامل كيمائيى وجراحى العصور الوسطى أصابها تحسن ضئيل .

والسبب فى ذلك بسيط . فنحن معشر الرجال والنساء المحدثين .. لسنا «محدثين» على الاطلاق . وانما نحن على العكس من ذلك ننتسب الى الأجيال الاخيرة من سكان الكهوف . ذلك أن أساس العهد الجديد لم يوضع الا بالأمس . وأتيح للجنس البشرى الفرصة الاولى ليغدو جنسا متمدينا بحق عندما تذرع بالشجاعة ، واخذ يشك فى كل الأمور ، وجعل « المعرفة والفهم » الاساس الذى يبنى عليه مجتمعا من البشر عاقلا فطنا . لقد كانت الحرب الكبرى « الألم المستفحل » الذى أصاب هذا العالم الجديد .



انتشار فكرة الامبراطورية

وسوف يظل الناس أمدا طويلا يكتبون الكتب الطوال لاثبات أن زيدا أو عمرا أو بكرا هم الذين تسببوا فى قيام هذه الحرب. وسينشر الاشتراكيون المجلدات يتهمون فيها الرأسماليين بأشعال نارها سعيا وراء الربح . ويرد الرأسماليون بأن خسارتهم خلال هذه الحرب كانت فادحة تربى على ماجنوه من مكاسب ، وأن أولادهم كانوا من السابقين اليها ... فقاتلوا وقتلوا ، ثم هم يبينون كيف أن رجال المال فى كل بلد قد حاولوا ، ماوسعهم ، الحيلولة دون قيام العداوات . وسوف يقلب المؤرخون الفرنسيون صفحات الجرائم الألمانية منذ عهد شرلمان الى عهد ولهلم سليل بيت هوهنزلرن. ويرد عليهم المؤرخون الالمان التحية ويقلبون صفحات الفظائع الفرنسية منذ أيام شرلمان الى أيام الرئيس بوانكاريه . ثم يقرر كل منهم مايرتاح اليه من أن الفريق الآخر هو السبب فى اشعال نار هذه الحرب . أما رجال الحكم ، الأموات منهم والاحياء ، فسوف ينهضون الى آلاتهم الكاتبة ، ويبينون للناس كيف حاولوا أن يتجنبوا الحرب وكيف دفعهم خصومهم الأشرار الىخوض غمارها .

اما المؤرخ الذى يجىء بعد ذلكبمائة عام فسوف لايحفل بهذه المعاذير والتبريرات ، وسوف يدرك كنه الأسباب الخفية ، ويعلم أن طموح الأشخاص وخبثهم وجشعهم ... لم يكن لها الا شأن ضئيل فى اشتعال نار الحرب آخر الأمر ، وأن الخطأ الأصلى الذى تسبب عنه كل هذا البؤس والشقاء ، قد ارتكب حينما بدأ علماؤنا عالما جديدا قوامهالصلب والحديد والكيمياء والكهرباء ، ونسوا أن العقل البشرى ابطأ من السلحفاة التى ضرب بها المثل ، وابلد منالكسلان ، ذلكم الحيوان المعروف المشهور ، فهو يتخلف مابين مائة عام وثلثمائة عام عن ركب ذلك النفر من الرواد الشجعان .

فالرجل من الزولو يظل هو هو ، وأن لبس الملابس الرسمية . والكلب الذى درب على ركوب العجلات وتدخين الغليون ، لايخرج عن طبيعة الكلاب. والرجل الذى طبع عقله بطابع تجار القرن السادس عشر ، يظل محتفظا بعقليته هذه وان مارس قيادة أحدث طراز من سيارات رولز رويس .

واذا عجزت عن فهم ذلك لأول مرة فعاود قراءته مرة أخرى ، ولسوف تتبين معناه فى لحظة ، ويفسر لك كثيرا من الامور التى وقعت منذ سنة ١٩١٤ .

ويمكننى أن أسوق لك مثلا آخر اكثر شيوعا حتى تتبين ما أرمى اليه . يحدث كثيرا فى الدور التى تعرض فيها الصور المتحركة أن تظهر على الشاشة نكات واشارات مضحكة . فلترقب النظارة فى الفرصة الثانية التى تتاح لك ، تجد أن عددا قليلا منهم يكاد يلتهم الكلمات التهاما ، فلا تستغرق منهم قراءة السطور الا ثانية واحدة* . على أن ثمة آخرين تقتضيهم قراءتها مابين عشرين وثلاثين ثانية . ثم يأتى بعد هؤلاء رجال ونساء لا يقرأون الا مايستطيعون ، ولا يدركون النكتة الا حينما يكون الأذكياء من النظارة قد أخذوا يكشفون سر اللقطة الثانية . وحياة الانسان لا تختلف عن ذلك كما سأبين لك .

لقد ذكرت لك فى فصل من الفصول السابقة كيف قدر أن تعيش فكرة الامبراطورية الرومانية الف سنة بعد وفاة آخر أباطرة الرومان ، وسببت قيام عدد كبير من الامبراطوريات على غرارها ، وأتاحت لأساقفة روما السيادة العالمية ، ودفعت نفرا من زعماء البرابرةالسالين الوادعينالى اقتراف الجرائم وشن حروب متصلة لانهاية لها ، لأنهم كانو، دائما أبدا مفتونين بسحر هذه الكلمة « روما » . وكل هؤلاء القوم والبابوات والأباطرة وسواد الجند لم يكونوا يختلفون كثيرا عنى وعنك . الا انهم عاشوا فى عالم سيطرت عليه السنن الرومانية ، وكانت هذه السنن شيئا حيا ، شيئا لم تغب ذكراه عن الوالد والابن والحفيد . ومن ثم فقد ناضلوا وضحوا بأنفسهم فى سبيل قضية قد لاتجد اليوم الا عددا من الأنصار لايتجاوزون أصابع اليد .

وقد ذكرت لكم فى فصل سابق أيضا كيف قامت الحروب الدينية الكبرى بعد نيف وقرن من وقوع أول عمل سافر من أعمال الاصلاح الدينى . وأنت اذا وازنت بين الفصل الخاص بحرب الثلاثين سنة ، والفصل الخاص بالمخترعات — لرايت أن هذه المذابح المشينة حدثت حينما كانت أولى الآلات البخارية الساذجة تنفخ بالفعل فى معامل طائفة من علماء الفرنسيين والالمان والانكليز . ولكن العالم عامة لم يحفل اى احتفال بهذه البدع ، واستمر فى جدل دينى عنيف خليقبأن يبعث الآنالملالة الى النفوس ، ولكنه لايثير الغضب .

وهكذا استمر الحال على هذا المنوال ، وسيستعمل المؤرخ بعد الف عام الكلمات نفسها فيما يتعلق بأوربا فى القرن التاسع عشر المنصرم ، وسيعلمكيف كان الناس منهمكين فىصراع

* على عهد السينما الصامتة طبعا ...

قوى رهيب ، على حين كانت المعامل من حولهم حافلة بقوم من أهل الجد لايعنون أية عناية بشئون السياسة ، ماداموا قادرين على حمل الطبيعة على البوح بقدر يسير آخرمن أسرارها التى تعد بالملايين.
ولسوف يتكشف لك رويدا رويدا ماأرمى اليه . فقد استطاع المهندسون والعلماء والكيمائيون فى مدى قرن أن يملأوا اوربا وأمريكا وآسيا بعدد هائل من آلاتهم وخطوط برقهم وطائراتهم ومنتجات القار المستخرج من الفحم الحجرى ، وأقاموا عالما جديدا أصبح الزمان والمكان فيه شيئا تافها لاقيمة له ، وابتكروا منتجات جديدة وهبطوا بأثمانها هبوطا جعل شراءها ميسورا للناس كافة تقريبا . وقد سبق أن ذكرت لك كل هذا ، ولكنه لاشك جدير بالاعادة .
وأحس أصحاب المصانع الذين كانوا قد غدوا حكام الأرض ، بالحاجة الى المواد الخام، والفحم خاصة، ضمانا لاستمرار مصانعهم المتزايدة فى العمل . وكان جمهور الناس مازالوا فى الوقت نفسه يفكرون بعقلية القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ويتمسكون بالافكار القديمة عن الدولة بوصفها أمة تتوارث حكمها أسرة مالكة أو نظام سياسى .
وقد استعين بهذا النظام الفج المأثور عن القرون الوسطى فجأة لحل مشاكل هذا العالم الذى يسير على أحدث طراز ، عالم الآلات والصناعة . وقد فعل هذا النظام كل مافى وسعه فى حدود القواعد التى وضعت له منذ قرون ، وجهزت الدول على اختلافها جيوشا ضخمة ، وأساطيل هائلة استخدمتها فى الحصول على أملاك جديدة فى بلاد قاصية ، وكانت تقوم مستعمرة انكليزية أو فرنسية أو المانية أو روسية حيثما خلت قطعة أرض صغيرة من طامع يطمع فيها ، فاذا اعترض أهلها قتلوا . على أنهم كانوا لايعترضون فى معظم الأحيان ، ومن ثم كانوا يؤمنون على حياتهم ماداموا لايتدخلون فى مناجم الماس أو الفحم أو الذهب أو فى مزارع المطاط ، ويجنون منافع كثيرة من الاستعمار الأجنبى .
ويتفق أحيانا أن تطمع دولتان من الدول الباحثة عن المواد الخام فى قطعة واحدة فى آن واحد . فتنشب بينهما الحرب ، وقد حدث هذا منذ أمد قريب حينما تقاتلت روسيا واليابان فى سبيل امتلاك بعض أراض من أملاك الصين . على أن هذه الحروب تعد خروجا عن المألوف ، ذلك أنه ما من دولة ترغب فى القتال حقا . والواقع أن فكرة القتال بالجيوش والبوارج والغواصات أخذت تبدو سخيفة فى أعين الناس فى مستهل القرن العشرين . فقد رأوا أن فكرة الالتجاء الى العنف تقترن بعهد الملكيات المطلقة والأسر الحاكمة المتآمرة ، وهو عهد جر عليه النسيان أذياله منذ أمد بعيد . فقد كانوا يقرأون فى صحفهم كل يوم انباء ابتكار مخترعات جديدة ، وأخبار شراذم من العلماء الانكليز والأمريكان والالمان كانوا يعملون معا متوادين أصدق الود ، فى سبيل الاهتداء الى كشف جديد فى الطب أو فى الفلك . وكان أولئك الناس يعيشون فى عالم حافل بالصناعة والتجارة والمصانع . ولكن قل منهم من لاحظ أن تطور الدولة ، ونعنى بها هذه الجماعة الهائلة من الناس الذين يدينون بمثل مشتركة ، كان متخلفا عن الزمن عدة مئات من السنين .
وقد حاول هؤلاء أن يحذروا غيرهم ، ولكنهم وجدوهم مشغولين بشئونهم الخاصة .
ولقد سبق أن استعملت عددا كبيرا من التشبيهات وانى استميحكم العذر فى استعمال تشبيه آخر . كانت سفينة الدولة (وهو التعبير القديم الموثوق به الذى لاتخلق جدته ولا رواؤه ابدا) عند المصريين والاغريق والرومان والبنادقة والتجار المغامرين فى القرن السابع عشر ، سفينة متينة البنيان مصنوعة من خشب تم جفافه ، يقودها ربابنة عركوا بحارتهم ومركبهم ، وعرفوا حدود فن الملاحة الذى تناقلوه عن أجدادهم .
ثم اقبل العهد الجديد ، عهد الحديد والصلب والآلات ، فتغير جزء من السفينة القديمة ثم تغير جزء آخر ، واتسعت رقعتها وحل البخار محل الشراع ، وأقيمت أحياء للسكنى أفضل وأحسن ، ولكن عددا أكبر من الناس اضطر الى الهبوط الى موقد السفينة . وكان العمل فى الموقد مأمونا مجزيا الى حد لابأس به الا أنهم كرهوه كراهيتهم لعملهم القديم فى جذب أشرعة السفينة وتسلق أمراسها .
وانتهى الأمر بأن استحالت هذه السفينة الخشبية القديمة ذات الأشرعة المربعة ، على نحو لم يكد يحس به أحد ، عابرة محيط حديثة . على أن ربان السفينة وملاحيه ظلوا على حالهم بلا تغيير ولا تبديل ، فكانوا يعينون أو يختارون على مثال ماكان يحدث منذ مائة سنة خلت . وكانوا يتدربون على أصول الملاحة التى كان يتدرب عليها ملاحو القرن الخامس عشر . وكانت تعلق فى قمراتهم الخرائط البحرية نفسها والبنود التى كانت تستعمل فى أيام لويس الرابع عشر وفردريك الأكبر . وصفوة القول أنهم كانوا أبعد مايكونون عن الكفاية ، ولم يكن الذنب فى ذلك ذنبهم .
وليس بحر السياسة الدولية ببحر مترامى

الأطراف . ومن ثم كانت الحوادث خليقة بأن تحدث عندما أخذت بواخر الدول الامبراطورية والاستعمارية تعجم كل منها عود الأخرى ، وتتسابق فيما بينها . بل لقد وقعت هذه الحوادث فعلا ، وما زال فى مقدورك أن تشاهد حطامها اذا اجترأت على عبور ذلك الجزء من المحيط .

والمغزى المستفاد من هذه القصة بسيط سهل . فالعالم فى أشد الحاجة الى رجال يتولون زعامته من جديد ، رجال أوتوا الشجاعة الكفيلة بتحقيق مايطوف بأحلامهم ، رجال يستطيعون أن يتبينوا أننا مازلنا فى بدء المرحلة ، وأنه يجب عليهم أن يتعلموا نهجا جديدا فى الملاحة لم يسبقهم اليه أحد قط .

ويجب على هؤلاء الرجال أن يتمرسوا بهذا الفن الجديد عدة سنوات تمرس التلاميذ . وعليهم أن يشقوا طريقهم الى القمة مقتحمين كل عقبة يمكن أن تصادفهم فى طريقهم . وقد يتمرد عليهم ، اذا بلغوا الجسر ، ملاحوهم الشانئون فيوردوهم مورد الهلاك . ولكن سوف يظهر من بين الصفوف فى يوم من الايام ، رجل يقود السفينة الى شاطىء الأمان ، فيكون هذا الرجل بطل العصور .


هكذا كانت الدنيا .. وهكذا ستكون ..

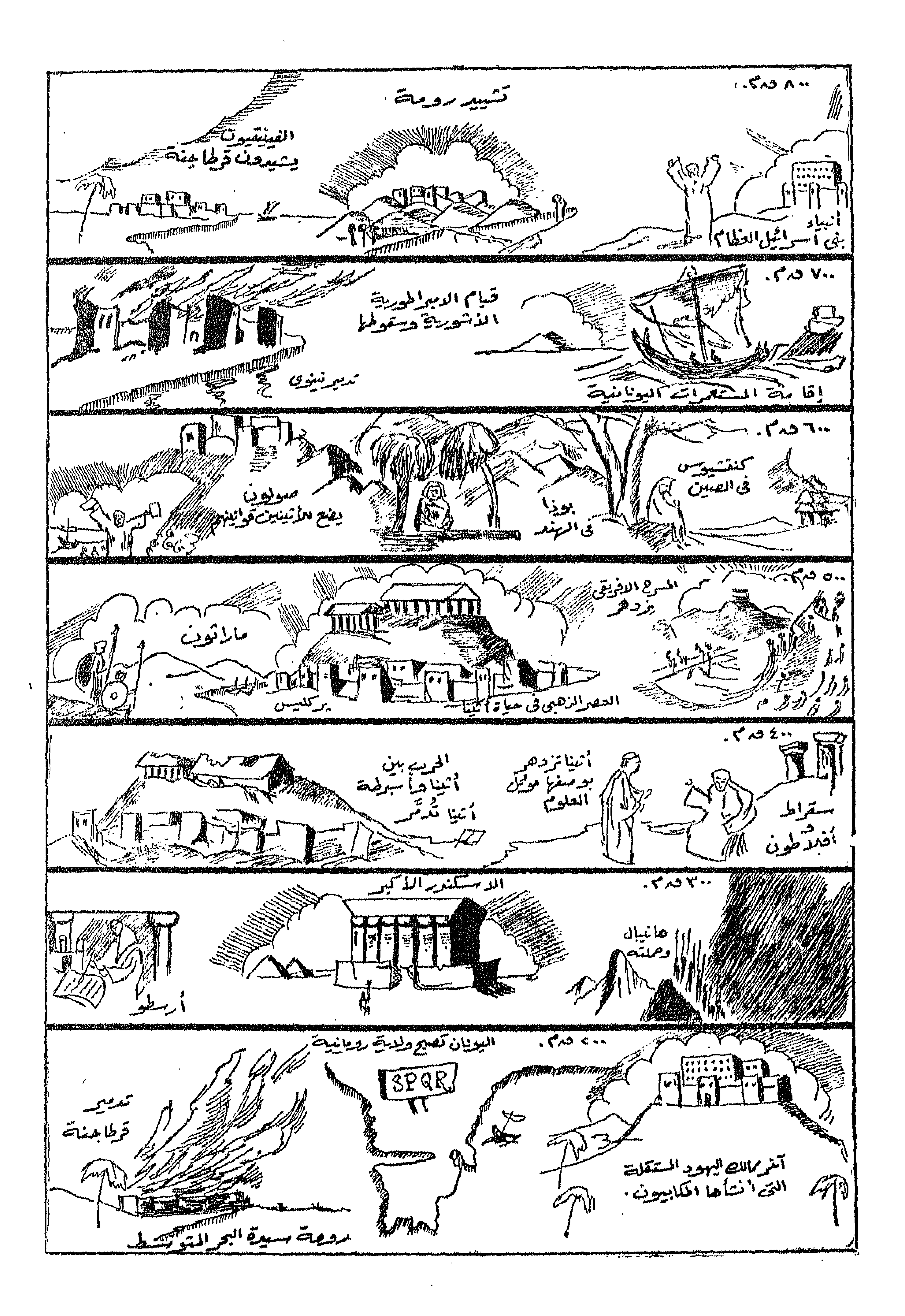
« كلما أمعنت النظر فى مشاكل حياتنا ، زدت اقتناعا بانه يجب علينا ان نحتكم الى السخرية والرحمة ، شأننا شأن المصريين الذين كانوا يبتهلون الى ربتهم ايزيس وربتهم نفتيس يسألونهما الرحمة لموتاهم .

« والسخرية والرحمة كلتاهما ناصح أمين . فالأولى تجعل الحياة مقبولة بما تثيره من بسمات ، والثانية تبارك الحياة بدموعها .

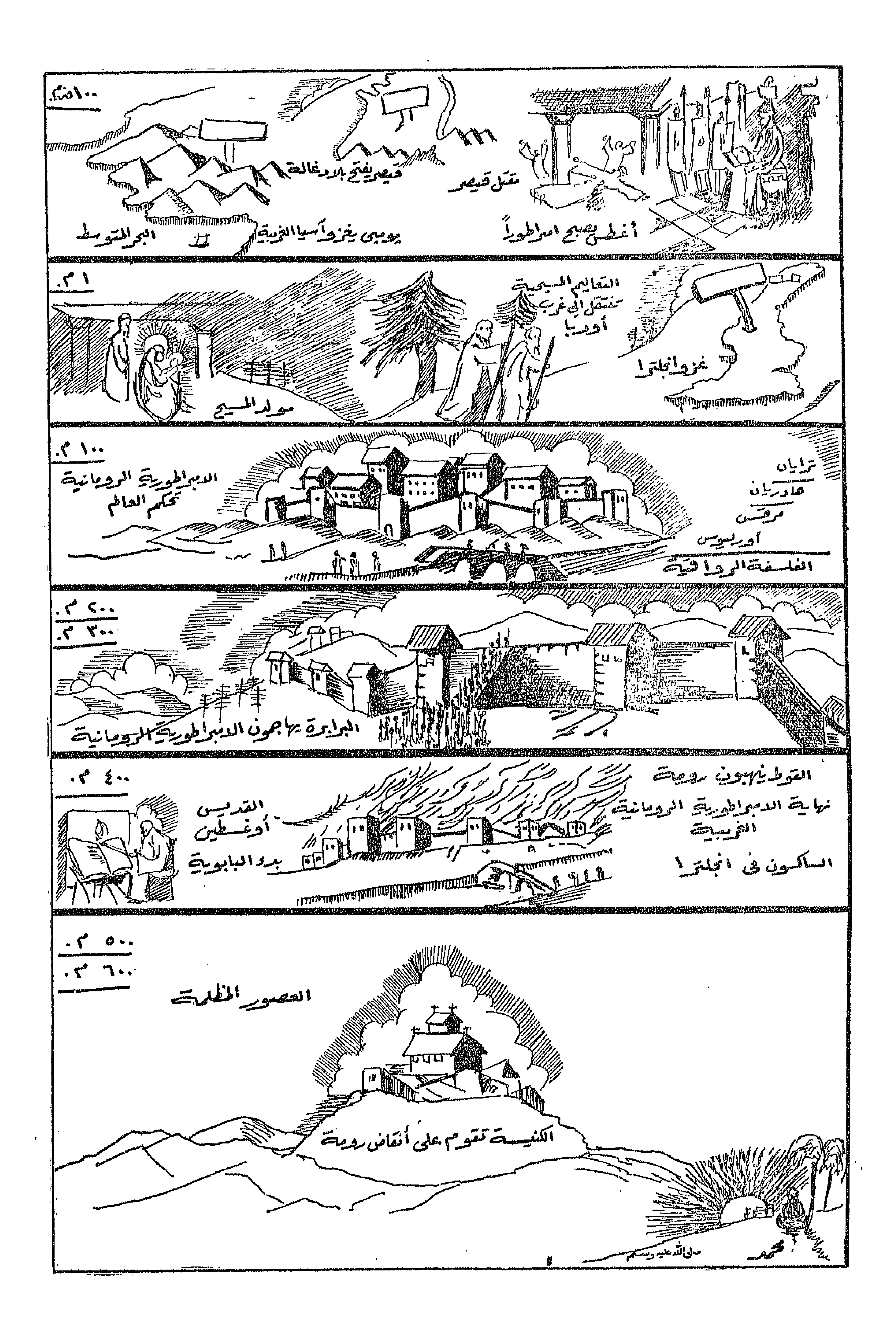
« والسخرية التى أنشدها ليست الها جبارا عاتيا ، فهى لاتسخر بالحب ولا بالجمال ، وهى سخرية لطيفة ودود ، تجرد بمرحها المرء من سلاحه . وهى التى تعلمنا كيف نضحك من الأشرار والحمقى ، ولولاها لتخاذلنا وازدريناهم وحقدنا عليهم » .

وبهذه الكلمات الحكيمة التى قالها رجل من خيرة عظماء الفرنسيين .. أستودعكم الله .

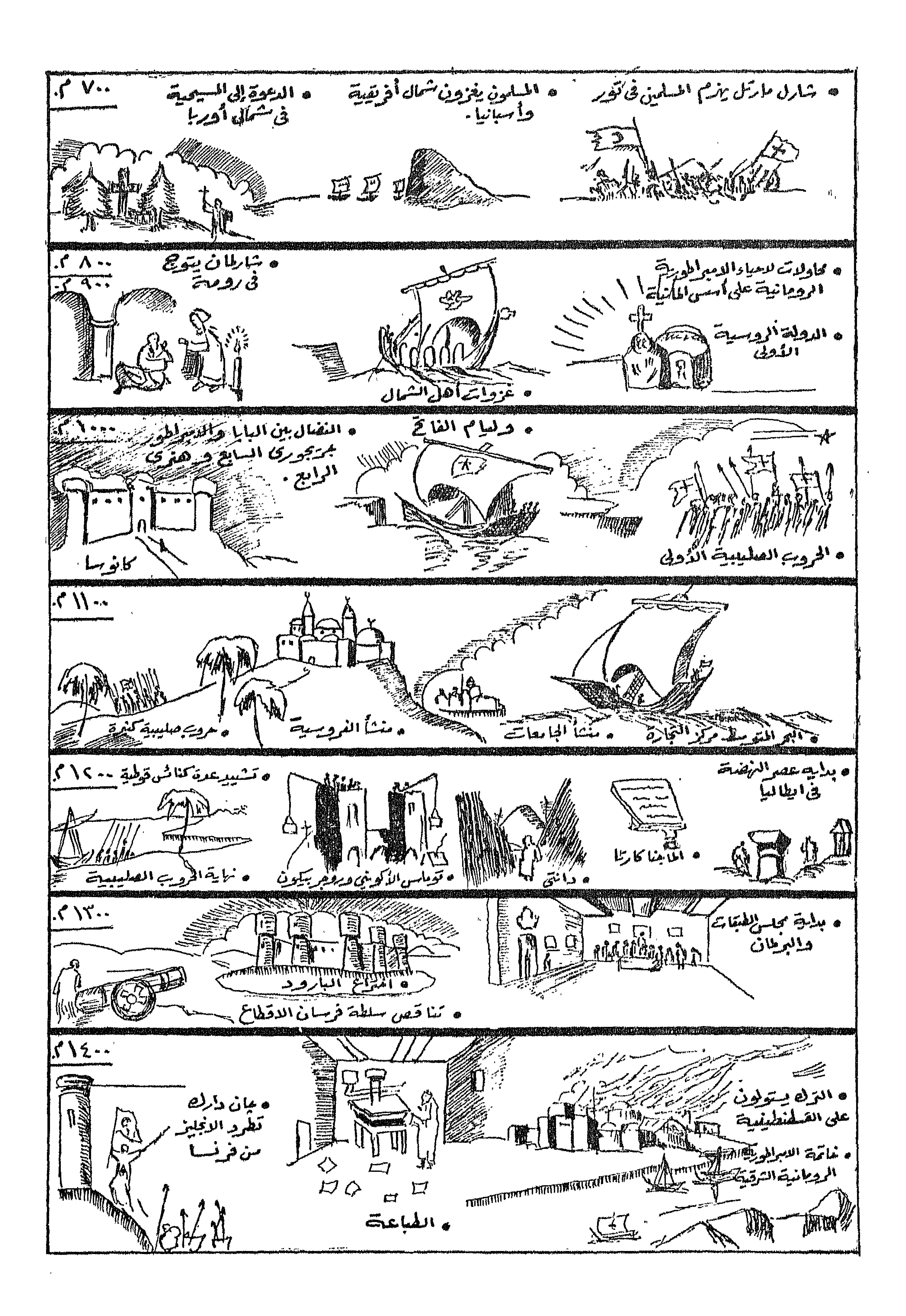

سجلّ تاريخي حيّ...
من عام ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد
الى عام ١٩٢٢ بعد الميلاد
أحقاب ما قبل التاريخ
٥٠٠,٠٠٠ - ٦٠٠٠
العصر الثلجي
٤٠٠٠ ق م.
الحضارة فى مصر
شيدت الأهرامات
التقويم الأول
فى مصر
٣٠٠٠ ق م.
الامبراطورية المصرية
٢٠٠٠ ق م.
الحضارة فى بلاد ما بين النهرين
اليهود فى مصر
حمورابى فى بابل
نينوى
١٠٠٠ ق م
حرب طروادة
الآخيون يستولون
على بلاد الاغريق
٩٠٠ ق م
"المعبد"
مملكة بنى اسرائيل فى فلسطين
نشأة دول المدن اليونانية



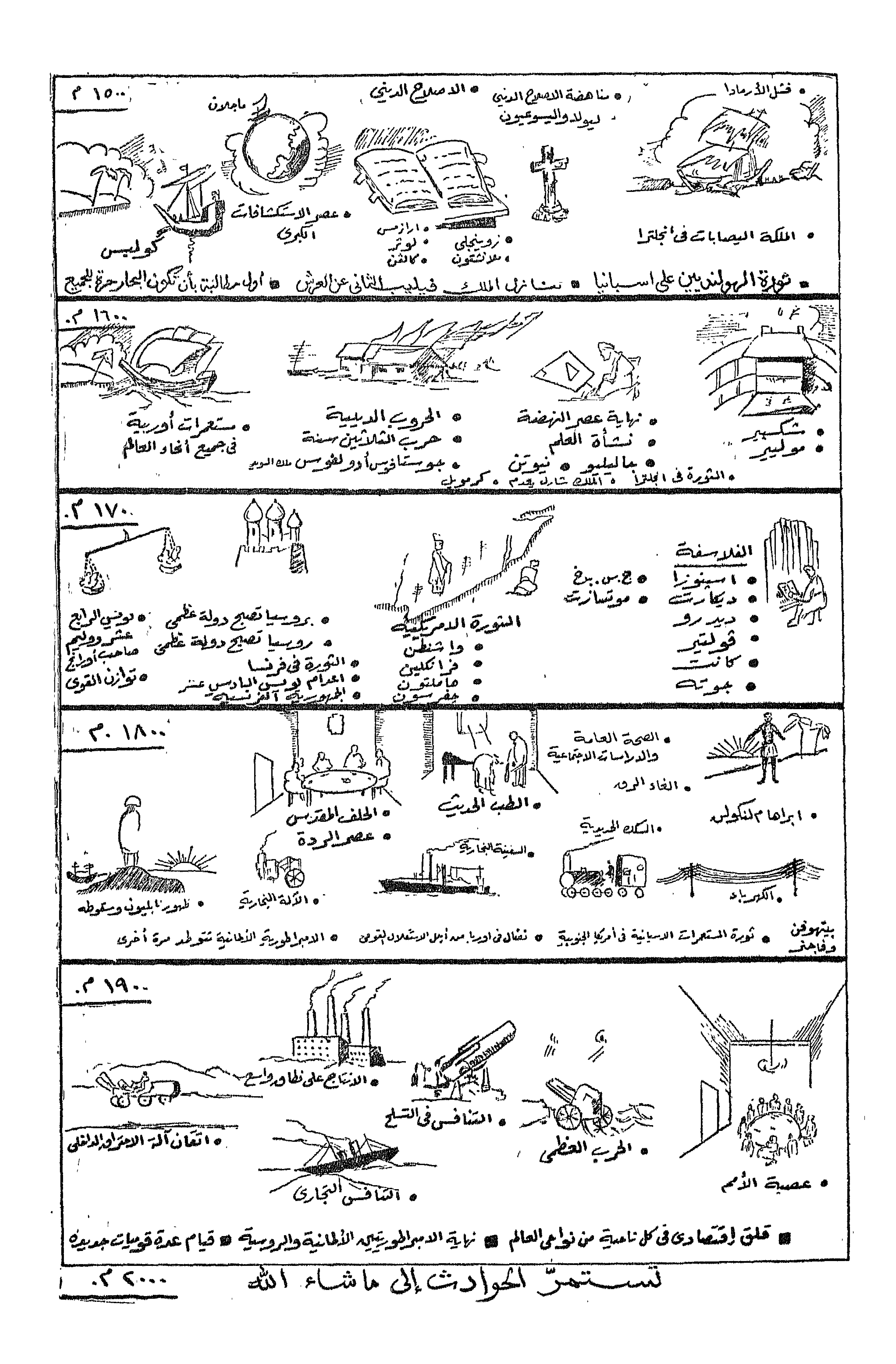
٨٠٠ ق.م.
تشييد رومة
الفينيقيون يشيدون قرطاجنة
أنبياء بني إسرائيل العظام
٧٠٠ ق.م.
قيام الإمبراطورية الآشورية وسقوطها
تدمير نينوى
إقامة المستعمرات اليونانية
٦٠٠ ق.م.
كنفشيوس في الصين
بوذا في الهند
صولون يضع للأثينيين قوانينهم
٥٠٠ ق.م.
المسرح الإغريقي يزدهر
ماراثون
العصر الذهبي في حياة أثينا
بركليس
٤٠٠ ق.م.
سقراط و أفلاطون
أثينا تزدهر بوصفها موئل العلوم
الحرب بين أثينا وإسبرطة
أثينا تدمر
٣٠٠ ق.م.
الإسكندر الأكبر
هانيبال وحملته
أرسطو
٢٠٠ ق.م.
اليونان تصبح ولاية رومانية
SPQR
تدمير قرطاجنة
آخر ممالك اليهود المستقلة التي أنشأها المكابيون.
رومة سيدة البحر المتوسط



١٠٠ ق.م
قيصر يفتح بلاد الغالة
مقتل قيصر
البحر المتوسط
بومبي يغزو آسيا الغربية
أغسطس يصبح امبراطوراً
١ م.
التعاليم المسيحية تنتقل الى غرب أوروبا
غزو انجلترا
مولد المسيح
١٠٠ م.
الامبراطورية الرومانية تحكم العالم
ترايان
هادريان
مرقس
أورليوس
الفلسفة الرواقية
٢٠٠ م.
٣٠٠ م.
البرابرة يهاجمون الامبراطورية الرومانية
٤٠٠ م.
القوط ينهبون رومة
نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية
الساكسون فى انجلترا
القديس أوغسطين
بدء البابوية
٥٠٠ م.
٦٠٠ م.
العصور المظلمة
الكنيسة تقوم على أنقاض رومة
محمد
صلى الله عليه وسلم



٧٠٠ م.
• شارل مارتل يهزم المسلمين في تور
• المسلمون يغزون شمال أفريقية وأسبانيا.
• الدعوة إلى المسيحية في شمالي أوربا
٨٠٠ م.
٩٠٠ م.
• محاولات لإحياء الامبراطورية الرومانية على أسس ألمانية
• الدولة الروسية الأولى
• شارلمان يتوج في رومة
• غزوات أهل الشمال
١٠٠٠ م.
• النضال بين البابا والامبراطور جريجوري السابع وهنري الرابع.
• وليام الفاتح
• الحروب الصليبية الأولى
كانوسا
١١٠٠ م.
• البحر المتوسط مركز التجارة
• منشأ الجامعات
• منشأ الفروسية
• حروب صليبية كثيرة
١٢٠٠ م.
• بداية عصر النهضة في ايطاليا
• تشييد عدة كنائس قوطية
• الماجنا كارتا
• دانتي
• توماس الأكويني وروجر بيكون
• نهاية الحروب الصليبية
١٣٠٠ م.
• بداية مجلس الطبقات والبرلمان
اختراع البارود
• تناقص سلطة فرسان الاقطاع
١٤٠٠ م.
• الترك يستولون على القسطنطينية
• خاتمة الامبراطورية الرومانية الشرقية
• جان دارك تطرد الانجليز من فرنسا
• الطباعة



١٥٠٠ م
فشل الأرمادا
مناهضة الاصلاح الديني
ليولد واليسوعيون
الاصلاح الديني
ماجلان
عصر الاستكشافات الكبرى
كولمبس
ارازمس
زونجلي
لوثر
ملانكتون
كالفن
الملكة اليصابات في انجلترا
ثورة الهولنديين على اسبانيا ■ تنازل الملك فيليب الثاني عن العرش ■ أول مطالبة بأن تكون البحار حرة للجميع
١٦٠٠ م
شكسبير
موليير
نهاية عصر النهضة
نشأة العلم
جاليليو
نيوتن
الحروب الدينية
حرب الثلاثين سنة
جوستافوس أدولفوس ملك السويد
مستعمرات أوربية في جميع أنحاء العالم
الثورة في انجلترا
الملك شارل يعدم
كرمويل
١٧٠٠ م
الفلاسفة
اسبينوزا
ديكارت
ديدرو
فولتير
كانت
جوته
ج. س. باخ
موتسارت
الثورة الامريكية
واشنطن
فرانكلين
هاملتون
جفرسون
بروسيا تصبح دولة عظمى
روسيا تصبح دولة عظمى
الثورة في فرنسا
اعدام لويس السادس عشر
الجمهورية الفرنسية
لويس الرابع عشر ووليم صاحب أورانج
توازن القوى
١٨٠٠ م
الصحة العامة والدراسات الاجتماعية
الغاء الرق
ابراهام لنكولن
الطب الحديث
الحلف المقدس
عصر الردة
السكك الحديدية
السفينة البخارية
الآلة البخارية
الكهرباء
ظهور نابليون وسقوطه
بيتهوفن وفاجنر
ثورة المستعمرات الاسبانية في أمريكا الجنوبية
نضال في أوربا من أجل الاستقلال القومي
الامبراطورية الألمانية تتوطد مرة أخرى
١٩٠٠ م
الانتاج على نطاق واسع
التنافس في التسلح
الحرب العظمى
عصبة الأمم
اتقان آلة الاحتراق الداخلي
التنافس التجاري
قلق اقتصادي في كل ناحية من نواحي العالم ■ نهاية الامبراطوريتين الألمانية والروسية ■ قيام عدة قوميات جديدة
٢٠٠٠ م
تستمر الحوادث إلى ما شاء الله

لقد انقضى عهد الكتب التاريخية المقررة الخالية من رسوم توضحها . فرسوم المشاهير وصورهم الشمسية وكذلك صور الأحداث المشهورة ، تملأ صفحات الكتب السائرة . وقد أهملت الصور الشمسية فى هذا الكتاب لأفسح المجال لسلسلة من الرسوم خططتها فى بيتى لتمثل الافكار أكثر مما تمثل الحوادث .

ومؤلف هذا الكتاب اذ لايدعى أنه بلغ مرتبة عظيمة من الكمال الفنى (فقد كان يميل ميلا واضحا للرسم وهو بعد طفل ، ومع ذلك فقد تعلم العزف على الكمان بوصفه واجبا من واجباته) . . . ليفضل أن يصنع خرائطه ورسومه التخطيطية بنفسه ، لانه يعلم على وجه اليقين مايريد أن يقول ، وليس فى مقدوره أن يشرح مايرمى اليه لزملائه الذين يفوقونه فى حلبة الفن . زد على ذلك أن جميع الصور قد رسمت للأطفال ، وأفكار الأطفال عن الفن مختلفة تمام الاختلاف عن أفكار والديهم .

وانى لأسوق هذه النصيحة الى جميع المدرسين : دعوا تلاميذكم من البنين والبنات يرسمون تاريخهم وفق ما يشاءون كلما واتتكم الفرصة . وأنتم تستطيعون أن تطلعوا تلاميذ فصلكم على صورة معبد من معابد الاغريق ، أو قلعة من قلاع القرون الوسطى ، وسيجيبكم التلاميذ الى ماتطلبون قائلين : « سمعا وطاعة يا أستاذنا » أو « سمعا وطاعة يا معلمنا » ثم يأخذون فى نسيان كل شىء عن ذلك . ولكن اجعلوا المعبد الاغريقى أو القلعة الرومانية محور حادثة من الحوادث ، ودعوا الأولاد يرسمون بأنفسهم صورة « تشييد المعبد » أو « اقتحام القلعة » . . . فهم بلا شك سيتأخرون عن ساعات الانصراف للانتهاء مما وكل اليهم . ومعظم الأطفال يستطيعون الرسم من نموذج قبل أن يتعلموا كيف يرسمون من قوالب من الصلصال ، وهم خليقون فى كثير من الأحوال أن يجيدوا الرسم بهذه الطريقة . وقد يبدو فيما يرسمونه بأقلامهم شىء من فن ماقبل التاريخ ، بل قد يبدو مشابها لرسم بعض قبائل الكونغو الأعلى . على أن الطفل او الطفلة كثيرا مايكون هذا شأنه فى تذوقه للفن فيعبر عن هذه الغرائز البدائية تعبيرا عجيبا فى دقته .

والمهم فى دراسة التاريخ هو أن يتذكر التلميذ حوادث بعينها فى « سياقها الزمنى » ، وقد أقنعت تجارب السنين الطويلة المؤلف بأن الأطفال قلما ينسون ما رسموا ، وقلما يذكرون ما اكتفوا بقراءته .

وهذا هو أيضا الشأن بالنسبة للخرائط . اعط الطفل خريطة من الخرائط المأثورة المألوفة ذات النقاط والخطوط والبحار الخضر ، واطلب منه ومنها أن يعيد ابراز هذا المنظر الجغرافى من عنده . وعندئذ سوف تبدو الجبال شاذة بعض الشذوذ عن نسق الخريطة ، والمدن قريبة الى حد عجيب من مدن العصور الوسطى ، كما تبدو المعالم فى كثير من الأحيان بعيدة كل البعد عن الدقة ، على أن المنظر فى جملته سيبلغ من الصدق والأمانة مبلغ خرائطنا المأثورة التى دابت منذ أيام السيد **جراردوس مرقاتور** ، تحكى قصة عجيبة فى خطئها . وأهم من ذلك كله أن هذه الخريطة ستجعل الطفل يشعر بألفة بينه وبين الحقائق التاريخية والجغرافية لاتتأتى بأية طريقة أخرى .

فهرس

الجزء الأول

صفحة



الجزء الثانى

كتاب الشعب

تصدره

جريدة الشعب

لم نصدر ((**كتاب الشعب**)) الا بعد دراسة مستفيضة شاملة ...

حددنا الأهداف ، وحددنا الميدان ، وحددنا الوسائل ...

***

أدركنا أن حاجة البلاد الى كتب قيمة قليلة العدد ، يشترك فى قراءتها مئات الألوف ، أشد من حاجتها الى مئات الكتب يطبع منها بضعة آلاف ولا يقرأها الا بضع مئات من القارئين .

فبالكتب الأولى نصل الى النسيج الثقافى العام المتجانس ، الذى يؤدى الى التفكير العام المتجانس ، والعمل الجماعى الذى حرمنا بركة آثاره دهورا طوالا .

أما الكتب الثانية فلا نصل بها الا الى النسيج الثقافى المتمزق ، الذى يجعلنا نصيب النجاح — اذا أصبناه — أفرادا ، ونمنى بالاخفاق جماعات .

فمن أهدافنا ، اذن ، أن تكون كتبنا ايجابية نافعة ، يشعر المرء — بعد قراءة الكتاب منها — بأن مستواه الثقافى قد ارتفع .

ومن أهدافنا أيضا أن يقرأها وهو يشعر بأنه يشارك مئات الألوف من مواطنيه قراءات رفيعة ، ويزاملهم فى نهضة فكرية شاملة .

***

أما ميداننا فهو العلم النافع ، والثقافة الرفيعة .

واذا كان هذا قد بدا فيما أصدرنا من كتب حتى اليوم ، فانه سيزداد وضوحا كلما جد بنا المسير .

***

أما وسائلنا فهى تخفيض ثمن الكتاب ، حتى يقبل على القراءة النافعة المفيدة كل قارىء واع ، دون أن يصطدم بعقبة ارتفاع أثمان الكتب الثقافية الجيدة ، فيسير الجميع مع موكب النهضة الذهنية الشاملة ، وركب الوعى الثقافى الصاعد ...

***

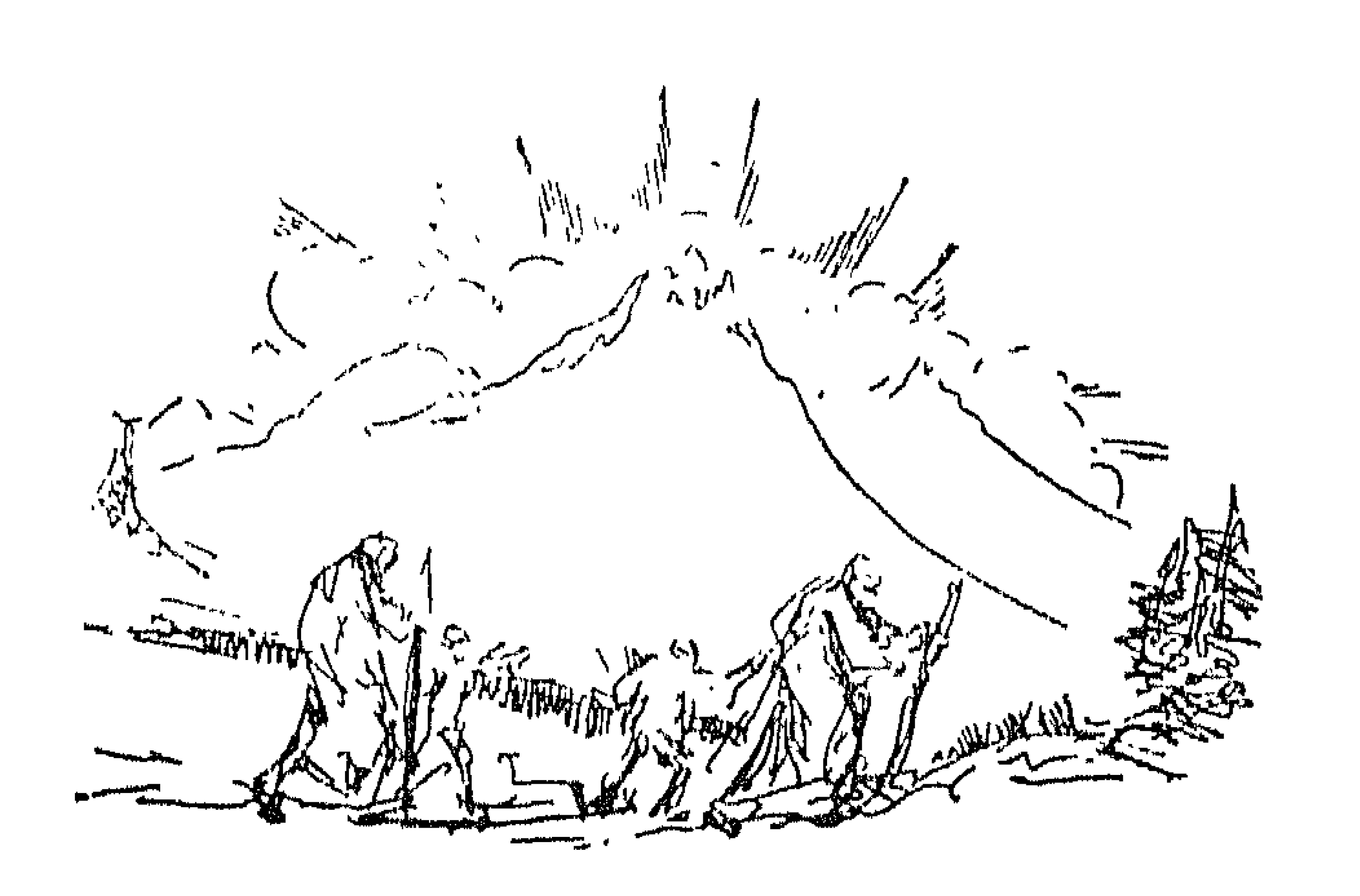
وواضح أن المشروع ليس مشروعا تجاريا .

فليس الثمن الذى حددناه مصدرا لربح .

وليس الميدان الذى اخترناه يغرى الا طبقة ممتازة من القراء عددها فى جميع بلاد العالم أقل من قراء « الكتب الأخرى » ...

***

هذه أهداف ((**كتاب الشعب**)) ، واضحة ناصعة ، لانبغى من ورائها الا وجه العلم ، وحسبنا العلم سبيلا الى كل مانبغى من رقى وتقدم ونهوض ...









مطابع الشعب